مِنْ هُدَى القُرآنِ

٤

تفسير سُوَر

الأنفال - التوبة - يونس

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرّسي



سورة الانفال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة

قال رسول الله (ص) :

«من قرأ سورة الأنفال وبراءة فانا شـفيع له وشـاهد يوم القيامة انه بـريء من النفـاق واعطي من الأجر بعـدد كل منـافق ومنافقة في دار الـدنيا عشر حسـنات ومحي عنه عشر سـيئات ورفع له عشر درجـات وكـان العـرش وحملته يصـلون عليه أيـام حياته في الـدنيا» مجمع البيـان ص (516)

عن أبي عبد الله الحسين (ع) قال :

«من قـرأ سـورة الأنفـال وبـراءة في كل شـهر لم يدخله نفـاق وكـان من شـيعة أمـير المؤمـنين (ع) حقا ويأكل يـوم القيامة من موائد الجنة معهم حـتى يفـرغ الناس من الحساب» البيان ص (516) ج 4

و عن الامام الباقر (ع) قال :

«في سورة الأنفال جدع الأنـوف» مجمع البيـان ص (516) ج 4

الإطار العام

سـميت الســورة الثامنة من القــرآن بالأنفــال لأن الحديث الاول فيها عن الغنـائم الاضـافية الـتي تسـمى ب (النفل) وهو كل زيـادة تعطى ، و في الحـديث الصـحيح. «ان الأنفال : كل ما أخذ من دار الحرب بغير قتـال ، وكل ارض انجلى أهلها عنها بغير قتال ، ويسميها الفقهـاء فيئا ، وقطـائع الملـوك إذا كـانت في أيـديهم من غـير غصب ، والاجام ، وبطون الاودية ، والأرضون الموات».

ويمكننا ان نـوجز الأنفـال في عبـارة : هي كل شـيء يتحرر من الملكية الخاصة ، فيعـود الى الملكية العامة بيد امام الامة ، وفي عهد رسول الله (ص) يكون بالطبع في يده (ص).

الموضوع :

بعد ان جــاءت الآية الاولى في الأنفــال ، والآية (41) في خمس الغنائم بينما

كـــانت الآية (66) في حلّية أكل الغنـــائم ، وهـــذه الآيـــات الثلاث تشكل حكما واحدا حيث يجب تقسيم الغنائم الـــتي يحصل عليها الجيش المجاهد بين المقـــاتلين ، بعد إخـــراج خمســها لــبيت المــال ، اما ما وراء الغنــائم من الأنفــال ، فهي لبيت المال ـ الدولة ـ.

اما الآيات الاخرى في السورة فهي تدور حول صفات المؤمـــنين الصـــادقين والـــتي منها تصـــديقهم بـــالغيب. إذ يســتجيبون للرســالة حــتى ولو كــانت مخالفة لأهــوائهم أو نظراتهم الضيقة ، حيث اخرج الله نبيه بالحق بـــالرغم من كراهة طائفة من المؤمنين ، والهــدف كــان كسب القتــال فقد أمد الله جيش الإســـلام بالملائكة ليكونـــوا بشـــرى للقلــوب ، وتســتمر الآيــات تتحــدث عن الجهــاد وعوامل هزيمة الكفار وأسباب انتصــار المســلمين الــتي يأمرنا ربّنا بها ، في الآيـــات (15) ومنها الثبـــات وارادة مرضـــاة الله تعالى ، وطاعة القيادة ، والاستجابة لدعوة الرسول (ص) ، وتجنب الفتنة ، والتحــــرر من جاذبية الأهل والأمـــوال ، والتقوى والبصيرة.

أما مكر الكفار ودعاياتهم الــتي تتحــدث عنها الآيــات (30) فانها زائلة مثل قــولهم : انهم قــادرون على ان يــأتوا بمثل القرآن ، أو التحــدي باســتعجال العــذاب ، أو الصــلاة عند البيت مكاء وتصدية أو إنفاق أموالهم التي من نتائجها تعبئة الكفار ، لكي يكون القضاء عليهم مرة واحدة.

ويبين القرآن ضرورة القتال الشديد ضد الكفار بهدف اقتلاع جذور الفتنة ، وعدم الخوف لان نصر الله قريب. إذ ان الله ســبحانه يقضي بــالحرب بــرغم تهــاون فريق من المســلمين عنها خوفا ، لكي يقضي امــرا كــان مفعــولا ، ولكنّ للنصر شروطا منها الثبات والطاعة وعــدم الــنزاع ، والصبر وعــدم البطر ، وتجنب الريــاء ، وان يكــون الهــدف هو مرضـــاة الله ، اما أولئك الـــذين اســـتهدفوا الصد عن سبيل الله فان الشيطان غرهم ثم تركهم ، اما المؤمنــون فان الدين يشجعهم على الجهاد وليس هذا غرورا وإذا

لم تقتلع الحرب جذر الفساد فان سنة الله في الحياة هي الـتي تقضي بنهاية المفسـدين كما فعل ربنا بـآل فرعـون الظالمين.

ويعـرج القـرآن الى ذكر اسـتراتيجية القتـال كما جـاء في الآيات (57) فيأمر بإلقاء الـرعب ليس فقط فيمن هو بالجبهة ، بل بكل الأعــداء ، وضــرورة الاســتعداد للقتــال ســلفا ، وضــرورة قبــول الســلم والتوكل على الله فيها ، والاعتماد على الله في الا يكون سلمهم خداعا ، وضرورة الوحــدة ، والتحــريض على القتــال ، والاســتعداد النفسي لقبـــول التضـــحيات ، وفي مقابل التضـــحيات يحصل المسلمون على الغنائم الحلال.

اما الأسرى فلو كانت نياتهم صافية فان جزاءهم على الله ، ويجب ان يحسن معاملتهم دون خوف من خيانتهم (70).

وفي نهاية الســورة (72) يلخص القــرآن موضــوع السورة ويأمر بالهجرة والجهاد بالمال والنفس ، ويبين ان من يفعل ذلك أولياء لمن يأوي المهاجرين وينصر الرسالة بينما الكفــار هم فئة واحــدة ، والمؤمنــون المجاهــدون مهــاجرين وأنصــارهم صــفوة المؤمــنين وأولــوا الأرحــام بعضهم أولياء بعض.

وهكذا تدور آيـات سـورة الأنفـال في مسـائل القتـال من أجل الله.

سورة الانفال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَـاتَّقُوا اللــهَ وَأَصْــلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُــوا اللــهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِـرَ اللـهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُـهُ زادَتْهُمْ إِيمانـــاً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـــونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنـاهُمْ يُنْفِقُـونَ (3) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجـاتٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)**

---

2 [وجلت] : خافت وفزعت.

حق التصرف في الاملاك العامة

هدى من الآيات :

لمن هي الاملاك العامـــة؟ ومن يملك حق التصـــرف فيها؟

انها لله ولرســوله (ص) ، وعلى أبنــاء الامة الــتزام الوحدة والانضـباط لان الايمـان هو الـذي يـوقر في القلب وينعكس على العمل ، فـــالمؤمنون هم (**الَّذِينَ إِذا ذُكِـــرَ اللـــهُ وَجِلَتْ قُلُــوبُهُمْ**) ، واهــتزت خوفا وطمعا ومحبة ، وازداد ايمانهم كلما ذكرت لهم آيات الله الناطقة وغيرها ، ولم يشعروا بضعة أمـام شـيء أو شـخص لأنهم يتوكلـون على الله ربهم ومــدبر أمــورهم ، وينعكس هــذا الايمــان القلبي الراسخ على سلوكهم ، فاذا هم يقيمـون الصـلاة ، وينفقون من كلّ ما رزقهم الله. أما جزاء هؤلاء المؤمـنين الصادقين فهو درجات عالية عند ربهم كل حسب أعماله ، ومغفـرة عما سـبق من ذنـوبهم ، ورزق كـريم في الحيـاة الدنيا والآخرة.

بينات من الآيات :

ما هي الأنفال؟ ولمن؟

[1] بعد حرب بدر طرح هذا السؤال :

لمن هي صـــفوة الغنـــائم والبقية الباقية من غنـــائم الحـــرب بعد تقســيمها على المجاهــدين؟ ويطـــرح هــذا السؤال أبدا كلما بقيت ممتلكات مطلقة غير مختصة بهـذا أو ذاك ولذلك جـاء التعبـير القـرآني عاما ، وجـاء الجـواب شـــاملا لكل الأملاك العامة ، أو لكل شـــيء لا يمتلك من قبل شـخص معين ، ذلك لأن كلمة الأنفـال تـدل على كل زيادة ، لذلك وسع الفقهاء مفهومها حـتى أصـبحت مقارنة لكلمة الملكية العامة في تعابيرنا الدارجة والـذي يتصـرف فيها هو الرسول الـذي يمثل القيـادة الشـرعية ومن بعـده خلفــاؤه ، أما مــوارد التصــرف فلا بد ان تتخذ حسب قيم التوحيد ، وبالتـــالي في ســـبيل الله وهو كل عمل يحقق أهـداف الرسـالة ابتـداء من الضـمان الاجتمـاعي للفقـراء والمساكين ومرورا بتكفل موظفي الدولة ، وخدمة الأمة ، وانتهاء بنشر الرسالة في الآفاق.

ولـــذلك ذكر القـــرآن ان الأنفـــال هي لله أولا ، ثم لرسوله (ص) باعتبار ان رضوان الله هو هـدف التصـرف في هــذه الاملاك ، والرســول أو القيــادة الرســالية هي القائمة عمليا بتحقيق هذا الهدف.

(**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ**)

التقوى في القضايا المالية :

وتقوى الله هنا تتحقق بأداء الواجبات المالية ، وعــدم الاعتداء على أموال الدولة التي هي لله وللرسول ، وأيضا بالتزام الوحدة وعدم الخلاف في القضايا ، حيث يطمع

كل فريق أن يكون نصـيبه الأكـبر من امـوال الدولـة. لـذلك أمر الله بإصـلاح العلاقـات الاجتماعية الـتي تربط الناس ببعضهم.

(**وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ**)

وإصلاح ذات الـبين لا يتم الا برصد ما يفسد في هـذه العلاقات ، والسـعي وراء إصـلاحها بصـفة مسـتمرة ودون كلل.

(**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

الصفات النفسية للمؤمنين :

[2] هناك ثلاث صفات رئيسـية للمؤمـنين لو لم توجد في شخص فعليه ان يشك في ايمانه.

الف : ان تبلغ معرفته بالله حــــــدا يخافه ، كلما ذكر عنده لأنه يعرف عظمته وقدرته واحاطته به علما وسـمعا وبصرا ، فلما ذا لا يخاف منه وقد استخدم القـرآن الحكيم هنا كلمة الوجل ونسبها الى القلب فقال :

(**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُــــونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِـــرَ اللـــــهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**)

فما ذا يعني الوجل؟

ربما معناه التحرك حيث ان نسبة الخــوف الى القلب تعطي معـــنى يختلف عما إذا نسب الى الفـــرد ذاته وهو المعـنى الحقيقي لكلمة الوجل الـتي قد تكـون الاهـتزاز والتأثر والله العالم.

باء : لان قلوب المؤمن تتأثر بذكر الله فانها تستوعب الآيات ، فاذا ذكّروا

بآيات الله يزدادون ايمانا ، لأن اسـتماعهم الى الآيـات يتم من دون حجــاب الكفر والجحــود ، أو حجــاب الفجــور والفسوق.

بينما يزداد المنافق باستماع الآيات كفرا وجحـودا لأنه يفســرها عكســيا ، ويتحصن ضــدها كلما تكــررت عليه باعتباره معقّد تجاهها ، ومصمم سلفا على عدم قبولها.

(**وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً**)

والآيـات قد تكـون الناطقة وهي القـرآن ، وقد تكـون آيات الحياة ، فكل تطور في الطبيعة يتم وفق نظام دقيق يدل على تـدبير الله ، وكل نعمة تتجـددّ أو نعمة تـذهب أو كارثة تكــاد تقع فيــدفعها اللــه. كل ذلك يزيد المؤمــنين معرفة بالله وتسليما لقضائه سبحانه سبحانه.

جيم : وكلما زاد ايمان الفرد زاد اطمئنانه برحمة الله ، وبحسن تـدبيره ، وبالتـالي ازداد ثقة بـأن ربه سـبحانه لا يقطع به الحبل في منتصف الطريق ، وانه لو الــــــتزم بالمنهج السليم الذي أمر به الله فان سنن الحياة وقوانين الطبيعة والتأييد الغيبي سوف تساعده في شؤونه.

(**وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**)

ان الشــخص الجــاهلي والمتخلف يخشى الطبيعة فلا يســخرها لنفسه ، ويخشى النــاس فلا يســتخدم عقله بل يتبع أهـواءهم ، ويخشى العطب فلا ينشط ، بينما المـؤمن العارف يخشى الله تعالى ، ويتحدى الطبيعة ، ويخاف الله فيتبع عقله وهداه ، ولا يستســلم لأهـواء النـاس ، ويعـرف مــــواهب الله له ، الآن ومســـتقبلا ، فلا يخشى العطب والتعب فيمتلئ حيوية واندفاعا ، وهذا بعض معاني التوكل على الله التي تدل أيضا

على ثقة الشخص بما وهب الله له من قدرات وطاقات دون انتظار أو نظر لما في ايدي الآخرين.

تلك كانت الصفات النفسية للمؤمنين والتي تنعكس على السلوك العيني في صورة الصلاة التي تعبر عن الوجل من الله ... رجاء وخشية ، وفي صورة الأنفال التي تعبّر عن التوكل على الله دون خوف من انتهاء نعمه عليهم ونفاد مواهبه لهم.

[3] (**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**)

ان ذلك مقياس اكيد للايمان الذي فيه فوائد كثيرة أهمها : تكامل شخصية الفرد حسب درجات ايمانه ، وهذا التكامل ليس بمقياس الناس بل بقيم الله سبحانه ، فلا يضر المؤمن المتكامل الشخصية الا يعرف به الناس.

[4] (**أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**)

وبالايمان يطهر قلب الفرد عن الأدران والأمراض ، عن الكبر والعجب والغرور والانانية ، عن الحسد والحقد والظن والبغضاء ، عن الجهل والجهالة واتباع غير الحق.

وحين يطهر القلب ، يزكّى العمل ، ويحصل الفرد على المكاسب التي تأتيه بكرامة وعزة ، وليست المكاسب التي يحصل عليها الفرد بإيمانه كالتي يحصل عليها المنافقون والكفار حيث تمحق كرامتهم البشرية.

سورة الأنفال

كَما أَخْرَجَـكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِـكَ بِـالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقـاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (5) يُجادِلُونَـكَ فِي الْحَـقِّ بَعْـدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُسـاقُونَ إِلَى الْمَـوْتِ وَهُمْ يَنْظُـرُونَ (6) وَإِذْ يَعِـدُكُمُ اللـهُ إِحْـدَى الطّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَـوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُـونُ لَكُمْ وَيُرِيـدُ اللـهُ أَنْ يُحِـقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَـقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)

---

7 [ذات الشوكة] : ذات السلاح والقوة وهي النفير.

التسليم لأوامر الرب سبحانه

هدى من الآيات :

حين يبلغ الايمــان مســتوى النضج والكمــال ، يســلم صـــــاحبه نفسه للحق ، ويتوكل على الله ، ويــــترفع عن الحيـاة درجـات ، ويضـرب الله مثلا واقعيا على ذلك حيث هيّء ســبحانه الأمــور لخــروج نبيه (ص) وأنصــاره من المدينة في غــزوة بــدر بينما كــان فريق من المؤمــنين كارهين وهم يجادلون في جدوى الخروج حتى بعد ان تبين لهم صــدق الرســالة وســلامة أوامر الرســول (ص) ، ووعـدهم الله ان تكـون لهم احـدى الطـائفتين إما القافلة التجارية التي كانت لقريش وإما الجنود المســلحون. ومن الطبيعي ان يكون المسـلمون يفضـلون القافلة التجارية ، بينما الله كان قد قضى لهم بمواجهة الجيش المعادي لأن الله يريد تحقيق واقع الرســــالة الجديــــدة وليس فقط حصول المسلمين على حطام الدنيا ، كما يزيد ربنا ارغـام المجرمين بإحقـاق الحق وإبطـال الباطل حـتى لا يفكّـروا مستقبلا بمقاومة الرسـالة .. وهـذا كله مثل ايمـان وتوكل المؤمنين وعاقبته المتمثلة في الدرجات الرفيعة

بينات من الآيات :

(**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ**) :

[5] في الحياة انظمة يوحي بها الله عبر الرسالة ، وينفذ الله هذه الانظمة إما بيد الناس وإما بصورة غيبية ، وهذه الانظمة حق يتبعها المسلمون ويثق بها المؤمنون ، ويتوكلون على الله اطمئنانا بها ، ويتجاوزون كل عقبة في طريقهم ، والمثال الظاهر لذلك هي قصة حرب بدر ، حيث أخبر المسلمون بتحرك عير قريش قريبا من المدينة ، وبما ان المسلمين كانوا ينتظرون فرصة للثأر من أعدائهم الذين حاصروهم اقتصاديا ونهبوا ثرواتهم آنئذ بادر المسلمون للخروج ، إما للقتال وإما للغنائم ، وهكذا أخرج الله المسلمين من بيوت الأمن ، ودفعهم الى الحرب بينما كان فريق منهم كارهين.

(**كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ**)

وكراهتهم انما كانت بسبب عدم ايمانهم بالله وبالحق والمستقبل.

[6] وهذا الفريق كانوا يجادلون في الحق ، في الوقت الذي تبين لهم الحق في الرسالة الجديدة التي آمنوا بها وبصدقها وانها تتحدث عن الله.

(**يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ**)

والحق واضح ، وقد يكون شخص غير مقتنع به بسبب نقص فيه ، وليس في دلائل الحق.

(**كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ**)

وحيث انهم لا يعرفون طبيعة الحق ، وان عاقبته خير ورفاه ، لذلك لا ينشطون في طريقه بل يعتبرون كل تحرك نحوه كأنه تحرك نحو الموت الظاهر.

ذات الشوكة :

[7] وكـان ينتظر المسـلمون العـير فجـاءهم النفـير ، ولكن كـــانت في ذلك حكمة بالغة حيث أراد الله تحطيم شـوكة الكفـار واشـاعة الـرعب في نفوسـهم ، وتحـول المسلمون الى قوة عسكرية معترف بها في الجزيرة.

(**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ**)

اي انكم سوف تغلبون الأعداء بالتأكيد. فتحصـلون اما على قـافلتهم التجارية الـتي كـانت تمر قريبا منكم ، أو تهزمون جيشهم الذي يأتي لمحاربتكم ، ومع وعد الله لهم بالنصر فإنهم كانوا يحلمون بالعير ويخافون النفير.

(**وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ**)

وذلك خوفا من مواجهة العدو عسكريا والله يريد غـير ما يريده الناس ... النـاس يريـدون عاجل المكاسب والله يريد تحقيق الاهـداف البعيـدة للامة وذلك بـدعم جـانب الرسالة الحقة ، واستئصـال شـأفة الكفـار ، حـتى لا يبقى لهم كيان يعتمدون عليه.

(**وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ**)

حيث ان أوامر الله بـــالخروج لا تهـــدف حصـــول المسلمين على بعض الغنـائم ، بل تهـدف اقامة حكم الله في الأرض وتصفية الطواغيت.

(**وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ**)

[8] وهنـــاك حكمة اخـــرى لربنا هي كسر شـــوكة المجرمين حتى لا يقدروا على مقاومة الرسالة.

(**لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**)

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (11) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (12) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ

---

12 [بنان] : البنان الأطراف من اليدين والرجلين والواحد بنانه ويقال للإصبع بنانه وأصله اللزوم.

شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ وَرَسُـولَهُ فَـإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (13) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (14)

---

13 [شاقوا] : الشقاق العصيان وأصله الانفصال.

الأمداد الغيبي متى وكيف؟

هدى من الآيات :

المؤمنـون يتوكلـون على ربهم فيجتـازون المشـاكل بتأييد غيـبي ، وتقـدير رشـيد من الله لهم ، وإليك مثلا من معركة بدر كيف استغاث المسلمون بـربهم بعد ان قـرروا خوض المعركة صادقين ، وعوضوا ضعفهم المادي بالتوجه الى ربهم لينصـرهم فاسـتجاب الله لهم ، وأمـدهم بـألف ملك شـكلوا خلفية الجيش الاسـلامي ودعما له ، ولم يكن الهـدف من ارسـالهم سـوى تقوية نفسـيات المسـلمين ، وليكونــوا مبعثا لاطمئنــان قلــوبهم ، بينما لم يكن النصر النهــائي الا من الله ، وربما من غـــير طريق الملائكة لان الله قوي قاهر وقادر على نصر من يشــاء ، ولكنه لا ينصر الا من يستحق النصر.

وبالرغم من هـول المواجهة فـان الايمـان الـذي ازداد بالمواجهة والتوكل برّد افئدة المسلمين ، فاستولى عليهم النعاس ، وجاء ماء السماء يلطف الهواء ، ويطهر الأجــواء والأبدان ، ويبشر القلـوب بالرحمة فيـذهب عنها وسـاوس الشيطان ، ويعقد المسلمون

العزم على الحـرب ، فثبتت اقـدامهم في المواجهة ، وإذا بالملائكة يثبتـون بـوحي من ربهم الـذين آمنـوا ، وإذا بربنا الحكيم يبعث في قلـــوب الأعـــداء الخـــوف ، ويتفـــوق المسلمون على أعدائهم نفسيا ، فيضربون فـوق الأعنـاق رؤوسـهم ويضـربون أيـديهم ، ولكن لمـاذا تحـيز ربنا ضد الكفار أو ليسوا عبيده؟ نعم ولكنهم شـاقوا الله وعارضـوا رسوله ، والله شـديد العقـاب ليس في الـدنيا فحسب بل في الاخرة يعذبهم عذابا شديدا.

بينات من الآيات :

التوكل سر الانتصار :

[9] لو تـذكر الإنسـان حالاته السـابقة ، وكيف إحتـاج الى رحمة ربه فـدعاه بحقيقة الايمـان ، فاسـعفه وأنقـذه من المشاكل ، ولو تبصر الإنسان أوضاع الآخـرين ، وكيف تـدخلت قـوة الغيب في تأييد طائفة ضد اخـرى إذا لعـرف ان التوكل على الله سر التغلب على الصـــعاب. ويـــذّكر القرآن الامة الاسلامية بماضيها ، وابرز المعارك الحاسـمة فيه ، والتي تتكـرر مثيلاتها أبـدا. مثلا في معركة بـدر حيث استغاث المسلمون فأمدهم ربهم بألف من الملائكة.

(**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**)

والاستغاثة ـ كأي دعاء آخر ـ تكشف عن ارادة النجـاح التي لا تقهرها حـتى المشـاكل المادية الظـاهرة ، كما انها تكشف عن ايمـان قـوي بوجـود المـواهب الكبـيرة عند الفرد.

(**فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**)

اي يؤيدونكم من ورائكم.

[10] ولكن لا يعـــني نـــزول الملائكة انهم ســـوف يحاربون بديلا عنكم ، كما لا

يعني وجود دعم غيبي للمؤمنين ان هذا الدعم يغـنيهم عن العمل الجـاد كلا .. بل يعـني العكس وهو ضـرورة العمل الجــدي حــتى تحقيق الهــدف بالاعتمــاد على الــدعم السماوي.

(**وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ**)

اما النصر فهو من عند الله يقضــيه لمن تتــوفر فيه شــــرائط النصر وعوامله ومنها بـــــالطبع ارادة النصر ، والعمل من أجله ، وتـذويب الانانيـات من اجلـه. ذلك لان ربنا الى جـانب قوته وقهـره فهو حكيم لا يهب النصر لمن لا يستحقه.

(**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

[11] والملائكة احـدى وسـائل النصر وهنـاك وسـائل اخــرى يوفرها ربنا إذا شــاء ، مثلا في حــرب بــدر كـانت الاعصاب متـوترة ، والنفـوس ملتهبة هلعا والأجسـام تثقل بالاوساخ ، فبّرد الايمان والتوكل أفئـدة المسـلمين ، حـتى مـــالت الى الراحة والنعـــاس فاســـتراحت الاعصـــاب ، واستعدت لمعركة حاسمة في اليوم التالي ..

(**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ**)

حين يتوكل العبد على ربه يسـتريح في ظلال الثقة به وبتقديره فلا يحرق أعصابه بل يعيش في كنف أمان ربه.

والمؤمنـون حقا هم الـذين يـزدادون ايمانا في سـاعة العسـرة لان تلك السـاعات تكشف جـوهر البشر وطبيعته الكامنة.

(**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ**)

ذلك لان كثــيرا من الجــراثيم الــتي يتلــوث بها الجو وتنقل عبر الهواء والماء من

شخص لآخر تموت بعد المطر ، فيرتاح منها الجيش الـذي تكثر فيه احتمالات الخطر.

(**وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ**)

وحين يتلطف الجو بماء السماء يسعد الناس ببركـات الله ، فتطمئن قلوبهم ويذهب عنها الخـوف والـتردد ، كما يذهب بالمطر النجاسة المادية التي تـؤثر في النفس أيضا وذلك عن طريق الوضوء والعمل.

(**وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ**)

فحين يرى المسلمون السماء تمطر عليهم يعرفـون ان هـذا المطر من نعم الله ، فآنئذ يـزدادون ايمانا برحمة الله ، وان بيـده بركـات السـماء والأرض وبـذلك تطمئن نفوســــهم ، وينعكس ذلك على ممارســــاتهم الحياتية بالاستقامة والثبات.

تثبيت الله تعالى

[12] في ساعات الشدة تكاد ارادة المسـلمين تنهـار امـام ضـغوط الحيـاة لو لا الايمـان الـذي يمـده الله عن طريق الملائكة المتواجـــــدين في الافئـــــدة بالثبـــــات والاستقامة.

(**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ**)

ولان الله مع الملائكة ، ويؤيد الملائكة بقوته الـــتي لا تقهر فإنهم أقوى من قوى الكفر المادية.

(**فَثَبِّتُـوا الَّذِينَ آمَنُـوا سَـأُلْقِي فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ**)

وبما ان الـرعب يسـبب في تضـخيم حجم الأشـياء ، وحسبما جاء في المثل المروي : للخـوف عيـون واسـعة. فان الكفار أخـذوا يـرون قـوة المؤمـنين أكـبر من حجمها أضعافا ،

بينما كان الثبات الذي أعطاه الله بملائكته للمؤمنين سـببا في الاستهانة بقوة الكفار ، والاندفاع نحو تحطيمها. كذلك تفوق المسلمون على أعدائهم في ساحة القلوب ، وكـان ذلك طريقا لانتصارهم في ساحة الحرب.

(**فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ**)

فجاءت الضربات مسـددة في الأمـاكن الحساسة في الرؤوس والايدي فلم تـذهب سـدى ، بينما ذهبت ضـربات العدو هباء في الأطـراف لان قلـوبهم كـانت مشـتته وغـير ثابتة ، وهكذا يؤثر الثبات النفسي في الانتصار.

[13] لمـاذا شـتت الله قلـوب الكفـار ، فـألحق ببهم الهزيمــة؟ لأنهم تمــردوا على الله ، وانحرفــوا عن خطه المسـتقيم في الحيـاة. ذلك الخط الـذي سـيفرض نفسه بالتـــالي على البشر طوعا أو كرها ، وانما يملك النـــاس فرصة محددة من الحرية وأجلا محدودا.

(**ذلِكَ بِـأَنَّهُمْ شَـاقُّوا اللـهَ وَرَسُـولَهُ وَمَنْ يُشـاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**)

حتى المؤمنون الـذين نصـرهم الله اليـوم لو انحرفـوا عن طريق ربهم ، فان عقاب الله شديد عليهم أيضا.

[14] ولا يكتفي الله فقط بعذاب الدنيا بل في الاخرة أيضا.

(**ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ**)

سورة الأنفال

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (18) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)

---

15 [زحفا] : الزحف الدنو قليلا قليلا والتزاحف التداني.

القتال بين الاستقامة والتوكل

هدى من الآيات :

انتصار الله سبحانه للمؤمنين كما ذكر به الدرس السابق لا يعني أبدا تحللهم عن مسئوليتهم القتالية الخطيرة التي يعددها الله في هذا الدرس وهي :

اولا : الثبات في المواجهة وعدم الفرار تحت أي ضغط كان ، اللهم الا تراجعا تكتيكيا للعودة الى الحرب في وضع أفضل ومع جماعة أكبر ، وفي غير هذه الصورة فان غضب الله في الدنيا قد يتمثل في الهزيمة ، وغضبه في الآخرة سيكون جزاء عادلا.

ثانيا : الاتكال على الله والاعتقاد بان النصر من عنده ، وانه حتى الرمي الذي يرميه الشخص انما هو من عند الله ، وان المعركة ما هي الا ابتلاء من الله للمؤمنين ليرفع درجتهم وينمي مواهبهم ، والله سميع عليم ، يعلم من ينجح في الامتحان ، ولمن يعطي الدرجات الرفيعة.

ثالثا : ان الله يكشف خطط العدو ، ويوهن كيدهم ، ويبعث في استراتيجية

العدو الثغرات ، ولا تغني كثرة العدو عنهم شيئا ، وان الله تعالى مع المؤمنين.

بينات من الآيات :

الثبات في المواجهة :

[15] ايـدي المؤمـنين القوية هي الاداة الطيعـة. هي ارادة السـماء ، فالله قد يجعل المؤمـنين سـيفه الصـارم لذلك يـأمرهم بالثبـات عند مواجهة العـدو ، وعـدم الفـرار أبدا.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ**)

[16] وهناك استثناء واحد لترك المعركة هو ان يكون للعودة إليها بقوة أكـبر اما عن طريق اختيـار موقع أفضل مثل ترك السهل الى الجبل وتـرك السـاحة الى الخنـدق ، أو عن طريق اختيار جماعة يتعاون معهم ضد العدو.

(**وَمَنْ يُـوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُـرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفـاً لِقِتـالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ**)

ويبـــدو ان القـــرآن يـــذكرنا بأهمية اختيـــار الموقع المناسب والجماعة المناســـبة لمتابعة القتـــال ، وعـــدم الاعتماد على نصر الله فقط.

(**فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ**)

وغضب الله قد يتمثل في مضاعفة الخسائر ، أو حتى الهزيمة غـــير المنتظـــرة. ذلك أنّ الاقـــدام يعجّل النصر ويقلل الخسائر.

(**وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)

الاتكال على الله تعالى :

[17] الـرمي من المـؤمن ولكن الـذي يسـدد الرمية ويعطيها أثرها في القلوب هو

الله ، لذلك كان علينا القيـام بعملنا وهو الـرمي والقتـال ، وبــذل كل جهد ممكن في ســاحة الحــرب دون ان نكتفي بـــذلك أو نغـــتر به أو نعمتد عليه ، بل نكتفي بالله ونتوكل عليه.

(**فَلَمْ تَقْتُلُــوهُمْ وَلكِنَّ اللـــهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى**)

ويبقى السؤال : إذا كـان ربنا هو الـذي يـرمي فلما ذا يتعب عباده ويأمرهم بالجهاد؟

انما ذلك لكي يفجر مــواهب المؤمــنين ، ويســتخرج كنــوز شخصــياتهم الكامنة ، وينمي كفـاءة كل واحد منهم لان المواجهة تدفع الفـرد نحو بـذل قصـارى جهـده لتجنب الفشل والهزيمة ، والطاقة الـتي يكتشـفها المؤمنـون في أنفسهم في ساحات المعارك ينتفعـون بها أيضا في سـائر حقول الحياة.

(**وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَــمِيعٌ عَلِيمٌ**)

يسمع عن قرب ما يجري في الساحة من الحــوادث ، ويعلم خلفياتهـا. لـذلك حين يختـبر المؤمـنين بـالحرب ثم يحكم عليهم لا يحكم غيابيا أو عبثا ــ سـبحانه ــ بل بسـمع وعلم ، وبإحاطة واسعة ومباشرة للحوادث.

الوهن والانتصار

[18] كما يســدد ربنا رمية المؤمــنين فأنه يــوهن كيد الكافرين ، وذلك بإلقاء الـرعب في نفوسـهم حـتى لا ينفذ كل واحد كل المهـــــــــــــام الموكلة به ، فتفشل الخطة الموضــوعة عنـدهم لمحاربة المسـلمين ، وتنهـار إرادتهم وتنهزم نفوسهم.

(**ذلِكُمْ**)

أي ان هذه الحقيقة التي يجب ان نـؤمن بها ونعـترف بها.

(**وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ**)

من هنا كـــان علينا ألّا نخشى خطط العــــدو ، ولا نستهين بقدراتنا ، نثق بها وبـأن الله يسـدّدها ، ولكن دون أن نـدّخر قـدرة كامنة في أنفســنا إلّا ونفجرها ونوجهها للمعركة.

[19] ويخـاطب ربنا الكفـار ويـذكرهم بـالفتح الـذي أعطـاه للمؤمـنين عليهم ويقـول : هـذا الفتح كـانّ بسـبب اختيار الكفار للحرب ومبادرتهم للقتـال وكـأنهم هم الـذين طلبوه.

(**إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ**)

وقيل ان بعض المشركين طلبوا من الله في يوم بدر ان ينصر من كـــان دينه أحب اليه ســبحانه فاســتجاب دعاءهم ونصر المسلمين.

(**وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**)

اي ان تـتركوا القتـال لان الحـرب الـتي سـوف تنتهي بهزيمتكم لا خير فيها.

(**وَإِنْ تَعُودُوا**)

للحرب والقتال.

(**نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**)

سورة الأنفال

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

---

22 [الـــدواب] : جمع دابة وهي ما دب على وجه الأرض الا انه تختص في العرف بالخيل.

الاستجابة لله : حياة

هدى من الآيات :

استمرارا لحديث الآيات السابقة التي بينت ضرورة العمل والتوكل. يبين لنا هذا الدرس أهم شروط الانتصار وهو الطاعة الواعية للقيادة الرشيدة ، فأمر القرآن بضرورة الطاعة لله وللرسول وعدم ترك الرسول بوعي وصدق وسبق تصميم ، والوعي من عمل الإنسان فعلى المؤمنين ان ينتفعوا بعقولهم فيسمعوا حقيقة كلام الرسول ، ولا يكونوا كالمنافقين الذين يسمعون في الظاهر فقط ذلك لان شر الأحياء التي تمشي على الأرض هم البشر الذين لا ينتفعون بأدوات العلم التي وهبها الله لهم ، ولأنهم لم يكن فيهم خير لذلك تركهم الله وفي هذه الحالة لو هداهم الله لم يستجيبوا لهداه.

والرسول يدعو الناس الى الحياة وعليهم الاستجابة له ظاهرا وواقعا لان الله يحول بين المرء وقلبه ، فيعلم ما ينويه حتى قبل ان يستقر رأيه عليه ، ثم يحشر الناس جميعا أليه فيجازيهم بما عملوا.

بينات من الآيات :

طاعة القيادة :

[20] مخالفة القيـادة الرسـالية بـوعي و إصـرار من كبـــائر الـــذنوب ، ومن ابـــرز عوامل الهزيمة ، والطاعة الواعية للرسول هي قمة الايمان والتسليم لله وللرسالة.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللـهَ وَرَسُـولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**)

أي في حالة سـماع الآيـات ومعرفة صـدق الرسـالة وبلاغ واجبـات الـدين للإنسـان فـان مخالفة الرسـول من أشد المحرمات ، بل هو فسوق وكفر.

[21] ولكن هل يقــدر أحد تــبرير مخالفته للرســول بعدم السماع الواعي؟ كلا.

لان الله تعـالى قد زود البشر بـأدوات الـوعي ، فعليه ان يستفيد منها ويستخدمها في توعية ذاته وتثقيف نفسه.

(**وَلا تَكُونُـــوا كَالَّذِينَ قـــالُوا سَـــمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ**)

اي لا تكونوا مثل المنافقين تكتفون بظـاهر الاسـتماع دون التعمق في واقع الوعي.

شر الدواب عند الله :

[22] والسماع الحقيقي هو التفكر والانتفـاع بالعقل ، وان شر الــدواب الــتي تتحــرك على الأرض هم الــذين زودهم الله بنور العقل فلم يستفيدوا منه ، فأصـبحوا أشر من الانعام التي لا تملك عقلا.

(**إِنَّ شَرَّ الـدَّوَابِّ عِنْـدَ اللـهِ الصُّـمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**)

انهم يملكون السمع والالسنة ولكنهم لا ينتفعـون بهما في الخير ، فهم شر عملا وأضل سبيلا من الدابة الـتي لم ينعم عليها البارئ بالسمع واللسان.

[23] حين تكون الفطرة البشرية سليمة تنفعها دعوة الحق ، لأنها كماء المطر يهبط على أرض صالحة مباركـة. أما إذا مسخت الفطرة ، وحجبت الشهوات والأحقـاد وهج البصيرة فان الـدعوة ليست لا تنفع فقط ، بل تزيد الفـرد كفرا وجحودا.

لذلك يقول ربنا سبحانه :

(**وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ**)

الخـير هو ذلك الاسـتعداد الفطـري الـذي وهبه الله للبشر حين زوّده بالسمع والبصر والفؤاد ، وألهمه فجـوره وتقـواه ولكن لم يبق في هـؤلاء الـذين غـدوا أضل من الدواب ذلك الخير بسوء أعمالهم. لذلك لا يسـمعهم الله ، ولا يوفر لهم فـرص الهدايـة. إذ انه لو أسـمعهم الآن وفي وقت افتقـادهم حالة الاسـتعداد للاسـتجابة إذا لتولـوا عن الرسالة ظاهرا وباطنا.

(**وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ**)

رسالة الله دعوة الى الحياة :

[24] ما هي الحيـاة الـتي نعشـقها ونسـعى وراء اسـتمرارها أو ليست هي القـدرة والنشـاط وتسـخير الطبيعة فلما ذا ـ إذا ـ نختار الموت في بعض الأحيان على الحياة .. نختار الضلالة على الهداية ، والجهل على العلم ، والتخلف والكسل على التقدم والعمل .. أو ليست الهداية والعلم يجعلانا نحيط بالأشـياء ونسـخرها .. أو ليس العمل والحركة أبرز مظاهر الحياة وفوائدها؟!

ان رسالة الله هي دعـوة صـادقة الى الحيـاة بما فيها من علم وعمل ، من هـدى وحركة ، ومن تسـخير الطبيعة لصالح البشر والقرآن يذكرنا بان الاستجابة لهذه الرسـالة تتناسب وفطرة البشر واعمق مشاعر المحبة للحياة.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ**)

ليس المهم ان تعيش ســبعين عاما بل ان تعيش حيا بالعلم والحرية والنشـاط. ان المـؤمن المتحـرر من قيـود الشهوات والثائر ضد أغلال المجتمع والذي يسخر الطبيعة لصالحه وصالح الناس بـالعلم والقـدرة انه يعيش كل يـوم عاما ، اما الكــافر الــذي يصــبح جــزء من الطبيعة ومن النظام الحاكم عليها ، ويستسـلم للآخـرين فهو ميت ، ولو نبض قلبه بالدم.

والله يــدعونا الى الحيــاة الحقيقية في الــدنيا الــتي تسـتمر الى الحيـوان في الآخـرة حيث تكـون الحيـاة فيها للشهداء والصديقين.

وقلب البشر يبقى يعشق الحيــاة ويحب الاســتجابة لدعوة الحياة بـرغم كل الحجب والعقد النفسـية. ذلك لان الله يحول بين المرء وقلبه فلا يـدع شـعلة الهداية تنطفئ في قلب البشر حتى يرى الحق باطلا والباطل حقـا. كلا .. انه يبقى يمــيز بين الحق والباطل وعلى أســاس هــذا التمييز يحاسبه الله غدا حين يحشر الناس جميعا اليه.

(**وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللـهَ يَحُـولُ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَقَلْبِـهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**)

و جاء في الحديث المأثور عن الصادق (ع) :

«**لا يســـتيقن القلب ان الحق باطل أبـــدا ولا يستقين ان الباطل حق أبدا**» [1]

(1) بحار الأنوار ج 70 / ص 58 / ح 34

وَاتَّقُـوا فِتْنَـةً لا تُصِـيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْكُمْ خَاصَّـةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (25) وَاذْكُـرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْـرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبـاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ (26) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَخُونُـوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (27) وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللـهَ عِنْـدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)

اتقوا فتنة المال والأولاد

هدى من الآيات :

طاعة الرسـول (ص) والتسـليم القلـبي لأوامـره القيادية تعطي الامة حياة جديدة ..

اما التفـــرق عنه والاختلاف فانه فتنة تعم نارها كل أبناء المجتمع وان عقاب الله شديد. وعلينا ان نتـذكر أبـدا مـدى اهمية القيـادة الرسـالية حـتى لا يـدب الى قلوبنا الوهن في اتباعها.

ان كل مكاسب الامة كـانت بالقيـادة فحين كنا قليلا مستضعفين نخشى النـاس ان يأخـذونا مثل أيـام مكة الم تكن طاعتنا للرسـول هي الـتي وفـرت لنا الأمن والنصر والرفاه أو ليس من الواجب الآن ان نشكر النعمة بالمزيد من الطاعة ، والطريق الوحيد للخـروج من الخلافـات الداخلية هو تقوى الله ، واتبـاع مناهجه حيث يعطي الفـرد هدى ونورا وقدرة على معرفة الحق وأهله والباطل واهله ، كما يسبب غفران الله والمزيد من فضله.

ان تعاليم هذا الدرس تتصل بما سبق ويـأتي الحـديث في الدروس الاخرى حول

تكريس واقع القيادة الرسالية في الامة.

بينات من الآيات :

مسئولية الامة عند الخلافات :

[25] الخلافات الاجتماعية هي من الذنوب التي يلقي كل فريق مسئوليتها على الآخرين ، لان كل جانب يرى ان عمله انما هو رد فعل للآخرين ، لـذلك يكـون على الجميع تجنب هـذه الـذنوب دون انتظـار تـرك الجـانب الآخر لهـا. ذلك لان بليتها إذا جـــــاءت عمت .. وعموما المعاصي لا يمكن حصر آثارها الســلبية في أولئك الــذين يرتكبونها ، وهي كالنار إذا اشتعلت في الهشـيم تنتشر الى كل مكـان ولذلك يقول تعالى :

(**وَاتَّقُـوا فِتْنَــةً لا تُصِــيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُــوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**)

اي لا تصـيب الـذين هم في الجهة المباشـرة للظلم ، بل تعم الجميع هم والسـاكتين عن الظلم ، وكـذلك الـذين قـابلوا الظلم بـرد فعل غـير مناسب ، فمثلا : إذا تجـاوز فريق من المجتمع على فريق آخر فــــان واجب الفريق المظلـوم هو انتظـار امر القيـادة دون المبـادرة بالاعتـداء عليهم قصاصا لان ذلك يضعف القيـادة ، وينشر الفوضى ، ويعم أثرها الســلبي بالنتيجة كلا الفــريقين ، وربما تــدل الفتنة على الخلافــات الاجتماعية أكــثر من الامتحانــات الفردية لـذلك جـاء في الحـديث المـروي عن الزبـير بن العوام :

«لقد قرأنا هـــذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فـــاذا نحن المعنيون بها نخالفها حتى أصابتنا خاصة» [1]

---

(1) تفسير مجمع البيان ـ الشيخ الطوسي / ج 4 / ص 534

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**)

وانه يعـاقب بشـدة أولئك الـذين ينفـذون الفتنة ، أو الـذين يقفـون ضد انتشـارها في الحيـاة الـدنيا بـالتخلف والهزيمة والفوضى والاقتتال وفي الآخرة يجـزى السـاكت الذي لم يأمر بـالمعروف ولم ينه عن المنكر والـذي تمـرد على القيادة الرشيدة.

العبرة بالماضي ضمان للمستقبل :

[26] من المهم جدا ان يتـذكر الإنسـان بعد الانتصـار أيـــام ضـــعفه لكي لا ينسى عوامل النصر ، فيتعهــــدها ويحافظ عليها ليبقى النصر ومكاســـبه ، ولينتقل من نصر الى نصر ، ولا يقف في مسيرة الزمان الصاعدة.

(**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيـلٌ مُسْتَضْـعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ**)

انهم كـانوا قليلا من الناحية الكميـة. مستضـعفين من الناحية الاجتماعية وليست هنـاك قـوة تحميهم من الناحية الامنية حتى انهم كانوا يخشون من أخذهم بسرعة ، ولكن الله بدل كل هذه النواحي.

(**فَآواكُمْ**)

ومنح لكم محلا آمنا .. وهو ابرز شروط الرفاه.

(**وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ**)

فبدل الضعف قوة.

(**وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ**)

فبدّل الفقر والاستضعاف الى غنى ورفاه.

(**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

ربكم على هذه النعم ، ومعـنى الشـكر هو المحافظة على تلك العوامل التي غيرت واقعكم الفاسد ومن أبرزها الوحـدة وتجنب الفتنة عن طريق طاعة القيـادة الرسـالية التي تدعوكم أبدا الى ما فيه حياتكم ، كما ذكرت في الآية السابقة.

التجسس لصالح العدو خيانة :

[27] ان التهـاون في طاعة الرسـول (ص) يعتـبر خيانة بعهـدهم مع الرسـول وبأمانة البيعة الـتي في أعناقهم.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

ومن ابـرز مظـاهر الخيانة التجسس لصـالح العـدو ، ونقل المعلومـات الهامة الى مناهضي الرسـالة كما فعل أبو لبابة في عصر الرسـول حيث بعثه الرسـول الى يهـود بـني قريظة وقد كـانوا خـانوا عهـدهم مع رسـول الله ، فـأمرهم الرسـول بـالنزول على حكم سـعد بن معـاذ ، فقـالوا : أرسل إلينا أبا لبابة وكـان مناصـحا لهم لان عياله وماله وولـده كـانت عنـدهم ، فبعثه رسـول الله فأتـاهم فقـالوا له : يا أبا لبابة أ تـنزل على حكم سـعد بن معـاذ؟ فأشـار ابو لبابة الى حلقه (إنه الـذبح فلا تفعلـوا) ، فأتـاه جبرئيل يعني رسول الله فـأخبره بـذلك. قـال ابو لبابة فو الله ما زالت قـدماي من مكانهما حـتى عـرفت اني خنت الله ورسـوله ، فـنزلت الآية فيـه. فلما نـزلت شد نفسه على سـارية من سـواري المسـجد وقـال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حـتى أمـوت أو يتـوب الله عليّ ، وهكـذا بقي على ذلك سـبعة أيـام حـتى تـاب الله عليه فحلله رسول الله. [1]

---

(1) المصدر

[28] ان ابـــرز أســـباب الخيانة بالدولة الاســـلامية وبالقيــادة الرشــيد هو حب المــال والولد كما حــدث لابي لبابة في القصة الانفة الذكر ، ولذلك يحذر ربنا من عاملي الفساد عند البشر المال والبنون ويقول :

(**وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْـوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَـةٌ وَأَنَّ اللـهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**)

والفتنة هي كل ظـــاهرة يمتحن بها البشر ، ولكن إذا تجاوز الفرد عقبه الفتنة ، فان الله يعوضه عما خسره في لحظات الفتنة ويزيده عليه كثيرا.

سورة الأنفال

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللـهَ يَجْعَـلْ لَكُمْ فُرْقانـاً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَـيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ وَاللـهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِيمِ (29) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِيُثْبِتُـوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْـرُ الْمـاكِرِينَ (30) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قـالُوا قَـدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْـلَ هـذا إِنْ هـذا إِلاَّ أَسـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُـوَ الْحَـقَّ مِنْ عِنْـدِكَ فَـأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجـارَةً مِنَ السَّـماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (32) وَما كانَ اللـهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)

---

30 [ليثبتوك] : الإثبات الحبس يقال رماه فأثبته اي حبسه مكانه واثبته في الحرب إذا جرحه جراحة مثقلة.

التقوى بصيرة

والكفر ضلال وعذاب

هدى من الآيات :

بعد الحـــديث عن ضـــرورة الاســـتجابة للرســـول والاعتصـام بحبله من أجل الوحـدة وتجنب الفتنة ، بين لنا القرآن ان التقوى تعطي البصـيرة الاجتماعية الـتي يفـرق بها المؤمن بين الحق والباطل ، والصالح عن الطـالح. كما يكفّر الله بـالتقوى السـيئات ، ويزيل رواسـبها ، ويزيد من نعمه على المتقين.

ومثل ظاهر لمنافع التقـوى. ان الـذين كفـروا مكـروا بالرسول ليخرجوه أو ليقتلوه ولكن الله دفع مكرهم وكان من مكـرهم الاشـاعات الباطلة الـتي أذاعوها بين النـاس لكي يمنعوا الناس عن الاسـتجابة للرسـول ، أو التحـريض الكـاذب لكلام الرسـول ، واسـتعجالهم العـذاب لو كـان الرسول محقـا. بينما العـذاب يـأتي حين يتوغل البشر في الكفر ، ولا يشـعر بالنـدم والتوبة ، ولا يسـتغفر ربه منها ، ولكن العـــذاب بالتـــالي سيصـــيبهم بســـبب صـــدهم عن المسجد الحرام ، واعتبـار أنفسـهم أصـحابه بينما أصـحابه هم المتقون فقط.

بينات من الآيات :

آثار التقوى :

[29] بين العقل والهـــــوى يعيش قلب البشر ، بين الظلمات والجهل والفوضى ، وبين النور والهدى والالـتزام ، وبقدر ما يحجب الهـوى العقل فـان مقاومة الهـوى تزيد القلب نــــورا وهــــدى. انك حين تتحكم في علاقاتك وعواطفك وحساســياتك فهل تســتطيع ان تمــيز الفــرد الصــالح عن الطــالح؟! وإذا كــانت الشــهوات والحــالات النفســية المتناقضة كالنشــاط والكسل والأمل واليــأس تحكم فيك أيضا ، فهل تتمكن من معرفة العمل الصالح؟

بلى حين تتعهد بتطبيق برامج الله ، ومقاومة ضـغوط العواطف والشهوات والحالات النفسية فان عقلك يكمل ، وتصبح قادرا على تمييز الحق عن الباطل ، ويحصل لـديك فرقان وميزان.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ تَتَّقُـوا اللـهَ يَجْعَـلْ لَكُمْ فُرْقاناً**)

التقـــوى هي الالـــتزام برســـالة الله ، وتحسس المســؤولية تجاهها وهي تعطينا الفرقــان الــذي يمــيز لنا الصواب عن الخطأ ، والصــالح عن المفسد ، والهـدى عن الشبهات ، والجادة عن المزالق.

كما وان للتقـــوى أثـــرا رجعيا فيما مضى من عمل البشر حيث يكّفر الله السـيئات ، ويسـترها حـتى لا تظهر آثارها الســـلبية ، بل ويغفر الـــذنوب ويمحي آثارها عن النفس ، ذلك لان للـذنب أثـرا سـلبيا على الحيـاة ، وأثـرا سلبيا على نفسية مرتكبه في شـكل عـادة سـيئة وموقف خاطئ.

(**وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَـــيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِــرْ لَكُمْ وَاللـــهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**)

وبفضـله العظيم يسـبغ النعم الكبـيرة والآلاء العظيمة على المتقين في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

السبيل الى تأييد الله :

[30] ان تقـوى الله ، والاسـتجابة للرسـول ، وتجنب الفتن الاجتماعية كل ذلك شـــــروط تمهيدية للنصر على الأعـــداء ، وان ربنا يتفضل على المؤمــنين بالتأييد بعد ان يوجدوا في واقعهم هذه الشروط ، ودليل تأييد الله نصـره المؤمـنين في بـدر الـذي سـبق الحـديث عنه ، وهـذا دليل آخر يبينه الله حين خطط الكفــــار لإلقــــاء القبض على الرسـول (ص) أو اعدامه أو لا أقل نفيه ، ولكن مكر الله وخططه الحكيمة ســبقتهم وأفشل خططهم المـــاكرة ، حيث امر الله ورسـوله بـالهجرة الى المدينـة. فلما جـاء الكفـار وجـدوا عليا (ع) قد افتـداه بنفسه وبـات مكـان قائده الرسول (ص).

(**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ**)

إذا نفذ المؤمنون خطط ربهم الرشـيدة فهم الأعلـون لان أهم بنـود الخطة الرشـيدة في الصـراعات الاجتماعية هو النشاط والتعاون والاسـتعداد للتضـحية ، والـذوبان في بوتقة الخطة بعيدا عن الـذاتيات والمحـاور الخلافيـة. وكل هـــذه البنـــود توفرها التربية الايمانية ، كما ان الايمـــان يعطيك الفرقـان والرؤية الصـافية الى الاحـداث ، ويـزكي قلبك عن الأهــواء والشــهوات وردود الفعل الــتي تغشي رؤية المـــرء وتدفعه الى اتّخـــاذ مواقف خاطئة وهكـــذا ، وبفضل الله يصبح مكر المؤمنين أنفذ من مكر أعدائهم.

[31] وكان من مكر الكفـار الفاشل وخطتهم الغبية ، انهم بثوا اشاعات ساذجة فقالوا : ان آيات القـرآن ليست بتلك الدرجة من البلاغة والعلم ، فلقد ســمعناها ووعيناها ولو شئنا لقلنا مثلها. ولكننا أناس تقـدميون ، وهـذه أفكـار رجعية يتشبث

بها الأولون المعتقدون بالخرافات.

(**وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ**)

[32] وكـــان من خطط حـــربهم الاعلامية تظـــاهرهم بالتحـدي والمباهلة فقـالوا : يا رب لو كـان كلام الرسـول حقا فعجل بالعذاب علينا كأن تمطر السماء حجارة.

(**وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ**)

موعد العذاب :

[33] ولكن هل الله يبعث العــــــــذاب حسب طلب الناس ، أم وفق الحكمة البالغة الـتي عنـده؟ انه لا يعـذب قوما حتى يستنفذوا كل فـرص الهداية عنـدهم ، وحـتى لا يبقى فيهم اثر من الايمـــان. ودليل ذلك انه ما دام الفـــرد يشـعر بالندامة بعد الـذنب و يسـتغفر الله ، فانه لا يعـذب حـتى ولو طلبه من ربـه. وعـدم نـزول العـذاب عليه ليس دليلا على صـــحة كل اعماله أو مجمل طريقته كلا بل هو دليل على وجود جوانب ايمانية في واقعة ، هي الـتي تمنع العذاب عنه.

(**وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**)

تـدعوهم الى الهـدى وربما يسـتمعون إليك ، ووجـود نـبي الرحمة وسـيد الخلق كما وجـود الصـالحين في الامة سوف يمنع عنها العذاب لحين خروج أولئك عنهم.

(**وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**)

وفي آيات قرآنية اخرى دلالة على ان عذاب الله انما يهبط من السماء بعد فراغ

قلوب المجتمع تماما عن الايمـان ، وبعد خـروج أو انعـدام الصالحين فيه تماما.

لقد كـان هـذا جانبا من مكر الكفـار الـذي انتهى الى انتشار الرسالة أكثر فأكثر والحمد لله رب العالمين.

سورة الأنفال

وَما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللـهُ وَهُمْ يَصُـدُّونَ عَنِ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ وَما كـانُوا أَوْلِيـاءَهُ إِنْ أَوْلِيـاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُـونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (34) وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْــدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكـاءً وَتَصْـدِيَةً فَـذُوقُوا الْعَـذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُـرُونَ (35) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِـيزَ اللـهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَـلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَـهُ جَمِيعـاً فَيَجْعَلَـهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (37)

إنفاق الكفار : حسرة وهزيمة

هدى من الآيات :

في سـياق الحـديث القـرآني حـول مكر الكفـار واشاعاتهم الباطلة التي بيّنها الدرس السابق. يـذكرنا الله ببعض اعمـال الكفـار الـتي تكشف من جهة عن زيف ادعاءاتهم ، وتـبين من جهة ثانية فلسـفة النضـال ضـدهم. ان عذاب الله قد يأتي بطريق غيبي كصـاعقة عـاد وثمـود أو على ايـدي المؤمـنين ، والقـرآن يـبين ان الله سـوف يعذب الكفـار لأنهم يمنعـون النـاس عن المسـجد الحـرام دون ان يكـون لهم الحق لان المسـجد الحـرام انما هو مقام عبادة ، ويجب ان يكون المشرف عليه أكـثر النـاس عبـادة وعبودية وتقـوى لله ، وليس هـؤلاء الجهلة الـذين اتخذوا صلاتهم عند البيت هـزوا. فبـدل الصـلاة والضـراعة أخـذوا يصـفرون ويصـفقون كفـرا بالله وبرسـالاته ، اما أموالهم فـإنهم ينفقونها ليس في سـبيل الإصـلاح ونصـرة المظلومين واغاثة المحرومين ، بل للصد عن سبيل الله ، وسوف يكـون هـذا الإنفـاق حسـرة عليهم حين يحشـرون الى جهنم ، وفلسفة هذا الصراع القائم بين الناس والـذي يجسده إنفاق المشركين أموالهم

للصد عن سبيل الله انها امتحان النـاس ، وتميـيز صـفوف الطيــبين عن الخبثــاء. ليجعل الله جــزاء الخبثــاء جهنم وساءت مستقرا.

بينات من الآيات :

سنة العذاب :

[34] ربنا الحكيم لا يعذب أحدا حين يشـتهي العـذاب أو يتحــدى قــدرة الله أو رســالته ، بل عند ما يســتوجب العقاب بعمل قبيح مثل صد النـاس عن المسـجد الحـرام. وما هو المســجد الحــرام؟ انه بقعة خصّــها الله لنفسه لتكون دار سلام وأمن وحرية ، يقيم الناس فيها شـعائرهم الدينية ، ويعبرون عن مشاعرهم الحقيقية ولكن حين يأتي فريق من المتجـبرين ويفرضـون قيـادتهم على المسـجد الحرام ويمنعون المؤمنين عن إقامة الشعائر فيه فسـوف يستحقون العـذاب لأنهم ليسـوا بقيـادة المسـجد وولاته .. ان أوليـاء المسـجد هم أوليـاء اللـه. لان المسـاجد لله ولا يجـوز ان يرفع عليها الا راية الله والحق ، والـذين بيـدهم راية الحق هم المتقــون ، وحين تطهر مســاجد الله عن الدعوة لغير الله وعن الأصـنام الحجرية وعن تبليغ رسـالة الشــيطان والدعاية لســلطان متجــبر أو حــزب ملحد أو سلطة قاهرة ، فان الناس سيجدون مصابيح يهتـدون بها ، ومحاور قوة يلتفون حولها ، وبالتالي مراكز قدرة يلتجئون إليها في مقاومة شياطين الجن والانس.

(**وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَــذِّبَهُمُ اللــهُ وَهُمْ يَصُــدُّونَ عَنِ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ وَما كـانُوا أَوْلِيـاءَهُ إِنْ أَوْلِيـاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

ولا يعرفــون فلســفة المســاجد ودورها الحاسم في هداية الجماهير وتأييدهم ضد الظالمين.

[35] اما هؤلاء الذين اتخذوا من المسـاجد مراكز لهو واستهزاء بالقيم فكـانت صـلاتهم عند الـبيت الحـرام (وهو اقدس مكان على وجه الأرض) التصفير

والتصفيق.

(**وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً**)

اي صفيرا وتصفيقا وعذاب الله الذي أنـزل عليهم بيد المؤمنين كان بهذا السبب.

(**فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**)

وجـاء في الحـديث عن ابن عبـاس : كـانت قـريش يطوفـون بـالبيت عـراة يصـفرون ويصـفقون ، و روي ان النبي (ص) كان إذا صلى في المسجد الحرام قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه فيصفران ورجلان عن يسـاره يصفقان بأيديهم فيخلطان عليه صلاته ، فقتلهم الله جميعا ببـــدر. ولهم يقــول ولبقية بـــني عبد الـــدار «**فَـــذُوقُوا الْعَذابَ**».

وكلمة اخيرة : ان هذه الآية والتي قبلها تدلان بوضوح أن على السلطات التي تصد عن المساجد ، وتعتـدي على حرية النــاس فيها ، وتتجــاوز على حرماتها ، وتريد تحويل المسـاجد الى مراكز للفسـاد والمنكر يقـام فيها الشـعائر دون لبابها انها سلطات جائرة يجب مقاومتها حـتى يعـذبها الله بأيدي المؤمنين.

[36] كان ذلك صورة عن الممارسة السياسـية لهـذه الفئة. اما الممارسة الاقتصـادية فانها خاطئة أيضا ، إذ انها تخـدم اهـداف الطغـاة وتصد عن سـبيل الله ، وعن اقامة العدل واشاعة الرفاه.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمْ لِيَصُـدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

ينفقونها من أجل طبع الكتب الضـــــــــالة ، وتمويل الصحف المسبحة للطاغوت ، وأشياع ادعياء العلم والدين من خدم السلطات المتجبرة ، أو ينفقونها لتمويل

الحروب وتدعيم كيان اجهزة المخابرات.

بيد ان هذا الإنفاق سيكون حسـرة عليهم إذ لا ينفعهم شيئا ، بل يضرهم كثيرا وسينتهون الى جهنم جميعا.

(**فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**)

[37] ولكن كيف يسبب إنفاق هؤلاء للصد عن سـبيل الله غلبة المؤمنين عليهم؟

يجيب القرآن على هذا السؤال :

أولا : لأن هـذا المـال يفصل الطيب عن الخـبيث في واقع المجتمع ، فـالطيّب لا تخدعه الـثروة فـيزداد طيبـا. بينما الخـبيث الـذي كـان يتظـاهر بالايمـان يظهر امـره ويكتشف عند المجتمع.

ثانيا : ان العناصر الخبيثة يجد بعضها بعضها فيتكتلـون ، فحين تثـور الجمـاهير ضـدهم لا ينقـذون أنفسـهم منهم جميعا.

(**لِيَمِـيزَ اللـهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَـلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَـهُ جَمِيعـاً فَيَجْعَلَـهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**)

سورة الأنفال

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38) وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

كيف نواجه الكفار

هدى من الآيات :

لقد ابلغنا الـدرس السـابق عن ممارسـات الكفـار السياسـية الاقتصـادية الخاطئة ، والـتي تـدل على كـذب أقوالهم التبريرية التي تشبثوا بها لكفـرهم ، ثم يـأتي هـذا الدرس ليـبين لنا الموقف منهم المتمثل في تهديـدهم اولا : بان سنة الله مضت في الأولين ، على ان الكفر لا يدوم ، وعليهم المبـادرة الى التوبة ، ووضع حد لممارسـاتهم الخاطئة حـتى يغفر الله ما قد سـلف منهم ، وبعد هـذا التهديد يـأتي التهديد بالقتـال تجنبا للفتنة والفسـاد في الأرض ولإقامة حكم الله فقط ، فـاذا استسـلموا بالقتـال فسوف يعلم الله هل هم يحسنون صنعا أم ينـافقون ، اما إذا استمروا فان المسلمين يستمرون بدورهم في الحرب اعتمادا على مولاهم الله نعم المولى ونعم النصير.

بينات من الآيات :

سنة الانتصار

[38] ليس من العقل ان يختم على القـديم بطـابع الرجعية والاسطورة والخرافة ،

كما قـــال الجـــاهليون آنفا ، ففي القـــديم دروس وعـــبر وقوانين اجتماعية ، علينا الانتفاع بها لحاضـرنا ومنها سـنة الله في الانتصــار للحق وسـحق الكفر والضـلال ، وعلى الكفار ان يراجعوا التاريخ ليفهموا هذه السنة.

(**قُـلْ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا إِنْ يَنْتَهُـوا يُغْفَـرْ لَهُمْ ما قَـدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ**)

وسنة الله لا تتحول «**فَلَنْ تَجِدَ لِسُـنَّتِ اللـهِ تَبْـدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً**» (43 / فاطر).

الحكمة من القتال :

[39] والحرب الاسلامية لا تهدف تسلط فريق مكـان فريق آخر ، بل اقامة حكم الله ومنع الفتنة .. فما هي الفتنة؟ هل هي الشـرك بالله ، أم هي الفسـاد في الأرض وظلم النـــاس بعضـــهم لبعض؟ أم هي تســـلط فريق من النـاس باسم أو بـآخر على رقـاب النـاس ، واسـتعبادهم واستثمارهم وفرض ثقافة معينة عليهم؟

يبـــــدو ان الفتنة في لغة القـــــرآن هي التســـــلط اللامشـــروع ، كما ان الـــدين هو الســـلطة الشـــرعية المسـتمدة من الايمـان بالله وبـالحق ، وبحرية الإنسـان ، وابرز معاني الشرك هذا التسلط اللامشـروع أو الخضـوع لمثل هذا التسلط.

(**وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الـدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

يعلم هل هم صـــــادقون أم منـــــافقون ، ولا يجـــــوز الاســـتمرار في قتـــالهم بحجة انهم لا يزالـــون كفـــارا في الواقع برغم ايمانهم أو استسلامهم الظاهر.

[40] اما إذا تولـوا ، واسـتمروا في القتـال واشـاعة الفساد ، فعليكم بالاسـتمرار أيضا من دون حـزن أو وهن. لأنكم بالتالي منتصرون عليهم ، ولان الله مولاكم وقائدكم ، وأوامـره ومناهجه وتعاليمه خـير لكم ، كما انه ينصـركم بقوته التي لا تقهر.

(**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَـوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**)

سورة الأنفال

وَاعْلَمُــوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَــيْءٍ فَــأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَــهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَســاكِينِ وَابْنِ السَّــبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللــهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْـدِنا يَوْمَ الْفُرْقـانِ يَـوْمَ الْتَقَى الْجَمْعـانِ وَاللـهُ عَلى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُـدْوَةِ الْقُصْــوى وَالــرَّكْبُ أَسْــفَلَ مِنْكُمْ وَلَــوْ تَواعَــدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَلكِنْ لِيَقْضِـيَ اللـهُ أَمْـراً كـانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللــهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَلَـوْ أَراكَهُمْ كَثِـيراً لَفَشِـلْتُمْ وَلَتَنـازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلكِنَّ اللهَ سَـلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِـذاتِ الصُّـدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُـــــوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كـانَ مَفْعُـولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)

الخمس وقضاء المواجهة

هدى من الآيات :

الاعداد للحرب أهم من القتال في الساحة ، والمال يقوم بدور فعال في الاعداد ، وتعرّض أحد الدروس السابقة الى دور المال السلبي حين ينفقه الذين كفروا للصد عن سبيل الله ، اما في هذا الدرس فيفرض علينا القرآن قدرا مقدورا من المال من أجل القضية وذلك هو خمس ما يغنمه ويستفيده المرء ، ولأهمية الإنفاق وللعصوبات التي أنزلت يوم التقى الجمعان ، حين نصر الله المؤمنين بفضل تلك الرسالة ، بالرغم من بعض المفارقات مثل : انكم كنتم في أسفل الوادي وهم في أعلاه .. وانكم مختلفون في مواعيدكم ، ولكن الله قدّر ان يتم حجته على خلقه ، يبعث برسالاته إليهم بينة وحجة ، ولو لا تقدير الله ذلك الذي أراد ان يحطم السد الذي صنعه الكفار امام انتشار الرسالة ، إذا لما وقعت الحرب إذ أن ربنا قلل كل فريق في عين الفريق الثاني حتى استهان كل بصاحبه فتحاربا فانتصرت الرسالة.

بينات من الآيات :

الكيان المالي للإسلام :

[41] من دون وجـود كيـان مـالي للمجتمع الاسـلامي يفقد المجتمع توازنه وقدرته على الاســتقامة والتصـــدي للأعـــداء ، والخمس واحد من المصـــادر المالية ، وحين نقول المجتمع المسلم نقصد بذلك الكيان الذي يقـوم في حالة غياب الدولة ، أو ذلك الكيان الذي يفرض نفسه على الدولة فيحـدد شـكلها ومسـيرتها ، كما تفـرض الأحـزاب السياسـية وجماعـات الضـغط في الـديمقراطيات الغربية شكلا معينا على الدول ، وكما تفرض التيارات على الدول ، بالرغم من عدم الاعتراف بها رسميا.

وهكـذا فـالمجتمع المسـلم يمتلك كيانا مسـتقلا قائما بذاته أقـوى من الدولـة. حـتى وإن كـانت اسـلامية ، هـذا الكيـان المسـتقبل يعتمد على الشـعائر الدينية كالجماعة والجمعة والحج في تقوية صـــلات افرادها مع بعضـــهم ، ويعتمد على الأمر بـــــــــالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة وإرشاد الجاهل في تحصنه امام التيارات الدخيلة ، ويعتمد فريضة العلم وضرورة نشـره ، وانفصـال علمـاء الـدين عن تبعية السـلطات في الحقل الثقـافي ، ويعتمد على الخمس والزكاة والصدقات في الجانب الاقتصادي.

وبالرغم من ان الخمس يدفع للإمام الذي ينوب مناب الرسـول (ص) في قيـادة الامة ، ولكن لا يعـني ذلك أبـدا انه يدفع للدولة الا إذا كـان رئيس الدولة هو الامـام ذاتـه. هنالك يـــدفع اليه بـــدافع الايمـــان به ، وانه يمثل الكيـــان الاجتماعي لا بصفته رئيس الدولة كالذي يحدث الآن ـ مثلا ـ في الدولة الاسلامية القائمة في إيران حيث يعتبر القائد الأعلى لها هو امـام الامة السـيد الخميـني (دام ظله) بيد انه لا يســتلم الحقــوق الشـــرعية كـــالخمس والزكـــاة والصدقات والنذور بصفته رئيسا للدولة ، بل بصفته قائــدا للأمة .. وانما يـــدفع الخمس من يشـــعر بإيمـــان واقعي بضرورته ووجوبه.

موارد الخمس :

في اي شيء يفرض الخمس؟

ظـــاهر الآية ان الخمس مفـــروض على الغنـــائم ، وبـــالرغم من ان الكلمة تطلق اليـــوم على غنـــائهم دار الحرب بيد ان المعـنى اللغـوي لكلمة الغنيمة لا يختص بما يحصل عليه المحـــاربون في ســـاحة القتـــال. وفي عصر نزول القرآن لم تكن هذه الكلمة قد أصـبحت خاصة بهـذا المعـنى بالـذات لـذلك قـال الـراغب : الغنم (بفتحـتين) معـــروف قـــال : «**وَمِنَ الْبَقَــرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما**» والغنم (بالضم فالسكون) إصابته والظّفر به ، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة الأعداء وغـيرهم ، قال : «**وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ**» «**فَكُلُـوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً**» المغنم ما يغنم ، وجمعه مغانم قــال : «**فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ**» [1].

من هنا وجب الخمس على كل ما يكتســــــبه ويغنمه الفرد ، وهو ضرورة دفاعية ، وبهذه المناسبة ذكر القــرآن هـذه الفريضة ضـمن آيـات القتـال ، كما ذكر ربنا الإنفـاق في سبيل الله والجهاد بالمال ضمن الحـديث عن الحــرب والجهاد بالنفس.

(**وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَـيْءٍ فَـأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَـهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَســاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**)

وجوه صرف الخمس :

حينما ينسب (**شَيْءٍ**) الى الله فان معنـاه تحـرره عن امتلاك الناس. اما امتلاك الرسـول وذوي قربـاه فلا يعـني امتلاكهم للمال بصفتهم اشخاصا. بل لأنهم يمثلون

(1) تفسير الميزان ـ العلامة الطباطبائي / ج 10 / 89

قيادة المجتمع ، اما اليـتيم فهو الـذي مـات أبـوه ولم يبلغ الحلم ، والمســكين المحتــاج الــذي أســكنه الفقر عن ضرورات حياته ، اما ابن السبيل فهو عـابر السـبيل الـذي انقطعت به الطريق فلا بد من توفير ما يبلغه محله.

و جاء في الحديث المـأثور عن العبد الصـالح (ع) انه قال :

(الخمس في خمسة أشياء : من الغنائم (يعني غنـائم دار الحـرب حسب المصـطلح في ذلك العصر المتـأخر) والغوص ومن الكنوز ومن المعادن والملاحة يؤخذ من كل هذه الصـنوف الخمسة فيجعل لمن جعل الله له ، ويقسم اربعة أخماس بين من قاتل عليه وولي ذلك.

و يقسم بينهم الخمس الخـامس على سـتة أسـهم. سـهم لله تعـالى ، وسـهم لرسـوله (ص) وسـهم لـذي القربي ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لأبنـاء السـبل ، فسـهم الله تعـالى ورسـوله لاولى الأمر من بعد رسول الله وراثه فله ثلاثة أسهم. سـهمان وراثة ، وسـهم مقســـــوم له من الله ، فله نصف الخمس كلّا ، ونصف الخمس الثــاني يقسم بينهم على الكتــاب والســنة ما يستغنون به في سنتهم. فان فضل منه شيء فهو للـوالي ، وان عجز أو نقص عن اسـتغنائهم كـان على الـوالي ان ينفق عنهم ما عنـده ما يسـتغنون به ، وانما صـار عليه ان يمــــونهم لان له ما فضل عنهم ، وانما جعل الله هــــذا الخمس خاصة لهم دون مسـاكين النـاس وأبنـاء السـبيل عوضا لهم عن صدقات الناس تنزيها من الله لقرابتهم من رســول الله ، وكرامة من الله لهم عن أوســاخ النــاس ، فجعل لهم خاصة من عنـده وما ينقيهم به ان يعيـدهم في موضع الـذل والمسـكنة ، ولا بـأس بصـدقة بعضـهم على بعض.

جاء في كتـاب الـدر المنثـور عن ابن المنـذر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال سـألت عليا (ع) فقلت يا أمـير المؤمــنين اخــبرني كيف صــنع ابو بكر وعمر (رض) في الخمس نصيبكم؟ فقال (ع):

(اما ابو بكر (رض) فلم يكن في ولايته أخمــاس واما عمر (رض) فلم يـزل يدفعه اليّ في كل خمس السـوس وجند نيسابور ، فقال وانا عنده : هـذا نصـيبكم أهل الـبيت من الخمس ، وقد أهل ببعض المسلمين واشتدت حاجتهم فقلت : نعم ، فـوثب العبـاس بن عبد المطلب فقـال : لا تعرض في الذي لنا ، فقلت : السـنا من ارفق المسـلمين وشـفع أمـير المؤمـنين ، فقبضه ، فو الله ما قبضـناه ولا قدرت عليه في ولاية عثمان (رض) [3].

(**إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْـدِنا يَـوْمَ الْفُرْقانِ**)

اي ادفعـــوا الخمس ان كنتم آمنتم بالله وبرســـالاته الـتي أنـزلت على عبـده ورسـوله محمد (ص) يـوم تمـيز الطيب عن الخبيث بالحرب.

(**يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ**)

جمع الايمان وجمع الكفر.

(**وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

قادر لنصرة المؤمـنين برسـالته على أعـدائهم. وحين تنتصر الرســالة فــذلك يكــون دليلا واضــحا على صــدق برامجها وصــوابها ، وكل فكـــرة يجب ان تقــاس بالعقل وبالمكاسب الواقعية التي تحققها.

القضاء والقدر

[42] بالرغم من ان المؤمنين كـانوا في مواقع أسـوأ من موقع أعدائهم إذ كانوا

(3) تفسير الميزان / ج 10 / 103 ـ 105

أسفل الوادي بينما أعداؤهم في أعلاه.

(**إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ**)

العدوة شفير الوادي ـ وللوادي شفيران ادنى وأقصى. بينما العير الذي كان يحمل تجارة قريش كان أسفل من الجمعين ، حيث كان على بعد ثلاثة أيام من ارض المعركة اي على شاطئ البحر الأحمر.

لقد كانت الحرب مفاجئة بالنسبة الى المسلمين في بدر ، حيث كان الهدف الاصلي للحملة فك الحصار الذي فرضه الكفار على المسلمين ، ولو ان المسلمين كانوا يعلمون أنّه بدل القافلة المحملة بأنواع السلع الضرورية لمجتمع محاصر سوف يلقون الف محارب مجّهز وهم زهاء ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا لم يكتمل تجهيزهم للمعركة. لو كانوا يعلمون ذلك إذا تخلفوا عن المعركة.

(**وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ**)

ولكن الله هو الذي قدّر الحرب لحكمة بالغة.

(**وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً**)

بين القضاء والقدر فرق هو ان القدر : هو ما يسنه الله للكون من انظمة ، بينما القضاء هو تنفيذ تلك السنن أو تدخل مباشر للغيب لتغيير مجرى الأقدار. وكانت هزيمة الكفار من قضاء الله في تلك الفترة ، بينما قدر الله كان يقضي بهذه الهزيمة بالتالي.

(**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**)

بعد الانتصار الساحق للامة على اعدائها في حرب بدر ، تحقق انتشار الرسالة

يسبين:

الاول : ان الرسالة قد حققت صدق نبوءتها.

الثاني : ان عقبة الخوف والدعايات الباطلة والتسلط الجـاهلي قد ارتفعت عن طريق الرسـالة ، فـالآن بإمكـان الجميع ان يســتجيب للرســالة من دون عقبــة. فــاذا آمن فانما آمن بعقله ، وإذا كفر فسوف يلقى حقه بعد وضــوح الحجة عليه.

(**وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**)

تدبير الله :

[43] وكان من تدبير ربنا الحكيم انه ارى رسوله (ص) العدو قليلا تشجيعا على محاربته ، بينما قلل المســلمين في أعين العــدو حــتى اســتهانوا بقــوة الايمــان وســلامة البرامج العسكرية وحكمة القيادة الرشيدة التي يملكونها.

(**إِذْ يُـرِيكَهُمُ اللـهُ فِي مَنامِـكَ قَلِيلاً وَلَـوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ**)

اي إذا ذهب ما عنـدكم من عزيمة وهمة عندئذ يشـتدّ الخلاف بينكم شـــأنه شـــأن كل مجتمع يفقد اندفاعه نحو هدف مشترك ومقدس.

(**وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلكِنَّ اللهَ سَلَّمَ**)

واعطى للمؤمنين السلامة والأمن.

(**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)

انه محيط بما لا يزال في قلوب المؤمنين من عوامل الخوف والهلع.

[44] وحـــتى في بداية المعركة ارى الله المســلمين جمع الكفار قليلا بالرغم من

كـثرتهم الظاهرية ، فاسـتعد المسـلمون للـنزال بقلـوب شـجاعة. اما العـدو فقد أراه الله المسـلمين قلة ، ولم يستعد للمواجهة الحاسمة أو لم يستعد خوفا بل اسـتهانوا بهم ، كل ذلك لكي تتم المعركة بهزيمة العـدو. فانتشـار الرسالة.

(**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً**)

بالرغم من انهم زهاء الف.

(**وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**)

فهو الـذي يقضي فيها بحكمة الرشـيد بـالرغم من السنن والأقدار الظاهرة إلّا ان هنـاك عوامل خفية بعضـها نفسـية وبعضـها طبيعية تلعب دورا حاسـما في اللحظـات الهامـة. مثلا في الحملة الامريكية على إيـران بعد انتصـار المؤمـنين كـانت هنـاك زوبعة رملية غـير محتسـبة في منطقة الحادث افشلت الحملة التي أعـدت لها أكـبر قـوة عسكرية في العالم عـدة أشـهر ، وزعمت انها غالبة ارادة الله ــ حاشا لله ــ انه عامل طـبيعي يتـدخل بطريقة غـير منتظرة فيغير مجرى تاريخ كامـل. لان نهايـات الأمـور بيد الله مصـير الأمـور ومرجعها هي الارادة الأسـمى لربنا الحكيم.

سورة الأنفال

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَــاثْبُتُوا وَاذْكُــرُوا اللـــهَ كَثِــيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُــونَ (45) وَأَطِيعُــوا اللـــهَ وَرَسُـــولَهُ وَلا تَنــازَعُوا فَتَفْشَـــلُوا وَتَــذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْــبِرُوا إِنَّ اللــهَ مَـعَ الصَّــابِرِينَ (46) وَلا تَكُونُــوا كَالَّذِينَ خَرَجُــوا مِنْ دِيــارِهِمْ بَطَــراً وَرِئــاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللـهُ بِما يَعْمَلُـونَ مُحِيـطٌ (47) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقـالَ لا غـالِبَ لَكُمُ الْيَــوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جــارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَــراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ

---

46 [تذهب ريحكم] : تتلاشى قوتكم ودولتكم.
47 [بطــرا] : البطر الخــروج من مــوجب النعمة من شــكرها وأصل البطر الشق.
48 [تراءت] : التقت.
[نكص على عقبيه] : ولى مدبرا.

سورة الأنفال

وَقــــالَ إِنِّي بَــــرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَـــرَوْنَ إِنِّي أَخــافُ اللــهَ وَاللّــهُ شَــدِيدُ الْعِقــابِ (48) إِذْ يَقُــولُ الْمُنــافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُــوبِهِمْ مَـرَضٌ غَــرَّ هــؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللــهَ عَزِيــزٌ حَكِيمٌ (49)

عوامل الانتصار

هدى من الآيات :

الله ينصر المؤمـــنين ولكن الله حكيم لا ينصر الا من وفر في نفسه عوامل الانتصــار الظاهرية والخفية .. وفي هذا الدرس يوصينا الله ببعض تلك العوامل.

اولا : الثبات وعقد العزم على الاستقامة.

ثانيا : ذكر الله كثيرا.

ثالثا : الطاعة التامة لله وللقيادة الرسالية.

رابعا : تجنب الخلافــات الجانبية ، لأنها تســبب فشل القلب وتوانيه وذهاب الهمة والتطلع عنه.

خامسا : الصـــــبر وتحمل الصـــــعاب لان الله مع الصابرين.

اما عوامل الهزيمة التي يذكرنا الله بها فهي :

اولا : الخـروج الى المعركة بطـرا مغـرورين بـالنعم ، غير مفكرين بعواقب الأمور. وكذلك الخروج رياء.

ثانيا : ان يكــون هــدف المعركة خبيثا مثل الصد عن سـبيل الله ، والتسـلط على رقـاب النـاس ، غفلة عن ان الله محيط بهم.

ثالثا : الخـداع الـذاتي ، والـزعم بـان كل عمل يصـدر منهم فهو صحيح.

رابعا : الغرور بالقوة التي لديهم.

خامسا : الاعتماد على الشيطان واهوائه.

وهكذا اعتمد الكفار على خداع الشـيطان فـانهزموا ، إذ ان الشــيطان خــدعهم وتــركهم في ســاحة الحــرب يواجهـون السـيوف والحـرب وحـدهم وتـبرأ منهم وقـال : (**إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ**).

وفرق بين الغرور وبين التوكل على الله. والمنـافقون لا يعرفون هذا الفـرق فـيزعمون ان الاعتمـاد على الـدين الصـحيح وعلى الله ، كالاعتمـاد على الخرافـات وأقـوال الشــيطان. كلا .. (**أَنَّ اللــهَ عَزِيــزٌ حَكِيمٌ**) ، بعزته يكسر شوكة الكفار ، وبحكمته ينصر المؤمنين عليهم.

بينات من الآيات :

شروط الانتصار :

[45] أول شــروط الانتصــار ، هو عقد العــزم على الاستقامة والثبات مهما كلف الأمر .. كما قال الامام علي (ع) لابنه محمد ابن الحنفية لما أعطاه الراية يـوم الجمل : «**تزول الجبال ولا تزل. عضّ على ناجـذك. أعر الله جمجمتك. تد في الأرض**

قـدمك. ارم ببصـرك أقصى القـوم وغضّ بصـرك ، واعلم ان النّصر من عند الله سبحانه» [1]

ولكن العـــزم على الثبـــات بحاجة الى تنمية الارادة وشــحذ العــزم وذلك عن طريق تحقيق الشــرط الثـاني للانتصـار .. وهو ذكر الله ذكـرا كثـيرا. لان ذكر الله يوجه المرء الى أوامره الرشيدة ، والى وعده ووعيـده بـالثواب أو بالعقاب ، والى آلائه التي تشكر ، ورضوانه الذي يرجى وحبه الذي يتطلع المؤمن الى الشهادة من اجله.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَـــاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)

الفلاح يأتي بالنتيجة بعد شـرطي الثبـات عند اللقـاء ، وذكر الله كثيرا.

[46] اما ثالث شـروط النصـر. فهو الطاعة لله بتنفيذ برامجه والطاعة للرسـول وللقيـادة الرسـالية الـتي تحكم باسم الله من أجل تنفيذ أوامره اليومية.

(**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**)

ومن ابرز فوائد الطاعة الوحدة ، ونبذ الخلافات ، ورد كل الخلافات الى حكم الله ورسوله.

(**وَلا تَنازَعُوا**)

ولكن لماذا يجب تجنّب النزاع؟

اولا : لأنه يضعف الارادة ويبعث الوهن في النفس.

---

(1) ـ نهج البلاغة ص 55 خطبة 11

ثانيا : لأنه يذهب بالكرامة والعـزة والتطلع ، وبالتـالي يـدّمر كل فريق شخصـية الفريق الثـاني ، ومن تحطمت شخصـيته وهـانت نفسه عليه فانه لا يحـارب عـدوه ، ولا يرى نفسه كفؤا للصراع مع منافسيه.

(**فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**)

من هنا نعـرف ان القيـادة الـتي يعيش المجتمع تحت ضلالها الصراعات ليست بقيـادة حقيقية كما عرفنا ان من عوامل النصر غـير المنظـورة هي إعطـاء الثقة والكرامة للمحاربين ، وعدم الاستهانة بهم أبدا.

اما الشـــرط الآخر للنصر بعد الطاعة فهو الصـــبر ، وتحمل الصعاب بانتظار المستقبل المشرق.

(**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**)

يؤيد ويسـدّد خطـاهم. وحيث يكـون الصـبر تكـون الاستراتيجية الطويلة الأمد ، والاسـتمرار في تنفيذ الخطة ، وتحمل الجـــراح والجد والنشـــاط في العمل ، أملا في المسـتقبل ، وربما هـذه المنـافع وغيرها بعض ما يعنيه ان يكون الله مع الصابرين.

[47] حين يكون هدف القتال مقدسا ، تخدم الطبيعة والصدفة المحـاربين ويسـدد الله خطـاهم اما إذا فسـدت نية المحـــــــارب فقاتل من أجل الفخر والرغبة في ذكر اسمه في الاندية ، أو حارب لأجل اعتقاده بأنه اسمى من غيره لما رزقه الله من نعم الحياة.

(**وَلا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ خَرَجُـوا مِنْ دِيـارِهِمْ بَطَـراً وَرِئاءَ النَّاسِ**)

حين يشعر الفـرد بالاسـتغناء واكتمـال حياته المادية ، يأخذه الغرور فيخرج من

بيته لاسـتغلال الآخـرين والتسـلط عليهم وإثبـات قوته وسطوته.

«وجـاء في التفاسـير عن ابن عبـاس : لما رأى أبو سفيان انه أحرز عيره أرسل الى قريش ان ارجعوا فقـال ابو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرا (وكانت بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سـوق كل عـام) فنقيم بها ثلاثا وتفرق علينا القيان وتسمع بنا العـرب فلا يزالـون يهابوننا أبدا ، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا وناحت عليهم النوائح.

ان هذه الواقعة التاريخية واحدة من مصاديق الحـرب التي تشعلها نـزوة شـخص واحد يريد ان يصـبح من ورائها بطلا معروفا كما أراد هتلر ذلك ، وكما سعى وراءها صدام في العراق فمن أجل ان يصبح بطل القادسـية الجديـدة ، أشعل نار الحرب فكان هو ونظامه أول المحترقين فيها.

وهنـاك حـرب قـذرة اخـرى تشـعلها مجموعة منظمة تهـدف إيقـاف توسع الرسـالة كـالحرب الامبريالية ضد الثـورات التحرريـة. وكما الحـروب المنظمة الـتي قادتها الجاهلية ضد رسالة الإسلام.

(**وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ وَاللـهُ بِما يَعْمَلُـونَ مُحِيطٌ**)

دوافع القتال عند الكفّار :

[48] ثلاثة عوامل نفسـية تـدفع الكفـار الى خـوض غمار الحروب الطاحنة لهم :

الاول : بسبب سلبيات أعمالهم. فمع كل عمل سـيء تنمو شـاذة في النفس ، فـالظلم البسـيط يبسط ضـبابا قاتما على القلب وكلما يكبر الظلم يتكثف الضباب فيصبح سـحابا ، فسـحابا داكنا فمتراكما فحجابا من الظلمـات ، يرين على القلب ، وهكذا تتكرس عادة الظلم عند مرتكبه حتى يرى الظلم أصلا ثابتا من الحياة بينما

العدالة شـذوذا وجريمـة. ان العنصـريين والرأسـماليين والشـوفينيين يـرون المتمـردين والثـوار عليهم ، يـرونهم خـارجين عن العـرف والعقل والصـواب ، ذلك لان تـراكم سلبيات العمل السيء على قلبهم جعلت الأعمـال حسـنة في أعينهم.

(**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ**)

الثاني : الغرور ، والاعتقاد بان قوتهم أكبر من القـوى الاخـرى ، وربما تنشأ هـذه الحالة النفسـية من الاعتقـاد المضخم بالذات .. لذلك حكى ربنا سبحانه عنهم وقال :

(**وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ**)

الثالث : يخيّل الى قلب الكافر ان هناك بعض النـاس يؤيدونهم وذلك بسـبب بعض المواعيد الفارغة لـذلك قـال الشيطان :

(**وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ**)

ساعة المواجهة!

اما هذه الدوافع النفسية ما هي الا سراب سرعان ما تتكشف حقيقته.

(**فَلَمَّا تَـراءَتِ الْفِئَتـانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْـهِ وَقـالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللـهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ**)

في سـاعة المواجهة الحقيقية يعـرف الكفـار أن أعمـالهم خبيثة وباطلة ، وان كيـدهم ضـعيف ، وان أنصارهم المزعومين قد تبخروا وتلاشوا.

الشيطان تولى يوم المواجهة ، وتبرأ حـتى من أقواله ومزاعمه السـابقة ، وخشي من الله ، وخـاف العاقبة السوء التي تنتظر فريقه.

وإذا حدث هذا في بدر بصـورة مجسـدة كما جـاء في حديث مأثور ، فـان ذلك انما هو مثل ظـاهر لواقع الكفـار مع من يخـدعهم من شـياطين الجن والانس ، والنكـوص على العقب هو العودة قهقرى.

وقد يكـــون الشـــيطان الغـــاوي أولئك الضـــعفاء المنهزمـون نفسـيا ، الـذين يـتزلفون الى قـادة العـدو للحصـول على المكاسب ، وعـادة ما يكـون هـؤلاء أشد تطرفا من غـيرهم في طـرح الشـعارات والتهديـدات ، ولكنهم أول المنهزمين الذين يبررون هـزيمتهم بمعـرفتهم بأمور لا يراها الآخرون.

[49] في الجانب الاسلامي توجد أيضا عناصر ضعيفة مثل المنافقين الذين يرون مبادرة المؤمـنين بالقتـال نوعا من الغـرور الـذي يـدفعهم اليه دينهم الجديد ، وايمـانهم بفكرة الرسالة.

(**إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ**)

والمرض قد يكون النفاق وقد يكـون الخـوف والرهبة من العدو.

ونسي هـؤلاء ان الكفـار يفقـدون قـدرة التوكل على الله ومـــدى ما في التوكل من بعث الـــروح الرســـالية المندفعة.

(**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَـوَفَّى الَّذِينَ كَفَـرُوا الْمَلائِكَـةُ يَضْـرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (50) ذلِـكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيـدِ (51) كَـدَأْبِ آلِ فِرْعَـوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَـرُوا بِآيـاتِ اللـهِ فَأَخَـذَهُمُ اللـهُ بِـذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللـهَ قَـوِيٌّ شَـدِيدُ الْعِقابِ (52) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللـهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَـدَأْبِ آلِ فِرْعَـوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَـذَّبُوا بِآيـاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنـاهُمْ بِـذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (54) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُـونَ عَهْـدَهُمْ فِي كُـلِّ مَـرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (56)

الكفار يصنعون جزاءهم بأيديهم

هدى من الآيات :

بعد ان أوضحت آيـات الـدرس السـابق عوامل النصر والهزيمة ، تشـجعنا آيـات هـذا الـدرس على الحـرب ضد الكفـــار .. دون لين أو هـــوادة ، لأنهم منبـــوذون عند الله بكفـــرهم ، وتعـــاملهم ملائكة العـــذاب بقـــوة ، يضـــربون وجوههم وادبـارهم ، ويقولـون لهم بشـماتة ذوقـوا عـذاب الحريق .. فهل غضب الله عليهم عبثـــــــا؟ أم بســــــبب استحقاقهم للعذاب لما قدمت أيديهم وصنعته أفعالهم لان الله ليس بظلام للعبيد سبحانه؟ مثلا قوم فرعـون والـذين كفروا بآيات الله انما أخذهم الله بذنوبهم لكفرهم ، لأنه لا يمر الكفر بـــدون عقــاب لان الله قـــوي شـــديد العقــاب. وعموما ارادة البشر تصـنع حياته ومسـتقبله ولا يغـير الله نعمة أنعمها على قوم حتى يغـيروا ما بأنفسـهم من طيب في القلب وصـــلاح في العمل ، فتفسد نيـــاتهم وتســـوء أفعــالهم. هــذا قـــوم فرعـــون انما أخـــذهم الله بـــذنوبهم وأغرقهم حين كذبوا بآيات الله وكـانوا ظـالمين. ان الله لا يحب الكفـار ، ويعتـبرهم شر الأحيـاء الـتي تـدب وتتحـرك فوق الأرض ، فالكفار هم الذين ينقضون

عهدهم ، ولا يتقون ربهم لذلك يمقتهم الله ويـأمر بقتـالهم كما يأتي في الدرس القادم.

بينات من الآيات :

القيم فوق كل شيء :

[50] المهم عند الله القيم الــتي يســتهدفها المــرء بعمله ، فهي دون لون البشر وأسـلوب التحـدث والطـول والعرض. والغنى والفقر ، فهي المقياس لذلك فان الله لا يعبأ بالبشر الـذين كفـروا بآياته ، وانها ظـاهرة غريبـة! ان الله الذي أسـبغ نعمه ظـاهرة وباطنة على الإنسـان ولكنه يعامل الكفار بهذه الطريقة.

(**وَلَــوْ تَــرى إِذْ يَتَــوَفَّى الَّذِينَ كَفَـرُوا الْمَلائِكَـةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ**)

وخلفهم وهم يقولون ازدراء بهم.

(**وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ**)

[51] فلما ذا يأخذ الله الكفــار بهــذه الشــدة؟ يجيب ربنا ويقول :

(**ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ**)

اليد ابــرز عضو في جسد البشــر. وحين يقــول ربنا قدمت أيديكم يتـبين ان ارادة البشر وأقـرب أعضـائه اليه يده التي صنعت هذا الواقع مقدما

ولو لم يكن ذلك لكان ينسب الى ربنا انه ظلام للعبيد ، كثــير الظلم لهم بينما الصــفة المعروفة لنا عن ربنا انه رحيم ودود بسـبب مزيد نعمه الـتي لا تحصـى. إذا فعملنا وليس شيء آخر هو سبب العذاب.

(**وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**)

فهم عبيـــده فلما ذا يظلمهم؟ هل يتلـــذذ بظلمهم (حاشـاه) وهو الغـني الحميد ، أم يخشى منهم سـبحانه وهو القوي العزيز.

[52] وكمثل ظـاهر من واقع التـاريخ هـذا ، قـوم فرعـون هل ظلمهم الله أم أخـذهم الواقع الفاسد الـذي صنعته أيديهم؟

ان ذنـوبهم الـتي أحـاطت بهم فاخـذهم الله بها اي جعلها تلتف حول أعناقهم.

(**كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ**)

اي كالعادة التي جرت في آل فرعون.

(**وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَـرُوا بِآيـاتِ اللـهِ فَأَخَـذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ**)

فلا يتهاون في معاقبة من يستحق العقاب ضعفا ماديا أو معنويا سبحانه.

[53] ذلك فيما يتصل بســنة الله في الآخــرة ، اما سنته الأظهر لنا فيما نراها من تطور المجتمعـات فما دام الناس مستقيمين على القيم السـماوية والعمل الصـالح ، فـان نعم الله تشـملهم وبركاته تـترى عليهم ، وإذا غـيروا قيمهم وسـلوكهم غـير الله عــادة الإحســان الى النكبة والدمار.

(**ذلِـكَ بِـأَنَّ اللـهَ لَمْ يَـكُ مُغَيِّراً نِعْمَـةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ**)

حــتى يغــيروا ذلك العوامل الــذي أنعم الله الحكيم بســببها تلك النعمة عليهم ، لقد أنعم الله على مجتمع ما نعمة الحرية بسـبب توحيـدهم ورفضـهم للاستسـلام اما ضغوط

الجبت والطـــــاغوت ، وأنعم عليهم الصـــــحة بســــبب استقامتهم على الفطـرة الاولية الـتي خلقهم بها ، وأنعم عليهم بنعمة الراحة النفســـية بســـبب مكـــارم الأخلاق وسلامة السلوك والتربية.

(**حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**)

اي يبدلوا صفات الخير المتعلقة بأنفسهم الى صـفات السوء.

(**وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)

يســـمع ما في ظـــاهر المجتمعـــات ، ويعلم ما في صدورهم.

[54] مثلا : ســـنة الله في آل فرعـــون كيف ان ربنا أنعم عليهم بالأمن والرفاه وجنات تجري من تحتها الأنهـار ، حتى طغوا وبدلوا صفة وعلاقة التعـاون بينهم الى علاقة الاسـتغلال ، وصـفة النشـاط في عمل الصـالح الى صـفة التـواني أو المبـادرة في عمل الفسـاد وهكـذا فبـدل الله نعمه وأرسل عليهم الطوفـان فـدمر مـدنيتهم ، وأرسل عليهم القمل والـدم والضـفادع ، بـدل الثمـرات والأرزاق وأرسل عليهم ريـاح الثـورة فـاقتلعت جـذورهم ورمـاهم ربهم في البحر.

(**كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ**)

اي بحجج الله وبيناته ورسـالاته البليغة الـتي وضـحت لهم برنامج الحياة السعيدة.

(**فَأَهْلَكْناهُمْ بِـذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَـوْنَ وَكُـلٌّ كانُوا ظالِمِينَ**)

ومن دون الظلم الـــذاتي وقيـــامهم بما يســـتوجب العقـــاب إذا لم يكن ربنا الـــودود يأخـــذهم بهـــذه العقوبة الشديدة ، يبدو من كلمة (كل) ان جميع المغـرقين كـانوا ظالمين

لأنفسهم.

[55] ويستخلص السياق القرآني الفكرة الاصيلة لهذا الـدرس وهي : ان مقيـاس الصـلاح والفسـاد عند الله في البشر هو الايمـــان والكفر ، وليس أيّ شـــيء آخر ، وانه أسوأ الناس بل شر الأحياء الكافر.

(**إِنَّ شَرَّ الـدَّوَابِّ عِنْـدَ اللـهِ الَّذِينَ كَفَـرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**)

فالكافر الـذي تـاب. الى ربّه وآمن ليس شر ما يـدب ويتحرك على الأرض ، بل الـذي بقي مسـتمرا على كفـره وضلاله برغم وجود نور في قلبه يهديه الى الحق.

[56] ولكن يبقى سؤال : لماذا يهبط الكافر الى هــذا الحضيض الأسفل عند الله؟

الجواب :

اولا : لان الكــافر لا عهد له ، فهو لا يحــترم نفسه ولا الآخــرين ، ويلغي بــذلك دوره في الحيــاة ويصــبح كأنه لا وجود له ولا حضور في المجتمع ، فتراه يعاهدك ثم ينقض عهده معك ، ثم يعود يعاهدك فيخالف عهده مرة اخرى.

ثانيا : انه لا يلـــتزم ببرنـــامج الرســـالة ، بل لا يتعهد بمسؤولية.

(**الَّذِينَ عاهَـدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُـونَ عَهْـدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ**)

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَــرْبِ فَشَــرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَـذَّكَّرُونَ (57) وَإِمَّا تَخـافَنَّ مِنْ قَـوْمٍ خِيانَـةً فَانْبِـذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللـهَ لا يُحِبُّ الْخـائِنِينَ (58) وَلا يَحْسَـــبَنَّ الَّذِينَ كَفَـــرُوا سَـــبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِـزُونَ (59) وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِبـاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُـونَ بِـهِ عَـدُوَّ اللـهِ وَعَـدُوَّكُمْ وَآخَــرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُــونَهُمُ اللــهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (60) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها

---

57 [تثقفنهم] : الثقف الظفر والإدراك بسرعة.
[فشرد بهم] : التشريد التفريق على اضطراب.
58 [خيانة] : الخيانة نقض العهد فيما أو تمن عليه.
[فانبذ] : النبذ إلقاء الخبر الى من لا يعلمه.
[سواء] : السواء العدل.

سورة الأنفال

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللــهِ إِنَّهُ هُـوَ السَّــمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْـبَكَ اللـهُ هُـوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْــرِهِ وَبِــالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُــوبِهِمْ لَــوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعــاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُــوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)

استراتيجيات القتال :

الردع. السلام الشريف. الاعداد

هدى من الآيات :

بعد ان بين الـدرس السـابق طبيعة الكفـار وضـرورة قتالهم ، امر الله في هـذا الـدرس بـالحرب الرادعة الـتي تلقي الرعب في افئـدة الأعـداء خلف المعركة عن طريق إنــزال الضــربات القوية بمن هم في الجبهة ، وإذا خشي المسلمون خيانة من العدو فعليهم ان ينذروهم ويهـددوهم بالغاء المعاهدة.

وليعلم المسلمون ان الكفار ليسـوا بسـابقين ، وانهم لا يستطيعون تعجيز المسـلمين ولكن على المسـلمين ان يعـدّوا كل قـوة ممكنة لـردعهم وردع القـوى الحليفة لهم من المنافقين الـذين لا يعلم بهم سـوى اللـه. وفي سـبيل دعم القوى المسلحة لا بد من بذل المـال الـذي لا يـذهب هدرا ولا يؤخذ زيادة.

وإذا مال العدو الى الصلح فعلى المسلمين الا يخشوا من الصـلح بل يتوكلـوا على الله ، ويقبلـوا بالصـلح ، والله سـميع عليم. ذلك لان العــدو لا يســتطيع تحقيق احلامه ، وعلينا ان نعتمد على نصر الله الــــذي ايــــدّ رســــوله والمؤمنين بنصره ، ومن آيات نصره انه

سبحانه ألف بين قلوبهم و (**أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**).

بينات من الآيات :

الاجراءات الهجومية في العسكرية الاسلامية :

[57] ما هو الهدف القريب للعسكرية الاسلامية؟
الهدف هو الهجوم الصاعق والماحق على العــدو بغية تحطيمه عســكريا والحــاق الهزيمة بمعنويــات حلفائه من أجل ان يتركوا طغيانهم ويعودوا الى العقل.
(**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ**)
اي إذا أدركتهم في ساحة الحرب.
(**فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ**)
اي العدو الذي يدعمهم من خلف.
(**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**) اي يعودوا الى رشدهم.

الخيانة ونقض العهد :

[58] وحين تخاف من قوم خيانة بـالعهود والمواثيق ، فلا بد ان تعلمهم بخيانتهم وتهددهم بالحرب ، و (**إِنَّ اللــهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ**).
(**وَإِمَّا تَخـافَنَّ مِنْ قَـوْمٍ خِيانَـةً فَانْبِـذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ**)
اي عاملهم في قضية العهد كما هم يعاملونك دون ان تتجاوز ذلك ويدعوك

نقضـهم للعهد الى الاعتـداء عليهم لان الله تعـالى لا يحب الخائنين. واما هم فان خيـانتهم سـوف تسـبب لهم ضـررا ولان (**اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ**).

[59] والذين كفروا يزعمون انهم أقوى وأحق بالحكم ، لأنهم السـابقون ، وان بامكـانهم ـ بسـبب هـذا السـبق والتقــدم الزمــني ــ ان يقضــوا على قــوة المســلمين ويعجزوهم ولكن كلا.

(**وَلا يَحْسَــــبَنَّ الَّذِينَ كَفَــرُوا سَـــبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ**)

ان السـبق الزمـني مع الكفر لا يعـني شـيئا فـالكفر يعمي البصر ويغلق القلب ويشوش الرؤية.

[60] ولكن متى لا ينفع السبق؟

حين يكون هناك سـعي دائب من أجل الحصـول على القوة الذاتية. وهذا السعي يعني عدة أمور :

الاول : الاسـتعداد للمسـتقبل ، والا يكـون العمل في لحظة الحاجة فقط.

الثـاني : ان يكـون هـذا الاسـتعداد بالنشـاط المكثف الــذي لا يــدع امكانية ولا مقــدرة ولا جهــدا ولا فرصة الا وتستغل من أجل بناء القوة الذاتية.

الثـالث : ان يكـون الهـدف هو التغلب على كل نقـاط الضعف وكل الثغرات الامنية والاجتماعية.

(**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**)

وهكـــــذا يأمرنا ربنا بتقوية أنفســــنا بما نملك من استطاعة اي تحويل طاقاتنا

الكامنة في أنفسـنا الى كيـان واقعي .. يجب ان يتحـول الفكر والعقل الى علم وخـبرة ، والخـبرة الى ابنية وعمـارات وفنـادق ، وكـذلك المقـدرة الجسـدية يجب ان تتحول الى اسلحة وأدوات وصناعات مختلفة.

كما ان الـبرامج الفكرية الاسـلامية يجب ان تتحـول الى قوة اجتماعية متماسكة ، اما المعادن والذخائر فيجب ان تتحول الى قوة اقتصادية وثروة مالية.

ولكن القـوة يجب الا تكـون فقط في تعبئة القـوى البشـرية والمادية في صـناعة الاسـلحة ، بل يجب ان يبلغ حد الاسـتعداد لخـوض القتـال مباشـرة لـذلك أكّد ربنا سبحانه على هذه الجهة قائلا :

(**وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ**)

اما الهدف الا بعد للاستعداد فليس مجرد القدرة على الـدفاع ، بل القـدرة على الهجـوم فيما لو اختـار العـدو الاعتداء على المسلمين حتى يلقي في افئدته الرعب.

(**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ**)

كما ان بنـاء القـوة الذاتية الرادعة تمتن الجبهة الداخلية ولا تدع ضعاف النفوس يرتبطون بالأجنبي ابتغـاء العزّة والقوة.

(**وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ**)

وبناء القوة الذاتية بحاجة الى العطـاء ، وهـذا العطـاء سوف لا يذهب عبثا بل يعود الى المجتمع وزيادة.

(**وَما تُنْفِقُـوا مِنْ شَـيْءٍ فِي سَـبِيلِ اللـهِ يُـوَفَّ إِلَيْكُمْ**)

اي يعود إليكم وافيا غير منقوص.

(**وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ**)

[61] والاستعداد للقتال لا يعـني انبعـاث روح البطش والاعتداء في الامة ، بل من الضـروري ان يكـون انضـباط الامة بمســتوى قوتها ، وان يهتمــوا بالســلام أكــثر من اهتمامهم بالحرب.

(**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا**)

وقرار السلم يجب ان تتخذه القيادة ، ويجب الا يـدفع الخـوف من اعتـداء العـدو علينا ، لا يـدفعنا نحو المبـادرة بالهجوم بل لمقاومة هـذا الضـعف النفسي وهـذا الخـوف يجب ان نتوكل على الله تعالى.

(**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

أسباب الحروب :

[62] ان الدافع الاساسي لكثـير من الحـروب الدامية ، هو الخوف المتبادل من هجوم الطرف الاخـر. وإذا كـان عند أحد الطرفين اطمئنان كـاف بالقـدرة ، فانه لا يهـاجم خوفا من الطرف الاخر ولا يستجيب لاسـتفزازاته .. لـذلك يؤكد ربنا ســبحانه على ضــرورة التوكل على الله تعــالى والثقة بنصره ، وعدم الاستجابة لهاجس الخوف من العدو للقيام بحرب وقائية.

(**وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْـدَعُوكَ فَـإِنَّ حَسْـبَكَ اللـهُ هُـوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**)

[63] وكان من ابرز آيات نصــره لك هو توحيد جبهتك الداخلية ، حيث ان الله هو الـــــذي الف بين قلـــــوب المؤمنين.

(**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**)

وتأليف القلوب يبدو في الظـاهر عملية بسـيطة بينما هو مستحيل من دون تأييد الله.

(**لَــوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعــاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**)

حين هداهم الى توحيده وزكاهم عن الذاتيات ، وبعث إليهم كتابا ورســولا يعتصــمون بحبله عن طريق تطــبيق برامج كتاب الوحدة وتنفيذ أوامر الرسول القائد (ص)

(**إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

سورة الأنفال

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ (64) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَـرِّضِ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتـالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُـوا مِـائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللــهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِـائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْـفٌ يَغْلِبُـوا أَلْفَيْنِ بِـإِذْنِ اللـهِ وَاللـهُ مَـعَ الصَّابِرِينَ (66) ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيـدُونَ عَـرَضَ الـدُّنْيا وَاللـهُ يُرِيـدُ الْآخِرَةَ

---

62 [يخــدعوك] : الخــدع والخديعة إظهــار المحبــوب في الأمر مع المكروه.
66 [خفف] : التخفيف رفع المشقة بالخفة.
67 [عرض الدنيا] : متاع الدنيا.

وَاللـهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ (67) لَـوْ لا كِتـابٌ مِنَ اللـهِ سَـبَقَ لَمَسَّـكُمْ فِيما أَخَـذْتُمْ عَـذابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُـوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (69)

بين القيادة والأمة :

الثقة ، التحريض ، اقتحام الصعاب

هدى من الآيات :

ولا يـزال السـياق يحـرض على القتـال ، ويـبين بعض الجـوانب الاساسـية من الحـرب وأبرزها : الاعتمـاد على الجيش الاسلامي المسلح بالايمان ، ذلك لأنه مع عشــرين مؤمنا صــابرا ينتصر الجيش الاســلامي على مــائتين ، اي عشـرة أضـعافهم ، ومع مائة ينتصـرون على الف جنـدي كافر ، ذلك لأنهم لا يفقهون.

والـرأي السـديد يكسب الحـرب قبل اليد الشـجاعة ، وإذا ضعف المسلمون ــ كما حـدث بعدئذ ــ فـان جيشـهم يغلب ضعف عدوه فالمائة الصابرة تغلب مــائتين ، والالف الصــابرة تغلب ألفين لاهمية الصــبر ، و (**إِنَّ اللــهَ مَــعَ الصَّابِرِينَ**).

ومرة اخرى يذكرنا القرآن بأمرين :

الاول : ان تأييد الله لا يعــني ان يتوقف المســلمون عن التضـحية ، فمن دون وجـود مقاومة مسـلحة لا يكـون للرسول اسرى.

الثاني : يجب الا يكـون هـدف الحـرب الحصـول على مغـانم مادية ، ولو لا ان تقـدير الله كـان انتصـاركم على العدو بالرغم من وجود ثغـرات في أنفسـكم ، مثل الرغبة في عرض الـدنيا إذا مسـكم عـذاب عظيم بسـبب اخـذكم المغانم.

ثم جـــاء الأمر القـــرآني بحليّة المغـــانم ، ولكنه امر بالتقوى وعدم تجاوز الحد في أخذ أو صرف المغانم.

بينات من الآيات :

دور القائد في الحرب :

[64] ان يثق القائد بجيشه ولا يستضعفه : انه شـرط اساسي للنصر ، لذلك امر الله نبيه الاكتفاء بما يملكه من الجيش.

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْـــبُكَ اللـــهُ وَمَنِ اتَّبَعَـــكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

[65] ولكن على القائد ان يرفع أبدا معنويات جيشـه. فـان النقص المـادي في الجيش الرسـالي سـوف يعـوض بالمعنويات المرتفعة.

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ**)

اي ادفعهم نحو القتال.

مظاهر قوة المؤمنين :

(**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ**)

اي عشـرة أضـعاف العـدو ، والقـرآن لم يقل ان يكن واحد يغلب عشـرة ، أو كل فـرد يسـاوي عشـرة افـراد ، ربما لان العشرين بما لديهم من انسجام وتعاون وتلاحم

يقابل المائتين بما فيهم من اختلاف وتناقض.

(**وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُـــوا أَلْفـــاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**)

لا يعرفـون اهمية الايمـان والصـبر ، والتضـحية ابتغـاء الجنة ورضوان الله وسائر القوى المعنوية.

ان المعرفة تشـبه كيانا متكـاملا ، فـاذا أنهـار ركن اساسي منه فتحت ثغـرات واسـعة في كيـان المعرفة .. والايمان بالله وبالقيم ركن شديد في بنـاء العلم أو ليست القيم والمعنويات جزء هام من العالم ، والـذي يكفر بها لا يعـرف العلم على حقيقتـه. أ رايت الأطفـال الـذين لا يحسـنون التلفظ ببعض الأحـرف كالـدال واللام والـراء والسين أنهم يشتبهون في أكـثر الكلمـات ، لان كثـيرا من الكلمـات تحتـوي على هـذه الأحـرف فالـذي يكفر بالله لا يفقه حقيقة العلم لان جـــزء من حقيقة العلم لا أقل هو العبودية والخضوع لله.

[66] حين تكـــون الامة في بداية انطلاقها يكـــون أبناؤها صفوة المجتمع الذين بادروا الى الرسـالة الجديـدة بوعي كاف ، وبإرادة حديدية تتحـدى الضـغوط المحتملة ، بل الواقعية من قبل الاباء والأقـارب والمجتمع والسـلطة. لـذلك فقـدرتهم على الـدفاع كبـيرة ، بالاضـافة الى ان التوجيه مركز بالنسبة إليهم والارادة منضبطة. لـذلك فـان العشرين منهم يعادلون مائتين ، اما بعدئذ فالوضع مختلف إذ يكون الواحد يعادل اثنين فقط وذلك بسبب الضعف.

(**الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ**)

ولم يكلفكم بـالهجوم ما دام عـددكم أقل من نصف العدو.

(**وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً**)

من الناحية المعنوية.

(**فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ**)

فان انتصاركم انئذ ليس حتميا ، بل انما هو بـإذن الله ، ومع تطبيق واجبات الشريعة.

(**وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**)

[67] ولا يمكن أن ننتظر الغنائم والمكاسب من دون تقديم تضحيات ، فلا نبي يحصل على اسرى حتى يثقل الأرض بالقتلى والمجروحين.

(**ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ**)

والثخن والغلظ والكثافة بمعنى واحد.

(**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

اي انكم تريدون المكاسب السريعة بينما الله يريد الاخرة.

[68] ولو لا كتاب ربنا سبق بنصر المؤمنين ، إذا لكانوا يستوجبون عذابا شديدا بسبب تهافتهم على المغانم ، بينما المفروض عليهم وهم امة رسالية ان يكفروا في تبليغ الرسالة ، لا في المكاسب المادية ، وربما المراد من العذاب العظيم هو الهزيمة.

(**لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**)

[69] ولكن حرمة التفكير في المكاسب المادية من وراء الحرب لا تتعارض مع عدالة التشريع الاسلامي فيما يخص غنائم الحرب إذ يجوز الاكل مما غنمه المسلمون

حلالاً طيبا.

(**فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً**)

والاكل غير الامتلاك.

(**وَاتَّقُوا اللهَ**)

فلا تتجاوزوا حدود العرف.

(**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُـلْ لِمَنْ فِي أَيْـدِيكُمْ مِنَ الْأَسْـرى إِنْ يَعْلَمِ اللـهُ فِي قُلُـوبِكُمْ خَيْـراً يُـؤْتِكُمْ خَيْـراً مِمَّا أُخِـذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَـأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهـاجَرُوا وَجاهَـدُوا بِـأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الـدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْـرُ إِلاَّ عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللهُ بِما تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ (72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ

---

72 [آووا] : الإيواء ضم الإنسان غيره إليه بانزاله عنده وتقريبه له.
[ولايتهم] : الولاية عقد النصرة للموافقة في الديانة.

تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ (73) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهــاجَرُوا وَجاهَــدُوا فِي سَــبِيلِ اللـــهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهـاجَرُوا وَجاهَـدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُــوا الْأَرْحــامِ بَعْضُــهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75))

المسلمون امة واحدة

هدى من الآيات :

بمناسبة الحـديث عن الحـرب ، يوجه القـرآن الكـريم خطابه الى الأســرى ويســليهم بشــرط ان تكــون نيتهم حسـنة ، ويحـذرهم إذا كـانوا خونة ، ويـأمر الرسـول بـألا يخشاهم.

ويعود القرآن الى المقـاتلين في سـبيل الله ويقـول : ان الذين آمنـوا وهـاجروا وجاهـدوا هم والـذين اووا هـؤلاء ونصروهم يشكلون امة واحدة ، بعضـهم أوليـاء بعض ، اما الذين لم يهاجروا ولم يلتحقوا بدار الإسـلام فـإنهم لا ولاية لهم .. اللهم الّا في حالة واحـــدة وهي حالة استنصـــاركم ففي تلك الحالة يجب عليكم نصـرتهم إلا إذا كـان حـربهم مع جماعة تربطكم بهم معاهدة.

وكما ان المؤمــنين امة واحـــدة ، فالكفـــار أيضا امة واحــدة ، بعضــهم أوليــاء بعض ، ومن دون القبــول بهــذه الفكرة فان الأرض تعمها فتنة وفساد كبير.

المؤمنون حقا هم الذين هـاجروا والـذين نصـروا ، اما الذين هاجروا من بعد قوة

الإسلام فـإنهم يحسـبون أيضا منكم ، وكل هـذه العلاقـات والروابط الجهادية والرسـالية لا تمنع من وجـود علاقـات اخـــرى هي علاقـــات الـــرحم الـــتي يجب ان تلاحظ هي الاخرى لان الله بكل شيء عليم.

بينات من الآيات :

كيف يوصي الإسلام بالأسرى؟

[70] من أجل اعادة الشخصية المفقودة لدى الأسير الكافر عند المسلمين ويعطيه أملا في المســتقبل ، ولكي يصلح ضميره دون ظاهره يخاطب ربنا نبيه قائلا :

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُـلْ لِمَنْ فِي أَيْـدِيكُمْ مِنَ الْأَسْـرى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْـراً مِمَّا أُخِـذَ مِنْكُمْ**)

فقد أخذ منكم عـــرض الـــدنيا بينما يعطيكم الحيـــاة الحقيقية في الآخـــرة ثم ان الايمـــان الصـــادق والعمل الصــالح في ظل الإســلام ســوف يــوفر لهم تقـدما ماديا ومعنويا كاملا.

(**وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

ولـذلك فخـير لكم إصـلاح نفوسـكم ، وعـدم الاكتفـاء بالتظاهر بالايمان.

[71] اما إذا لم تصلحوا أنفسكم وتنافقون ، فان الله عليم حكيم ، اما الرســول فعليه الا يضــيق عليهم خشــية الخيانة لان الله أوسع علما وحكمة منهم ، وهو ينصـــــرك عليهم وعلى خياناتهم.

(**وَإِنْ يُرِيـدُوا خِيانَتَـكَ فَقَـدْ خـانُوا اللـهَ مِنْ قَبْـلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

فلا يجـــوز الهلع من الأســـرى لان الله الـــذي أمكن الرسول (ص) منهم واخضعهم

للرسـالة ، انه سـبحانه قـادر على ان يمكنك منهم في المستقبل أيضا.

صفات المجتمع الواحد :

[72] المسـلمون امة واحـدة لا فـرق بين قـريبهم وبعيدهم مواطنهم وغريبهم. فالمهـاجرون والأنصـار اخـوة متحابين.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَهـاجَرُوا وَجاهَـدُوا بِـأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**)

وكـان ابـرز مصـاديق هـؤلاء أولئك المسـلمين الـذين هـاجروا من مكة الى المدينـة. ويصـدق أيضا على أبنـاء حركات التحرر الاسلامية وسائر الرساليين الذين يهاجرون من بلادهم التي يسود عليها الطاغوت ليجاهدوا في سبيل الله وينقذوا عباد الله من شر الطاغوت.

(**وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا**)

مثل الأنصار من أهل المدينة وسائر المؤمـنين الـذين يستقبلون المجاهدين ويبذلون لهم كلما يملكـون من مـال وجاه.

(**أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ**)

تربطهم صـلة الايمـان وتجمعهم كلمة التوحيد وتجعل منهم امة واحـدة من دون تـأثير الفـوارق أبـدا ، فلهـؤلاء المهـاجرين الحق في توجيه سياسة البلد المضـيف ، ولأولئك الحق في توجيه سياسة الحركة الرسـالية .. اما أولئك الـذين لا يزالـون في وطنهم المحتل أو المحكـوم بنظـام الطـاغوت فليس لهم الحق في عضـوية الامة الرسالية ، ولكن هـذه الامة تسـعى من أجل إنقـاذهم من براثن الطاغوت.

(**وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يُهـاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ**

(**اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ**)

أي في تحقيق واجبـــــات الـــــدين وقيمه من اقامة الشعائر والتحرر والرفاه.

(**فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**)

لهم ، لأن نصـرة المـؤمن المستضـعف هي من ابـرز واجبــات الامة أو الحركة الرســالية ، وهنا يــبرز ســؤال عريض وملح : كيف إذا تعارضت مصلحة الدولة الرســالية الناشـئة ومصـلحة الجماعـات المسـلمة غـير المهـاجرة والمجاهدة؟ وتعرض كيان هذه الدولة الى الخطر إذا هبت لمســـاعدة أولئك المســـلمين مثلا : مصـــلحة الجماعة الاسلامية في مرحلة صلح الحديبية الا تثير عـداوة قـريش وتحتفظ بمعاهدة السلم الـتي بينهم وبينها ، بينما مصـلحة مسـلمي مكة غـير المهـاجرين نقض هـذه المعاهـدة كيف الحكم في ذلك؟ يقول القرآن :

(**إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ**)

ذلك لان كرامة الدولة والجماعة الناشـئة أعظم وأهم من سلامة المسلمين المتواجدين في البلاد الاخرى.

وقد يســـتنبط من هـــذه الآية : ان مصـــلحة الدولة الاسلامية اخطر من مصلحة الثـورة العالمية للمسـلمين ، إذ الميثـاق الـذي تبرمه الدولة الاسـلامية يجسد مصـالحها قبل كل شــيء ، وعقليا من دون وجــود ركــيزة للثــورة العالمية وهي الدولة الاســلامية كيف يمكن الامتــداد هنا وهناك وصنع الثورة العالمية؟!

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

فعليكم تقييم الأمور بدقة متناهية.

الكفر امة واحدة :

[73] كما ان المؤمنين امة واحدة بالرغم من اختلاف اقاليمهم ولغاتهم وطموحاتهم ، كـذلك الكفـار يجب النظر إليهم كأمة واحـدة ، وعـدم التلاحم والتعـاون مع جهة منها ضد جهة اخرى ، لان حبال الارتبـاط بين هـذه الجهة وتلك امتن من الصـــلة بيننا وبين أحد الطـــرفين ، وفي ســـاعة المواجهة يتفق الجميع ضدنا.

(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ**)

وإذا اختلطت الأوراق وتعــاون المســلمون مع طائفة من الكفــار باعتبــارهم أهــون عــداء من طائفة اخـــرى ، فتحالفوا مع الشرق ضد الغـرب ، أو أوروبا دون امريكا أو ما أشبه فان ذلك يسبب فتنة وفسادا.

(**إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ**)

الفتنة هنا ــ حســبما يبــدو لي ــ النفــاق والضـلالة ، وتشـويش الرؤية وافتقـاد البصـيرة الرسـالية ، مثل تبـدل الثقافة الاصـــيلة والنقية بثقافـــات متناقضة مختلطة ذات أصــول اجنبية ، تماما مثل ثقافة الأحـــزاب السياســية في بلادنا الذين يأخذون افكارا من الغرب والشـرق ، وافكـارا من الدين والتقاليد ويمزجونها ببعضها ليصـــنعوا منها ثقافة غربية غير متجانسة.

وبســـبب الصـــلات الوثيقة الـــتي تربط أبنـــاء الامة الاسلامية بهذا الجانب الكـافر أو ذاك بهـذا السـبب تنتشر بينها مثل هـــذه الثقافة الباطلة ، الـــتي تبعد عن الله وعن الحق ، والتي يسميها القرآن ب (الفتنة).

وهـــــذه الفتنة تنعكس على الواقع الخـــــارجي للامة فتسبب الخلافات الحادة بين أبنــاء الامة المحتفظين بخط الدين الأصيل وبين أولئك الذين تأثروا بالغرب أو

الشـرق ، وفي بعض الأوقـات بين المتـأثرين بـالأجنبي مع بعضهم البعض ، وهـذا أحد مظـاهر الفسـاد الكبـير ، ومن مظاهره عدم القدرة على اتخاذ القرار.

[74] ويجب ان يسـعى المسـلمون نحو إيجـاد علاقة الايمان الحقيقية.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللـهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَـرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**)

[75] المؤمنـــون حقا هم المهـــاجرون اما الـــذين يهـاجرون بعدئذ فهم يعتـبرون من المؤمـنين أيضا بشـرط الجهاد في سبيل الله.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْـدُ وَهـاجَرُوا وَجاهَـدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ**)

ووجـود علاقة الايمـان لا تلغي دور القرابة والعلاقـات الطبيعية التي يهتم بها الإسلام.

(**وَأُولُوا الْأَرْحـامِ بَعْضُـهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتـابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

سورة التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال رسول الله محمد (ص) :

«**ما نزل علي القرآن إلّا آية آية وحرفا حرفا خلا ســورة الــبراءة وقل هو الله أحد فإنهما نزلتا عليّ ومعهما سبعون صف من الملائكة كلٌّ يقول يا محمد استوص بنسية الله خيرا**»

(مجمع البيان ص 2 ج 65)

لماذا تركت التسمية في أولها قراءة وكتابة؟

للعلماء والمفسرين في ذلك أقوال :

1 ـ أنها ضمت الى الأنفال بالمقاربة فصـارتا كسـورة واحـدة إذ الاولى في ذكر العهـود والثانية في رفع العهـود (عن أبي بن كعب).

2 ـ انه لم ينزل (**بِسْمِ اللهِ الـرَّحْمنِ الـرَّحِيمِ**) على رأس سورة البراءة لأن بسم الله للأمان والرحمة ونـزلت براءة لرفع الامان بالسيف.

3 ـ ما روى عن ابن عبـاس انه قـال قلت لعثمـان بن عفـــان ما حملكم على أن عمـــدتم الى بـــراءة وهي من المـئين والى الأنفـال وهي من المثـاني فجعلتموهما في السـبع الطـوال ولم تكتبـوا بينهما (**بِسْـمِ اللـهِ الـرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**) فقال : ان النبي (ص) عند ما تنزل عليه الآيـات فيـــدعو بعض من يكتب له فيقـــول له هـــذه الآيـــات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفـال من أول ما نزل من القرآن بالمدينة وكانت بـراءة من آخر ما نـزل من القرآن وكـانت قصـتها شـبيهة بقصـتها فظننا أنها منها رســـول الله (ص) ولم يـــبين انها منها فوضـــعناهما في الســـبع الطـــوال ولم نكتب بينهما ســـطر (**بِسْـــمِ اللـــهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**) وكانتا تدعيان القرينتين.

الإطار العام

اسم السورة :

ـ بـالرغم من ان الطـابع العـام للسـورة هو الإنـذار الصاعق للمشركين ، فان وجـود آيـات التوبة خصوصا في بداية الســـــورة تفتح بابا عريضا للرحمة في جو الغضب الـرهيب. لـذلك سـميت بسـورة التوبة .. اشـارة الى ان المخرج من الوضع الحرج هو الـذي يجب ان يركز الضـوء عليه ، وقد تسمى هذه السورة بـالبراءة اشـارة الى الجو العام لها.

الإطار العام :

ـ لا يختلف كثـيرا عن اطـار سـورة الأنفـال. حـتى ان بعضـهم رأى ان التوبة امتـداد لسـورة الأنفـال ، ذلك ان السـياق يتحـدث عن ضـرورة هـدم كيـان الشـرك من الأساس ، وبناء الكيان التوحيدي ، واستخدام العنف كـآخر وسـيلة لحسم المواقـف. ولكي يتقبل المجتمع الجهـاد بما فيه من عنف وتضحيات فإنّه بحاجة ..

أولا : الى انفصال نفسي بينه وبين العدو.
ثانيا : الى الاســتعداد للتضــحية ، وجعل التضــحية والشهادة في سبيل الهدف القيمة الأعلى.
ثالثا : تهيئة الوسائل المساعدة للجهاد .. وهــذه بعض الموضـوعات الـتي يتحـدث عنها السـياق ، بالاضـافة الى بيـان اهـداف الجهـاد الانسـانية. حـتى لا يتحـول الى حالة عدوانية شاذة.
ويتحــدث الســياق في الآيــات (58) عن الصــدقات لعلاقتها بالجهـــاد ، ثم يتحـــدث عن المنـــافقين ودورهم التخريــبي في الصــراع .. الآيــات (61) وعن المؤمــنين ووحـدتهم وصـفاتهم المثلى .. الآيـات (71) ثم عن قتـال المنافقين والكفار ، وعن النفاق بعد الايمان الذي يتعـرض له بعض النـــاس .. الآيـــات (75) وعن الـــذين يمنعـــون الصدقات من المنـافقين .. الآيـات (79) أو التقـاعس عن الجهاد أو سائر صـفاتهم الشـاذة .. الآيـات (81) ويتحـدث السياق عن أعذار المنـافقين في الجهـاد وعن اسـتثناءات الجهاد (90) وعن الاعراب المنـافقين منهم والمؤمـنين .. الآيات (97) وعن أهل المدينة .. وفي الاعـراب منـافقون غير معروفين .. الآيات (101).
وان هناك طائفة اعترفوا بذنوبهم ويجب ان تؤخذ من أموالهم صدقات .. زكاة ، وطهارة لهم ، وقبولا لتـوبتهم .. الآيات (102) وبعد الحثّ على العمل يحـدثنا السـياق عن الـذين اتّخـذوا مسـجد الضـرار إرصـادا لمن حـارب الله ورسـوله ، وضـرورة مقاطعة هـذا المسـجد ، والاسـتبدال عنه بمسجد التقوى .. الآيات (105) ولقد اشترى الله من المؤمـنين أنفسـهم وأمـوالهم .. الآيـات (111) وليس بين الكفـار والمؤمـنين ولاء حـتى بالاسـتغفار ، وان الله يتم حجته على عباده ، وان الله يتوب على

من ختم امـره بالجهـاد أو بالتوبة .. الآيـات (113) من هنا يجب على المؤمنين القتال وليعرفوا ان أعمالهم الصـالحة جميعا محسوبة ومجزية خـيرا .. الآيـات (119) ولا بـدّ أن ينفر طائفة للتفقّه والإنـــذار الآية (122) ويجب القتـــال ابتـداء بـأقرب الكفـار .. الآية (123) وحين تـنزل سـورة يستهزئ بها المنافقون الذين في قلوبهم مـرض .. الآيـات (124) والرســول يحب خــيركم ولكن إذا تــولى عنه أحد فحسبه الله .. الآيات (128) ، وهكذا تختتم السورة بذكر القيادة الاسلامية التي تنفّذ تعاليم السماء بشأن الأعـداء ، كما تكرر اسم الكريم في بداية السورة.

سورة التوبة

(بَراءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَـدْتُمْ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (1) فَسِـيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَـةَ أَشْـهُرٍ وَاعْلَمُـوا أَنَّكُمْ غَيْـرُ مُعْجِـزِي اللـهِ وَأَنَّ اللـهَ مُخْـزِي الْكـافِرِينَ (2) وَأَذانٌ مِنَ اللـهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّاسِ يَـوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَـرِ أَنَّ اللـهَ بَـرِيءٌ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْـرُ مُعْجِـزِي اللـهِ وَبَشِّـرِ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِعَـذابٍ أَلِيمٍ (3) إِلاَّ الَّذِينَ عاهَـدْتُمْ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُـوكُمْ شَـيْئاً وَلَمْ يُظـاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَـداً فَـأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4) فَإِذَا انْسَلَخَ

---

1 [براءة] : البراءة انقطاع العصمة.
2 [فسيحوا] : السيح هو السير على مهل.
3 [وأذان] : الاعلام وقيل أن أصله من النداء الذي يسمع بالاذن.
4 [ولم يظـاهروا] : أي لم ينضـموا الى أعـدائكم حـتى يكونـوا ظهـرا (عونا) لهم عليكم.
5 [انسلخ] : الانسلاخ خروج الشيء مما لابسه وأصله من سلخ الشـاة وهو نزع الجلد عنها.

سورة التوبة

الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَـاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَـدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُـدُوا لَهُمْ كُـلَّ مَرْصَـدٍ فَـإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَــبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

الإنذار الأخير لأعداء الرسالة

هدى من الآيات :

لكي يبني الإسلام سورا عاليا حـول المجتمع المسـلم يحصـنه من الشـرك والكفر ، ومن آثـار الضـلالة نفسـيّا وثقافيا واجتماعيا ، تـأتي آيـات الـدرس الاول في هـذه السـورة صـاعقة حاسـمة ، بـراءة من الله ورسـوله الى الذين سكت الإسلام عنهم سابقا بسـبب معاهـدة سـابقة. أما الآن ، فعليهم الاختيار بين الحـرب والإسـلام بعد أربعة أشـهر وليعلمـوا ان قـوتهم المادية لا تقف أمـام قـوة الله وان الخزي يلاحقهم بكفرهم.

وإعلان عام يصدر في موسم الحج الأكبر حيث يتوافد الى بيت الله النـاس من كـلّ مكـان ان الله بـريء من المشركين ، وكذلك رسوله إلّا أن يتوبوا.

والـذين عاهـدهم المسـلمون من المشـركين عهـدا مؤقتا بمدة فان الإسلام يفي بعهده ما داموا وافين به.

أما بعد الأشهر الحـرم الـتي تنتهي بشـهر صـفر فـان الأرض ستطهر منهم إلّا ان

يتوبوا ويؤمنوا ويسلموا لواجبـات الـدين ، فـان الله غفـور رحيم.

بينات من الآيات :

لماذا ألغيت المعاهدات :

[1] بعد ان هيمن الإســلام على شــبه الجزيــرة بفتح عاصــــمتها مكة ، والانتصـــــار على كــــبري القبائل فيها كــالهوازن. بقيت القبائل الصــغيرة الــتي أمّنها الإســلام ولكنها بطبيعة كفرها وشـــركها كـــانت تشـــكل جيـــوب المقاومة ، وتعرقل وحــدة الجزيــرة الادارية ، وكــان من الواجب إنهاء الصراع معها استعدادا للانتقال الى العــالم ، (خارج الجزيرة) لذلك جاءت البراءة ، والغـاء المعاهـدات بين المســـلمين والمشـــركين ، ولكن أعطيت لهم مهلة اربعة أشهر يستعدون خلالها أما للتسـليم أو للحـرب ـ إن شـاؤوا ـ ولكن القـرآن حـذرهم ، ان المقاومة لا تجـديهم نفعا.

(**بَراءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُــولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَـدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)

[2] (**فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَـةَ أَشْـهُرٍ وَاعْلَمُـوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ**)

فلا تســتطيعون تعجــيز الله وســلبه قدرته المطلقة سبحانه ، ولكم الحق في التجـوّل الحر في ارض الجزيـرة لمدة أربعة أشهر.

(**وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ**)

يفشل خططهم ، ويســلب منهم إرادتهم ، ولا يبلغهم أهدافهم.

جاء في الحديث المأثور عن أبي جعفر (عليه الســلام) قـال : خطب علي (عليه السـلام) في النـاس واخـترط سيفه فقال :

«لا يطــوفن بــالبيت عريــان ، ولا يحجن الــبيت مشرك ، ومن كانت له مدة فهو

الى مدته ، ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر»

وكـان خطب يـوم النحر ، وكـانت عشـرون من ذي الحجة ومحـرم وصـفر وشـهر ربيع الأول وعشر من شـهر ربيع الآخر ، و قال :

«**يوم النصر يوم الحج الأكبر**»

ويبدو من هذا الحديث : ان القـرآن انما ألغى العهـود الـتي كـانت مطلقة وقابلة للالغـاء وكـانت تلك شـريعة المتعاهـدين من العـرب. أما العهـود الـتي كـانت لها مـدة معينة ، فانها لم تلغ بهذا القرار.

ومن جهة اخـــرى .. في تلك الســـنة جـــرت بدعة النسيء وتأخير أشهر الحرم عن موعدها المحـدد ، والـتي يتحـدث عنها القـرآن في آية اخـرى ولـذلك حـدد القـرآن العهـود الى أربعة أشـهر وفي آية قادمة ربط الموضـوع بانتهاء الأشهر الحرم .. بينما كان الإعلان في موسم الحج الأكبر والذي كان في أيام الاجتماع الكبير بمنى.

[3] وكرّر القرآن إعلانه العام لكل المشـركين الـذين تربطهم أولا تربطهم مع الجبهة الاسلامية معاهدة.

(**وَأَذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ**)

ويكـــرر كلمة الرســـول هنا لأنه منفذ تعـــاليم الله ، وللاشــارة الى ان القضـية ليست وصـية دينية فقط ، بل هي أيضا حقيقة سياسية جديدة.

(**إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ**)

يوم الاجتماع العظيم في مكة ، بمناسبة الحج في ذي الحجة الحرام. وقد كانت هناك مواسم اخرى أقل اجتماعا من الحج الأكبر ، وقيل أن المراد بالحج الأكبر هو

الموسم الذي اجتمع فيه المؤمنون والمشركون معا ، لأنه بعد تلك السنة لم يحج المشركون أبدا.

(**أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَـإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِـزِي اللهِ**)

ومقاومتكم لا تجديكم شيئا.

(**وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ**)

في الآخرة ، كما في الدنيا.

[4] إلغاء العهود والاحلاف التي كـانت بين المسـلمين والمشركين كان محددا بما يلي

ألف : اما الغائها بســبب نقض المشـــركين لـــروح المعاهدة أو لبنودها.

باء : واما لانتهاء مدة المعاهدة.

جيم : واما لان المعاهدة كـانت أساسا مطلقة ويجـوز لأحد الطرفين الغاؤها بشرط إعطـاء مهلة كافية للطـرف الثاني .. ويبدو ان أكـثر المعاهـدات الـتي كـانت تعقد بين العرب كـانت من هـذا النـوع ، ولـذلك جـاء في هـذه الآية تأكيد على الوفاء بالمعاهدات المحددة بمدة معينة ، والتي لم ينقضها الطرف الآخر ولم يخالف روحها.

(**إِلَّا الَّذِينَ عاهَـــــدْتُمْ مِنَ الْمُشْـــــرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً**)

أي لم يخالفوا بنودها.

(**وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً**)

فلم يخالفوا روح المعاهدة.

(**فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ**)

أي الى انتهاء مدتهم كما فعل الرسول بقوم من بـني كنانة ، وبني ضمرة. كان قد بقي من أجلهم تسـعة أشـهر فـأمر بإتمامها لهم لأنهم لم يظـاهروا على المؤمـنين ولم ينقضوا عهد رسول الله.

وكما فعل مع أهل هجر وأهل البحـــرين وايلة ودومة الجنـدل ، حيث وفي بعهـده معهم الى نهاية حياته [صلّى الله عليه وآله].

(**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**)

الذين يلتزمون بالعهود والمواثيق مع المسلم والكافر والبر والفاجر.

لا لتجديد العهود :

[5] بعد أشـــهر الحـــرم الــتي يحترمها الإســلام إذا احترمها الأعداء. بعدئذ يجب قتل المشركين أينما وجدوا.

(**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُـرُمُ فَـاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**)

والأشهر هي ذو القعـدة وذو الحجة ومحـرم ، وبعـدها يأتي شهر صفر الذي كان آخر مهلة للكفار.

(**وَخُذُوهُمْ**)

أسرى.

(**وَاحْصُرُوهُمْ**)

أي ضــعوهم في محاصــرة قــواتكم لكسر شــوكتهم وهزيمتهم معنويا ، للتقليل من نسبة القتلى.

(**وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**)

أي انشروا حول مواقعهم مراكز الرصد والرقابة حتى تعرفوا تحركاتهم.

(**فَإِنْ تابُوا وَأَقـامُوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الزَّكـاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ**)

دون أن تحققــوا في مــدى صــحة ادعــائهم بــأنهم اسلاميون.

(**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

مع شدة الأمر وعظم المصيبة الـتي امر الله سـبحانه بانزالها بالمشـــركين .. يوضح الســـياق أنّ بابا عريضا قد فتح امامهم وهو باب التوبة. وان الله غفور رحيم بكل من يقبل بولاية الإسلام ويسلم تسليما.

وما ذلك البلاغ الصـارم .. إما الإسـلام أو الحـرب ، ما هو إلّا رحمة للناس أرادها الله لهم.

سورة التوبة

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (6) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَــــرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُــــوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُــونَكُمْ بِــأَفْواهِهِمْ وَتَــأْبى قُلُــوبُهُمْ وَأَكْثَــرُهُمْ فاسِقُونَ (8) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللـهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً فَصَـدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (9) لا يَرْقُبُونَ فِي مُــؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَــدُونَ (10) فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11)

خيانة المشركين

وراء إلغاء المعاهدة

هدى من الآيات :

بـالرغم من إعلان الحـرب ضد الشـرك ، فـان ذلك لا يعني الغدر بهم بل إذا استجار بالرسـول أحد منهم ، فـان الإسلام يعطيه الامان ، لفترة البحث عن صـحة الإسـلام ، ثم إذا لم يقتنع يعـاد الى مأمنه سـالما. وعموما الإسـلام يفي بعهـده مع المشـركين ما دامـوا ملـتزمين به ، ومن دون عهد يشن عليهم حربا وقائية لأنهم بمجـــرد قـــوتهم يقـاومون الإسـلام بكل جهـدهم دون أن يـردعهم قسم سابق أو عهد ، يقولون كلاما حلوا وقلوبهم مليئة بـالرفض ولا يلتزمون بقيمة.

أو ليسوا هم الذين بـاعوا دينهم بثمن بخس ، ومنعـوا سبيل الخير ، وعملوا كلّ عمل سوء ، أو ليسوا هم الـذين سحقوا حقـوق المؤمـنين دون أن يـردعهم عهد أو حلف ، واعتدوا عليهم.

أجل لو انهم تابوا وأقـاموا الصـلاة وآتـوا الزكـاة فـان الصـراع ليس شخصـيا معهم ولا عنصـريا فلـذلك سـوف يصبحون إخوانا للمؤمنين.

ان هذا الدرس والذي يـأتي يرسم خريطة التعامل مع المشركين كما يكشف خلفيات أنفسهم وسلوكهم.

بينات من الآيات :

إبلاغ الرسالة :

[6] الهدف الاساسي للصراع مع المشـركين هو إبلاغ الرسـالة إليهم ، والطلب الوحيد منهم هو اسـتماعهم لها من دون حجاب أو عقدة مسـبقة. لـذلك لو طلب أحد من المشركين الامان حتى يأتي الى الديار الاسلامية ويسـتمع من قرب الى تعاليم الرسالة ، فان الإسلام يؤمّن له طلبه ، لان كثـيرا منهم يحـارب الإسـلام من دون وعي ولا يعلم بحقيقة الرسـالة ، ثم ان لم يقتنع لا يغـدر به بل يبلغه مأمنه بكل اعتزاز.

(**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ**)

أي طلب الحماية ، وكـانت تلك عـادة عربية عريقة ، ان الواحد منهم يطلب من رئيس القبيلة المنيعة الجـانب الحماية ، فتعطى له ويحفظ خلال فترة الاستجارة.

(**فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**)

لمـاذا يعطى للمشـرك الحماية بـالرغم من حربه مع الإسلام؟ لان المشركين لا يعلمون الحقيقة.

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ**)

وهكـذا تـرى الإسـلام لا ينسى رسـالته في زحمة الصـراع السياسي ، كما يؤكد على دور الاعلام الأمين في الصراع. ان علينا الا نعتبر الأعداء كتلة صخرية لا تتفتت.

بل هم بشر وجهلة ، يــؤثر فيهم الحــديث ويبلغ قلــوبهم الهدى المبين ويقلل الاعلام من حجم الخسارة.

[7] ما هي خلفية سلوك المشركين عموما؟

انهم لا يلــتزمون بقيمة ســامية لــذلك لا عهد لهم ولا ذمة ، إلاّ أولئك الذين عاهدهم المسلمون فيلتزمون بــذلك العهد ، ما دام المشركون يلتزمون بشروطهم.

(**كَيْـفَ يَكُـونُ لِلْمُشْـرِكِينَ عَهْـدٌ عِنْـدَ اللـهِ وَعِنْـدَ رَسُولِهِ**)

وفي الآية التالية يبين القرآن سبب هــذا الحكم ، وهو إســقاط احـــترام المشـــركين ، أما هنا فهو يســـتثني المعاهدين.

(**إِلَّا الَّذِينَ عاهَـدْتُمْ عِنْـدَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ فَمَا اسْـــتَقامُوا لَكُمْ فَاسْـــتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللـــهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**)

أي الذين يلـتزمون بمـواثيقهم وعهـودهم مع النـاس ، حــتى ولو لم يكونــوا مســلمين. وتــدل الآية على ان من شروط التقوى الوفاء بالعهد مع المسلم والكافر.

المشركون المعاهدون :

[8] إذا امتلك المشركون القـوة ، وغلبـوا المسـلمين فهل سيراعون لهم عهدا أو حلفا ، وهل يحترمون دماءهم وأموالهم؟ كلا ..

(**كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُـوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً**)

أيّ حلفا ولا عهدا.

أما الآن فهم يتظـــــاهرون بالتمسك بحسن المعاملة واحترام حقوق الآخرين.

(**يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ**)
بكلماتهم الفارغة التي لا تتعدى اللسان.
(**وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ**)
وترفض نفوسهم الالتزام بما وراء هذه الكلمات.
(**وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ**)
غير ملتزمين أساسا بعهد أو قيمة.
[9] وهل يتمسك بالقيمة من يبيع دينه بثمن بخس.
(**اشْتَرَوْا بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً**)
ومهما يكن الثمن الـــذي يعطى في مقابل الالـــتزام بالقيمة المعنوية فانه قليـــل. إذ ان شخصـــية الإنســـان وكرامته وحتى مدنيته انما هي بمعنوياته ، وبمــدى التزامه بقيمه في الحياة. انظر كيف انهم حين باعوا دينهم أخــذوا يصدّون عن سبيل الله ، ويمنعون كلّ عمل الخير!!
(**فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)
[10] انهم لا يعتنـــون بحقـــوق النـــاس وخصوصا المؤمنين.
(**لا يَرْقُبُــونَ فِي مُــؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ**)
أولا ، واما معاملة المسلمين معهم فهي ردّ الاعتــداء. كما هو الحال اليوم بين الامة الاسلامية المطالبة بحقوقها المهتضمة ، وبين الطواغيت في الأرض ، الذين

يطالبون أبدا بـاحترام القـوانين الجـائزة المفروضة علينـا. بينما هم لا يعتنون بأبسط حقوقنا ويعتـدون علينا ، ولـذلك فنحن لا ننظر الى كـــــلّ واقعة .. واقعة مجـــــــردة عن التسلسل التاريخي للاحداث ، بل علينا أن نحـدد سياسـتنا معهم على ضـــوء مجمل معـــاملتهم معنا ، ونـــوع العلاقة القائمة التي تحكمنا وإياهم.

التوبة باب الرحمة الالهية :

ـ [11] أمام هؤلاء المشركين بـاب عـريض من التوبة وإصلاح أنفسهم ، وآنئذٍ يصبحون اخوة لنا.

(**فَـإِنْ تـــابُوا وَأَقـــامُوا الصَّـــلاةَ وَآتَـــوُا الزَّكـــاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ**)

لا فرق بينكم وبينهم أبدا. لان الإسلام يرفض الفوارق العرقية والعشـــائرية أو الاقليمية ، وكـــذلك لا يعـــترف بالاسبقية الايمانية. بمعنى سيطرة السابقين من المؤمنين قديما على اللاحقين جديدي الايمان. بل يعترف بالاسـبقية في حـدود ضـيقة يعطيهم اولوية الثقة والاحـترام فقط .. وفيما وراء ذلك فهم اخوة متساوون أمام الله والشريعة.

(**وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)

ويفهمـــون الفـــرق بين الأحكـــام الـــتي شـــرعت للموضوعات المختلفة.

وَإِنْ نَكَثُـوا أَيْمـانَهُمْ مِنْ بَعْـدِ عَهْـدِهِمْ وَطَعَنُـوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْـرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمـانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُـونَ (12) أَ لا تُقـاتِلُونَ قَوْمـاً نَكَثُـوا أَيْمـانَهُمْ وَهَمُّوا بِـإِخْراجِ الرَّسُـولِ وَهُمْ بَـدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَـوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (13) قـاتِلُوهُمْ يُعَـذِّبْهُمُ اللـهُ بِأَيْـدِيكُمْ وَيُخْـزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُـدُورَ قَـوْمٍ مُـؤْمِنِينَ (14) وَيُـذْهِبْ غَيْـظَ قُلُـوبِهِمْ وَيَتُـوبُ اللـهُ عَلى مَنْ يَشـاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15)

حكم الذين ينكثون أيمانهم

هدى من الآيات :

ما هو الموقف الاسلامي من المشركين الذين نقضوا العهد ، وخانوا أيمانهم؟

الموقف هو القتال الموجه ضد قياداتهم التي لا تلتزم بعهد ولا يمين وذلك بهدف إيقـافهم عند حـدهم ، وأسـباب القتال هي :

أولا : نكث اليمين ، وعدم الالتزام به.

ثانيا : محاولة إخراج الرسول.

ثالثا : انهم البــــادون بالاعتـــــداء ، وعلينا ألّا نخشى بطشهم. بل نخاف الله ونخشى عقابه ما دمنا مؤمنين به.

والله يعذب الكفـار ، ولكن بأيـدي المسـلمين ، وحين يكـــافح المســـلمون أعـــداءهم فالله ينصـــرهم ويخـــزي الكافرين ، ويزكي قلوب المؤمنين ، ويدخل فيها الفرح

والبشاشة ، وقد كـــانت ســـابقا مليئة بالغضب والغيظ ، والذين اكتسبوا إثما أو ذنبا ، تكـون الحـرب مطهـرة لهم ، لان الله يتوب على من يشاء من عباده.

وتدخل هذه الآيات ضمن اطار السورة في التحــريض على قتال المشركين وبيان سبب القتال وأهدافه.

بيّنات من الآيات :

(**فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ**)

[12] الناكثة هي الفرقة الضالة ، التي تقاوم الرسالة بعد التعهد بالتسليم لها ، وعدم الاعتداء عليها ، وقد تكـون هــذه الفرقة من المشــركين أو من المســلمين ظــاهرا ، والقرآن يأمرنا بقتالهم بصراحة بالغة.

(**وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ**)

اليمين الـــذي يعطيه فريق من أنفســـهم لفريق آخر يعتبر نوعا من العهد الاجتماعي ، أو بالأحرى يعتــبر تأكيــدا دينيا على عهد اجتمــاعي لــذلك نجد القــرآن يمــزج بين اليمين والعهد.

(**وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ**)

لكي يــبرر هــذا الفريق نقضــهم للعهد يطعنــون في الــدين وتعاليمه وبنــوده ، ويعتــبرون تلك التعــاليم مخالفة لمصالحهم أو لحريتهم وكرامتهم.

(**فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ**)

عادة يكون الفريق الناكث ملتفا حول قيادة شيطانية. ذات خطط ماكرة. لا تكشف عن نفسها. لــذلك يجب على الأمة البحث عن تلك القيادات ومحاربتها وإلّا

فان إراقة دماء اتباعهم تزيد تلك القيادات قوة اجتماعية ، ويكرس سيطرتهم الباطلة على أتباعهم المضللين.

والواقع ان تلك القيادات لا يمكن انتظـار الوفـاء منها لأنها بنت حركتها على ضـــرب القيم السـائدة ومقاومة المقـاييس الاجتماعية ، ولـذلك تجـدها تكـثر من الحلف وإعطاء العهد مع عزم مسبق على مخالفتها.

(**إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ**)

ولكن يجب ألّا يتحـول قتـال النـاكثين من أجل إشـباع شـهوة الانتقـام ، فيصـبح اعتـداء محرما على كـرامتهم البشـرية. بل يكـون فقط بهـدف إيقـافهم عند حـدهم ، واعادتهم الى شـرعية القيم الاسـلامية حـتى يصـبحوا كما غيرهم من الناس لهم حريتهم وكرامتهم وحقوقهم. لـذلك أكدّ ربنا سبحانه على هذه الحقيقة قائلا :

(**لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ**)

أيّ يمسـكون أيـديهم عن نقض العهد والطعن في الدين.

[13] واما العوامل الـتي تـدفعنا الى قتـال النـاكثين فتتجسد في :

أولا : نكثهم لليمين ، ونقضـهم لعهـدهم السياسي مع المجتمع المسلم ، وبالتالي مخالفتهم للنظام الاجتمـاعي ، ذلك العهد الـذي يقدمه المـواطن المسـلم عن طريق البيعة ويقدمه الـذمي (كـاليهود في المدينة) في صـيغة معاهـدات ثنائية بينهم وبين القيـادة ، وإذا نكث فريق عهـدهم فـان المجتمع المسـلم يفقد حصـانته ، وبالتـالي يخشى ان يتحلل الآخرون من عهودهم والتزاماتهم فينهـار المجتمع تماما لذلك قال ربنا :

(**أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ**)

ثانيا : مقاوتهم للنظام السياسي ومحـاولتهم إسـقاط حكومة الإسـلام عن طريق محـاربتهم للقيـادة الشـرعية المتمثلة في الرسول أو الامام.

(**وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ**)

ثالثا : انهم المعتدون أولا ، والبادي بالظلم أظلم.

(**وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**)

وعـادة يتـوجس النـاس الخـوف من النـاكثين ، ولكن الله يحرّض عليهم ويقول :

(**أَ تَخْشَـوْنَهُمْ فَاللـهُ أَحَـقُّ أَنْ تَخْشَـوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

إذا ترك الإنسان مبادءه وقيمه ، وتسـاهل في عهـوده مع النـــاس ، فـــأي شـــيء يبقى له بعدئذ حـــتى يحسب مؤمنا؟!

[14] ان نتيجة القتال معروفة عند الله سلفا ، وهي :

أولا : ان الله سوف يعذب الكفار بايدي المؤمنين.

(**قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ**)

وهذا يعـني ان بعضا من أقـدارِ الله يجريها عن طريق المســلمين ، فعليهم ان يســعوا ، والله يســدد خطــاهم ويـــوفقهم ، ولا يجـــوز لهم التواكل والكسل باسم التوكل على الله.

ثانيا : ان عزتهم بـالإثم وغـرورهم وكبريـاءهم سـوف تتحطم على صخرة الاستقامة الاسلامية.

(**وَيُخْزِهِمْ**)

وبالنسبة الى الناكثين يعتبر كسر شـوكتهم الاجتماعية ضربة قاضية لهم ، وإنهاء لمشكلتهم.

ثالثا : ان الله ينصر المؤمـــنين عليهم ويثلج قلـــوبهم بالنصر.

(**وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ**)

وهم الأكثر حماسا للقيم ، أو الأكثر تضررا من خــروج الناكثين على الدولة.

[15] رابعا : ان القتــال يحل العقد النفســية الــتي تتراكم في قلـوب المؤمـنين بسـبب خـروج النـاكثين على الدولة.

(**وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ**)

فيســتعدون للبنــاء والتقــدم الحضــاري ، ومحاربة أعدائهم التقليديين.

خامسا : ان بعض المســلمين يتــأثرون بــدعايات النــاكثين ، أو يتكاســلون في البــدء عن مقــاومتهم ، فيصــــلحون بالقتــــال والنصر ، كما ان البعض منهم قد احتملوا ذنوبا كبيرة وصغيرة وبسبب الجهاد في سبيل الله يغفر الله لهم ذنوبهم.

(**وَيَتُوبُ اللهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

ولـذلك لا يمكن أن يتكل أحد على الجهـاد في سـبيل الله فقط ويقــول لنفسه انــني أذنب ثم أجاهد فيغفر الله لي ، كلا فالله عليم حكيم ، لا يغفر لكلّ مذنب انما الــذين يعملون الذنب بجهالة ثم يستغفرون.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (16) ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (17) إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18) أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19) الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ

بِرَحْمَةٍ مِنْـهُ وَرِضْـوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)

المجاهدون أعظم درجة عند الله

هدى من الآيات :

في سياق الحديث القرآني حول الجهاد المقــدس من أجل تحقيق القيم السامية يــبين هــذا الــدرس جــوانب من خلفية الجهاد النفسية :

فأولا : الجهاد مدرسة لتربية المسلم ، وتمييز المؤمن الصادق عن الضعيف والمنافق.

ثانيا : المظــاهر الدينية الــتي يتوسل بها الكفــار مثل عمـــارة المســـاجد غـــير مقبولة عند الله وهي تحبط ولا تنفعهم شــيئا في الآخــرة. حيث يخلــدون في النــار ، وان العمارة الحقيقية للمساجد ، انما هي بإقامة الصلاة وإيتــاء الزكاة ، وخشية الله ، وليس سواء القيــام ببعض الأعمــال الظاهرية ، والتي قد يداخلها الرياء أو طلب الســمعة مثل عمارة المسجد الحرام ، وسقاية الحاج ، ليس ســواء ذلك والايمـــان الحقيقي بالله وبرســـالاته ، وعند الله الايمـــان والجهــاد في ســبيله بالمــال والنفس أعظم ثوابا من بنــاء المساجد ، والله يبشر المؤمنين الصادقين برحمة منه في الدنيا ورضوان في الآخرة ،

وجنات فيها نعيم مقيم.

بينات من الآيات :

الايمان الصادق :

[16] الايمــان ليس بــالتمني ، ولكنه بصــدق العمل وتحدي الصعاب في سبيل الحق ، والذي يجعل الايمـان ذا مصداق واقعي هو الجهاد ، وبذل منتهى الوسع في سـبيل تحقيق أهداف الايمان.

(**أَمْ حَسِــبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُــوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللــهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ**)

والله ســبحانه ســوف يبتلي المؤمــنين بصــعوبات ويـأمرهم بتحـديها بالجهـاد ، وهنـاك شـرط آخر لصـدق الايمــان يتحقق بــالولاء الخــالص لجبهة الحق ، وعــدم السقوط في ولاءات باطلة ومتداخلة.

(**وَلَمْ يَتَّخِــذُوا مِنْ دُونِ اللـــهِ وَلا رَسُـــولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً**)

أي وسيلة ودخيلة ، وبالتالي انتماء.

(**وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**)

العمل الصالح جوهر لا مظهر :

[17] ولان الهوية الاســلامية لا تتحقق إلّا بــإخلاص الولاء لله وللقيادة الرسالية وللمجتمع المسلم ، فـان هـذا هو المعيـار الـذي يحـدد المـؤمن والكـافر أما الأعمـال الظاهرية مثل عمــارة المســاجد ، فانها ليس لا تنفعهم فقط بل وتضرهم أيضا. إذ تصبح شاهدة عليهم.

(**ما كـانَ لِلْمُشْـرِكِينَ أَنْ يَعْمُـرُوا مَسـاجِدَ اللـهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ**)

لان المسـجد هو محـراب المـؤمن الـذي يحـدد هوية المجتمع المسلم وقيادته المتمثلة في الرسول وأوليائه. لا أوليـاء الشـيطان من أنصـار الطـاغوت ، وعبـدة الأصـنام الحجرية والبشرية.

(**أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ**)

لان العمل الذي لا يستند الى قاعدة صـلبة من الرؤية السـليمة والايمـان المهيمن. انه يسـقط كما شـجرة بلا جذور ، وكما بناء بلا أساس.

(**وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ**)

[18] عمـارة المسـجد لا تتم بوضع حجر فـوق حجر ، بل بتنفيذ كل الواجبات الدينية التي تجعل المسجد المبني معمـــورا حقيقة ، وذلك بالايمـــان بالله واليـــوم الآخر ، وبالصلاة لله وإيتاء الزكاة ، وبمقاومة الضغوط الـتي تـأتي من القــوى السياســية والاجتماعية وتحــاول تركيع البشر ودفعه باتجاه التسليم للطاغوت.

(**إِنَّما يَعْمُـرُ مَسـاجِدَ اللـهِ مَنْ آمَنَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ**)

فالخشـية من غـير الله تـدفع البشر نحو التسـليم له عمليا وهو الشرك.

وإذا توفرت هذه الشـروط كاملة فـان جـوهر الصـلاح والفلاح وهو الوصول الى الحقيقة يتحقق.

(**فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**)

وربما كان تعبير القرآن ب (عسى) هنا أو ب (لعـلّ) في موضع آخر ، للدلالة على عــدم الركــون الى مظــاهر الأمـــــور ، والســــكون عند حد معين من العمل ، أو من تحقيق شـــــروط الهداية بل يجب العمل بجد ومثـــــابرة والخشية من ألّا يكون مقـدار العمل كافيا لتحقيق الهـدف المنشود كما الإنسان الذي يخشى موت ابنه من المـرض. كيف يـــوفر كل الوســـائل ، ولكنه يظل يبحث عن المزيد من وسائل العلاج خشية الا يكون ما هيأه كافيا.

والعمل الصـالح يزيد الهـدى والعكس صـحيح ، إذ ان الظلم يحجب العقل ، ويمنع البشر من الهداية كما يـــأتي في الآية القادمة.

[19] الأعمـال الظاهرية ليست كالأعمـال الجذرية .. فليست سقاية الحـاج وتعمـير المسـجد الحـرام كالايمـان بالله واليـوم الآخر ، والجهـاد في سـبيل الله لأن الكـافر والمنافق والفاجر قد يقـوم بمثل هـذه الأعمـال الظاهرية التي قد يتستر وراءها للقيام بالأعمال الشاذة.

(**أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**)

و قد جـاء في الحـديث : قيل : ان عليا قـال للعبـاس «يا عمّ ألا تهاجر. ألا تلحق برسول الله؟!» فقال : أ لست في أعظم من الهجـرة. اعمّر المسـجد الحـرام ، واسـقي حاج بيت الله فنزل : «**أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحـاجِّ وَعِمـارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**» [1]

(**وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ**)

(1) تفسير نور الثقلين ج 2 / 194.

ان الجهاد هو ذلك المقياس الذي لا يخطأ إذا كان في اطـــار الايمـــان لأنه تحد للشـــهوات والأهـــواء ومقاومة للطـاغوت ، وبلـورة للارادة. وكثـير أولئك الـذين يـبررون تقاعسـهم عن الايمـان والجهـاد وعما يتطلبه الجهـاد من مســاع وتضـحيات. يبرونه ببعض الأعمــال الظاهرية ذات اللافتة العريضة ، والخواء الواقعي مثل طبع نسخ القــرآن وتفاســيره وكتب الــتراث ، واجــراء الحــدود الامنية على المستضعفين مثلما السلطات الطاغوتية التي كلما تخالف نصوص الدين في منح الحرية والرفاه والمساواة تزيد من ترديد الشـعارات البراقة ، وتسـمية الشـوارع والمـدارس باسم الحرية والرفــــاه والمســــاواة ، أو تزيد من رواتب علماء الـدين وبنـاء المعاهد الدينية ، وكلما تخـالف تعـاليم الإســلام في التحــرر والاســتقلال والديمقراطية تزيد من تنفيذ تعاليم الدين في جلد الزاني واعتقال شارب الخمر ، ومكافحة ما يسمى في عرفهم بالارهاب والجريمة.

وكما يصـنعه الطـاغوت ، يفعله التجـار الكبـار الـذين يتحالفون مع الحكام الظلمة ، ويمتصون دماء المحـرومين ، ولكن يقـــدمون فتـــات موائـــدهم للفقـــراء ، ويبنـــون مستشفى أو مستوصف أو يعبّـدون طريقا ، أو ما أشـبه ، في الــوقت الــذي يــتركون الشــعب وحــده في مواجهة السلطات الطاغوتية ، أو المستعمر الغاشم.

وهكذا نجد العباس بن عبد المطلب عم الرســول بعد ان أسر في حرب بدر ، واقبل عليه أناس من المهــاجرين والأنصار وعيّروه بالكفر وقطيعة الـرحم نجـده يـبرر عمله قائلا : ما لكم تذكرون مساوءنا ، وتكتمون محاسـننا قـالوا : وهل لكم من محاسن قال : نعم ، والله لنعمر المســجد الحرام ، ونحجب الكعبة ونفك العاني (أي الأسير) فـأنزل الله تعالى : «(**ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا**) ...».

وكلمة أخـــــيرة : ان كل واحد منا يمكن ان يصـــــبح طاغوتا أو متحالفا مع الطــاغوت ، ويبتلى بخــداع ذاتي لا يقدّره الله ولا الضمير ولا التاريخ ، فعلينا ان

نتمسك بمقياس دقيق لكي نمنع عن أنفسنا مرض الخداع الذاتي ، ذلك المقياس هو الجهاد ففي اللحظة التي تشعر انك تسترخي وتترك مقاومة الانحراف فقد استسلمت وخارت أرادتك ، ويمكن ان تنتهي واقعيا ودون ان تشعر بذلك لأن الهداية تتأثر بعمل الإنسان وتصميمه ومشيئته ، فالظالم لا يهتدي ، لذلك أكدّ القرآن في نهاية الآية :

(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

فالظالمون قد تورطوا في الضلالة وهم يحسبون انهم مهتدون ، والله يدعهم لأنفسهم ويتركهم لشأنهم.

[20] في المقياس الاسلامي يعطى الجهاد الأولوية ، ثم تترتب سائر الأعمال الخيرية مثل : عمارة المساجد ، وبناء المدن ، لان أهم شيء عند الإنسان هو تحرره عن التسلط السياسي والاستغلال الاقتصادي ، وبناء المؤسسة الاجتماعية الصالحة ، وبعدئذ يأتي دور الاعمار.

(**الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**)

من أجل إقامة حكومة الله في الأرض. حكومة الحرية والعدالة والاستقلال. هؤلاء

(**أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ**)

من سائر من يقومون بالخدمات الاجتماعية ، أعظم من الباحثين في المختبرات ، والاساتذة في الجامعات والعمال في المصانع والفلاحين في الحقول ، والوعّاظ في المساجد لان النظام السياسي والاقتصادي الفاسد يذهب بخيرات كل أولئك ، وربما يستغل كل تلك المكاسب من أجل تدعيم سلطة الطاغوت ، وتكريس ظلمه وفساده

فمثلا : قد تجد كلّ جامعات الولايات المتحدة تبحث لتقدم اطروحة علمية في الفيزيـاء أو الكيميـاء ، ويقـوم العمـال الخبراء في كثير من المصـانع بتحويل الاطروحة الى واقع وتصنع سلاحا فتاكا يهدم حقول ومصانع الشعب الفيتنامي ، وحتى الوعـاظ في كنـائس امريكا قد يتحولـون في ظل نظام التسلط الرأسمالي الى خدم بسطاء لاسـتراتيجيات البنتاغون ، فيدعمون سياسة التجنيد من أجل الحـرب ضد الشعب الفيتنامي.

إذا أولئك المجاهـدون الـذين يهـدفون تغيـير النظـام الفاسد ، وتحرير الإنسـان من عبودية الرأسـمال أو التسلط ، أولئك أعظم درجة عند الله من سائر الناس.

(**وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ**)

[21] ولاهمية هـذا العمل ، ولخطورته البالغة على حياتهم ولتضحياتهم الكبيرة في هذا السـبيل فانه لا يقـدم عليه الا المخلصون حقا الذين لا يحسبون لأنفسهم حسـابا وانما يهـدفون فقط خدمة النـاس ، وابتغـاء مرضـاة ربهم لذلك كان جزاؤهم عظيما.

(**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ**)

ومن مظاهر الرحمة إسـقاط الطـاغوت واسـتخلافه ، والوصول الى سدة الحكم من أجل القيـام بخـدمات أكـبر مما سبق.

أما الرضوان فهو تيسير أمورهم من عند الله ، وبلوغ حالة الطمأنينة والسكينة ، هذا في الدنيا.

(**وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ**)

دائم ولا يخشى زواله.

[22] (**خالِـدِينَ فِيها أَبَـداً إِنَّ اللـهَ عِنْـدَهُ أَجْـرٌ عَظِيمٌ**)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِيـاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْـرَ عَلَى الْإِيمـانِ وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُـلْ إِنْ كـانَ آبـاؤُكُمْ وَأَبْنـاؤُكُمْ وَإِخْـوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِـيرَتُكُمْ وَأَمْـوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجـارَةٌ تَخْشَـوْنَ كَسـادَها وَمَسـاكِنُ تَرْضَـوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللـهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهـادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللـهُ لا يَهْـدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (24) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ

---

24 [اقترفتموها] : الاقتراف اقتطـاع الشـيء من مكانه الى غـيره من قرفت القرحة إذا قشرتها والقرف هو القشر.

[فتربصوا] : التربص التشبه في الشيء حتى يجيء وقته.

25 [رحبت] : الرحب السعة في المكان.

بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُـــدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْــزَلَ اللــهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُـؤْمِنِينَ وَأَنْـزَلَ جُنُـوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (26) ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشـاءُ وَاللـهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27)

الجهاد ذروة أولويات المؤمن

هدى من الآيات :

لكي تسـتعد الأمة للصـراع ، لا بـدّ ان يخلص انتمـاء أبنائها إليها باعتبارها تجمعا مبـدئيا ، وإلّا يتخـذوا أقـاربهم أولياء إن فضلوا الكفر على الايمان. ذلك لان أي خلل في الانتمـاء يبعث خللا في الايمـان ، فلو كـان الأب أو الأخ أو الزوج أو العشيرة أو المال والتجارة أو المسكن أحب الى الفـرد من إيمانه بالله ورسـوله ، ومن جهـاده في سـبيل الله ، فلا بـدّ أن ينتظر أمر الله الـذي لا يحمل بالتأكيد في طيّه الهداية والفلاح للظالمين والفاسقين.

وكمثل على هذا الخلل واثره السلبي على الصراع ما جرى في يوم حنين. إذ كـان اعتمـاد الجيش على كـثرتهم الـتي غـرتهم لا على الايمـان ، فلم تغـني عنهم من الله شيئا. إذ انهزم الجيش وضاقت عليهم الأرض على سـعتها ، ولكنّ الله أنـزل سـكينته على الرسـول والمؤمـنين فاطمأنت قلوبهم ، وانزل جنودا من عنده فهزمـوا الكفـار وعذّبوا عذابا شديدا.

بيد ان الهزيمة كانت تجربة صاغت نفسية المسـلمين فتـاب بعضـهم ، فتـاب الله عليهم ، (**وَكانَ اللـهُ غَفُـوراً رَحِيماً**).

ان هــذا الــدرس يحــدد بعض الشــروط الاجتماعية للجهـاد بينما حـدد الـدرس السـابق بعضا من شـروطه النفسية والثقافية.

بينات من الآيات :

المجاهد يتحدى الضغوط الاجتماعية :

[23] الــولاء في المجتمع المســلم يجب أن يكــون للعقيدة قبل أيّ شـيء آخر ، فحـتى الـولاء العـائلي الـذي يحبه الإسلام ويعتبر الأسرة الوحدة الاجتماعية الضرورية ، يجب أن يكون في اطار الولاء الايماني لا منافسا له.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِـذُوا آبـاءَكُمْ وَإِخْـوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ**)

وقد كـان هـذا الانتمـاء الرسـالي الخـالص سـببا في انتصـار الرسـالة في عصر الرسـول ، يقـول الامـام علي (عليه السلام) :

«**ولقد كنّا مع رســول الله نقتل آباءنا .. وأبناءنا .. وإخواننا .. وأعمامنا .. ما يزيــــــدنا ذلك إلّا إيمانا وتسـليما ، ومضـيّا على اللقم ، وصـبرا على مضض الألم ، وجـــدّا على جهـــاد العـــدو .. فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر**» [1]

وإذا عرفنا مدى أهمية الاسرة في الحياة العربية قبل الإسلام ، نعرف مدى

---

(1) نهج البلاغة / خ 56 / 91 صبحي الصالح

الخلوص الرسالي الذي بلغه المسـلمون ذلك اليـوم حـتى حققوا الانتصار الكبير.

و قد عبّر الامـام أبو جعفر (عليه السـلام) ، عن هـذا الخلوص الرسالي ، بقوله :

«(**لَمْ يَتَّخِـــذُوا مِنْ دُونِ اللـــهِ وَلا رَسُـــولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَـةً**) فلا تكونـوا مؤمـنين فـان كـلّ سـبب ونسب وقرابة ووليجة بدعة وشـــــبهة منقطع إلّا ما أثبته القرآن» [1]

ان كـلّ ولاء يجب أن يكـون في إطـار قيم الإسـلام ، وإلّا فان الانتماء الاسلامي يكون ضعيفا أو مرفوضا.

(**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)

[24] ليس الـولاء الاسـري فقط حـاجزا دون الـولاء الرسالي ، بل كل صلة تقف حاجزا أمام العلاقة الاسلامية يجب فكها وجعلها صلة ثانوية.

(**قُــلْ إِنْ كــانَ آبــاؤُكُمْ وَأَبْنــاؤُكُمْ وَإِخْــوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِـيرَتُكُمْ وَأَمْـوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجـارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسـادَها وَمَسـاكِنُ تَرْضَـوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ**)

أي من الولاء الخالص لله وللقيادة الرسـالية المتمثلة بالرسـول في عهـده ، وبخلفائه من بعـده ، وهـذا الـولاء يتجسد عمليا في الجهـاد وهو بـذل كلّما يسـتطيعه المـرء في سبيل تحقيق أهداف الرسالة ، لـذلك خصصه القـرآن بالذكر قائلا :

(**وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا**)

وانتظروا فان هذا المجتمع الراكع للضغوط ليس أبـدا مجتمعا رساليا ، بل ولا

(1) تفسير نور الثقلين ج 2 / 192

مجتمع مسلم حقا ، ولذلك لا بدّ من انتظار الكارثة.

(**حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**)

وقد تكـــون الكارثة المتمثلة في الخلافـــات الداخلية الـــــتي تنتهي الى الصـــــــراعات الجانبية المنطلقة من المحوريات الذاتية التي تمنع تكون المجتمع الموحّد ، ومن الحزبيات الضيقة التي تفتت الوحدة السياسـية الرصـينة ، ومن الوطنيات الزائفة التي تحطم كيان الامة ، الواحـدة ، ذات القيادة الرسالية.

وكلما ضـعفت الامة كلما خسـرت معاركها الحضـارية مع التخلف أو مع الأمم المنافسة كما نرى اليوم في الامة الاسلامية التي بالرغم من عدد ابنائها البالغ الالف مليون ، فان المحوريـات الذاتية تمنع من تكـون الوحـدة التنظيمية الرسالية ، وبالتالي من تكون الوحـدات السياسـية الفعّالة ، فعندنا ليس هناك شيء يسمى بالحزب حقيقة إلا قليلا ، بل كلما عندنا ولاءات هشة غير متفاعلة مع الرسالة بقدر تفاعلها مع المصالح والأهواء والقرابة ، لذلك تجد العسكر وهو الأفضل تماسكا في عالمنا الثالث هو المسـيطر أبـدا لأنه لا يجد امامه كيان سياسي متماسك.

وإذا وجد التماسك الحزبي ـ وهو قليل ـ فانه لا ينتهي الى التماسك الاجتماعي. إذ سرعان ما يتصل هذا الحـزب بالغرب وذاك بالشرق ، وبـدل ان يتفقا تراهما يتصـارعان لمصـــلحة احـــدى الجهـــتين ، وضد المصـــلحة الاجتماعية المشـــتركة. المجتمع المســـلم لم يعد الإطـــار الموحد لفاعلية احزابنا حـتى يوحد جهودهما ، وما نـراه في لبنـان أو في شمال العراق أو في غرب إيـران ، وما أشـبه دليل على ان انتماء الأحزاب الى مجتمعهم أقل فان الوطنيـات الزائفة تفتت الوحدة الاسلامية والوحدة القومية ، فاذا بك تجد على كـلّ قطعة أرض راية ونظاما يتحـاربون بـالرغم من وحدة مصالحهم في الإطار الاسلامي الموحد.

والآن نجد الامة الاسلامية موزعة في أكثر من خمسة وســبعين دولة أو دويلة ، وكل يبــني جيشه وثقافته على أساس تعميق التجزئة ، وتكريس الانفصال ، لذلك يســهل على الاجنــبي أن يبتلعها لقمة لقمة ، ويســهل على غــول التخلف الاقتصادي ان يلتهم سعادتهم ورفاههم.

ان مصــادر الطاقة والمعــادن والاراضي الزراعية ، والموقع الاســتراتيجي في وسط العــالم ، والــتراث الحضـاري والالف مليـون إنسـان كل هـذه القـوى لم تكن قادرة على بنـاء حضـارتنا في القـرن العشـرين ، ونخشى أن يبقى الوضع هكذا في القرن الواحد والعشرين. لماذا؟

لأن الانتماء الى الذات أشدّ من الانتماء الى الرســالة وحين يكون الانتماء الى الرسالة ضعيفا فان الرؤية تكـون محـدودة ومسـجونة في جـدران الذاتية المغلقة ، ولـذلك أكــدت الآية الكريمة على أن الانتمــاء الى الــذات والى المصالح الذاتية سيكون سببا للضلالة لأنه فسق.

(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ**)

وحين يكون انتماء الفرد الى ذاته ومصالح ذاته ، فـان ممارسته ستكون أيضا خاطئة ويكون فاسقا ، وحينئذ يرى العــالم بنظــارة ذاته فلا يــراه على حقيقته فتــنزل عليه الكارثة.

دروس من حنين :

[25] وكمثل على هذه الحالة الشـاذة يقصّ علينا ربنا قصة المسـلمين في حـنين ، حيث توكل المسـلمون على كثرة عددهم لا على ربهم وتضحياتهم فانهزموا.

(**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ**)

مثلا في يوم بدر ، حيث كان المسـلم يقتل أبـاه وابنه لان التجمع الرسـالي كـان أمتن من الـولاءات الاسـرية أو الذاتية ، و جاء في الحديث : «ان المواطن الكثيرة كـانت ثمـانين معركة انتصر فيها المسـلمون في عهد الرسـول (ص)

» (**وَيَـوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْـرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً**)

لان الكثرة غير المتماسكة لا تغـني شـيئا. إذ كل فـرد يفقد إرادته وعزيمته وخلوصه ، اعتمـادا على الكـثرة ، وكـلّ فـرد أو فئة أو حـزب أو طائفة أو عشـيرة تفكر في مصالحها. تفكر في أن تكون التضحيات من غيرها وتكـون المكاسب لها.

وهكـذا كـانت الكـثرة العددية للمسـلمين اليـوم غـير نافعة لأنها كـثرة كمية فقط ، وفاقـدة للوحـدة الحقيقية ، وهكـذا تجد الأرض المقدسة في فلسـطين بيد الأعـداء برغم اهتمام الجميع بتحريرها.

(**وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ**)

فبـالرغم من الكـثرة العددية تجد الجميع مغلـولين مكبلين لان فاعلية كل جهة موجهة ضد فاعلية الجهة الثانية ، وكأنهم مجموعة سـيارات متشـابكة في المـرور ، كل واحدة منها تمنع غيرها من التحرك ، ولو توحدت لوجد الجميع متسعا من الأرض.

(**ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ**)

وانهزموا بفعل اختلافهم امام عـدوهم الأكـثر تماسـكا منهم ، كما انهزم المسلمون اليوم امام الصـهاينة. وهكـذا تخسر الامة المفتتة معاركها الحضارية مع اعدائها.

[26] ولكن بقيت مجموعة متماسـكة ذات قيـادة رسـالية ، بقيت صـامدة في اطـار هـذه الكـثرة المنهزمة فأنزل الله سكينته عليهم.

(**ثُمَّ أَنْــزَلَ اللــهُ سَــكِينَتَهُ عَلى رَسُــولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**)
فسكنت نفوسهم برحمة الله ، واطمأنت الى نصره ، وهكذا كانت الرسالة هي خشبة الخلاص في زحمة أمـواج الهزيمة.
(**وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها**)
وكان من أبرز واجبات هؤلاء الجنـود الـذين كـانوا من الملائكة .. تثبيت قلوب المؤمنين ، واعادة الثقة والبشارة الى أنفسهم كما في حرب بدر.
جاء في حديث مأثور عن الامـام الرضا (عليه السـلام) أنه قــال : «الســكينة ريح من الجنة طيبة لها صـــورة كصورة وجه الإنسـان فتكـون مع الأنبيـاء» [1]. وقد تكـون الملائكة المنزلين هي السكينة أو هم حملة السكينة.
(**وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ**)
فالله لا يتــدخل في الصــراعات الاجتماعية عبثا ، بل انما في الوقت الـذي يكفر جـانب ويـؤمن ويصـمد جـانب آخر ، فيجازي الكافر بكفره.
[27] ولكن الهزيمة ليست نهاية أمة بل هي تجربة قد تصقل نفوسهم وتحدد أسـباب ضـعفهم ، ويتوبـون الى الله من ذنوبهم فيتوب الله عليهم وينتصرون.
(**ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللــهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

(1) مجمع البيان ج 5 / 18

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28) قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ (29) وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)

---

30 [يضاهئون] : يشابهون.

هكذا قضى الرب

بنجاسة المشركين

هدى من الآيات :

في الــدرس الســابق بين القــرآن بعض الشــروط الضرورية للانتصار ، وفي هذا الـدرس يحـرض المسـلمين على قتــال المشــركين والكفــار ، وعلى طــردهم من المسجد الحرام دون خوف من فقر لان الله هو الـرزاق ، وأمر الله بقتـال أولئك الكفـار من أهل الكتـاب الـذين لا يؤمنــون بالله ولا بــاليوم الآخر إيمانا حقيقيا ينعكس على ثقــافتهم وســلوكهم ، كما انهم لا يلــتزمون بشــرائع الله وأوامر الرســول ، ولا يلــتزمون بســيادة الــدين الحق والنظـام الحق ، هـؤلاء يجب قتـالهم حـتى يعطـوا الجزية خضوعا للحق (لا رشوة فيه) وهم صاغرون.

لقد قـالت اليهـود عزير ابن الله كما قـالت النصـارى المسيح ابن الله. قالوا هذا الافك بلا حجة أو ايمــان راسخ ، وذلك تشــبها بقــول الكفــار والله يعلن عليهم الحــرب بسبب هذه الضلالة التي وقعوا فيها. ذلك لان هذه الضلالة وأمثالها جــرتهم الى التســليم لأوامر الأحبــار والرهبــان واتخاذهم أربابا من دون الله. بينما أمرهم الله

بعبادة اله واحد لا شريك له فسبحان الله عما يشركون.

بينات من الآيات :

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) :

[28] المشـركون نجس : بهـذه الكلمة فصل القـرآن بين الفـريقين الرئيسـيين الـذين يقسم الإسـلام البشـرية على أساسه ، فريق الهـدى وفريق الضـلالة .. حـزب الله وحــزب الشــيطان .. المواطنــون في الدولة الاســلامية والأجانب ، فما هي النجاسة التي جاءت في الآية؟

جاء في بعض التفاسير :

اختلف في نجاسة الكافر فقال قوم من الفقهـاء : ان الكـافر نجس العين وظـاهر الآية يـدل على ذلك ، وروي عن عمر بن عبد العزيز ، انه كتب : «امنعـــوا اليهـــود والنصارى من دخول مساجد المسـلمين ، واتبع نهيه قـول الله تعــالى : (إِنَّمَا الْمُشْــرِكُونَ نَجَسٌ)» ، الآية) وعن الامــام الحسن (عليه الســلام) قــال : «**لا تصـــافحوا المشـركين فمن صـافحهم فليتوضأ**» وهـذا يوافق ما ذهب اليه أصـحابنا من ان من صـافح الكـافر ويـده رطبة وجب ان يغسل يده ، وان كانت أيديهما يابستين مسحهما بالحائط ، وقــال آخــرون : انما ســماهم الله نجسا لخبث اعتقـادهم وأفعـالهم وأقـوالهم ، وأجـازوا للـذمي دخـول المساجد ، قالوا : انما يمنعون من دخول مكة للحج. قـال قتادة : سماهم نجسا لأنهم يجنبون ولا يغتسلون ويحدثون ولا يتوضـئون ، فمنعـوا من دخـول المسـاجد لان الجنب لا يجوز له دخول المسجد. [1]

ومن الناحية اللغوية النجس كل شيء مستقذر ويبـدو ان للكلمة ثلاث أبعاد :

---

(1) مجمع البيان ج 5 / 20.

الأول : ان الشرك عقيدة باطلة ، والثقافة التي تبــنى على أساس الشرك ثقافة فاســدة ، وعلى المســلمين أن ينفصــلوا عن المشــركين جســديا حــتى لا يتــأثروا ســلبيا بأفكارهم الفاسدة.

الثاني : ان المشركين لا يلــتزمون بالنظــام والشــرائع الاســلامية خصوصا في حقل النظافة الجســدية ، والوقاية الصحية ، فعليهم ألّا يــدخلوا البلاد الاســلامية ذات الانظمة الخاصة في الحياة ، وبالــذات في حقلي النظافة والصــحة والخمر والخــنزير والبــول والــدم أشــياء نجسة تحمل معها الأمــراض الخطــيرة والمعدية ، ومن يباشر هــذه الأشــياء يطـــرد من البلد الاســـلامي ما دام لا يلـــتزم بالشـــروط الصحية للبلد.

الثالث : البلد الاسلامي مستقل اقتصاديا ولذلك يجب ان يســعى نحو التكامل الاقتصــادي والاكتفــاء الــذاتي ، فلا يتعامل مع الأجانب. خصوصا في حقل الاطعمة.

وفي الآية هذه اشارة الى هذه الابعاد دعنا نتــدبر فيها :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**)

والخطــاب دليل على الهــدف من الحكم التــالي ببنــاء المجتمع المؤمن لا بيان الحقيقة العلمية فقط.

(**إِنَّمَا الْمُشْـــرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُـــوا الْمَسْـــجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا**)

فباعتبــار المســجد الحــرام مركز التوجيه الاســلامي فيجب تنظيفه من آثـــــار العقيـــــدة والثقافة المنحرفة الفاسدة.

(**وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً**)

أي فقرا.

(**فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شـاءَ إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

فباعتبار الاقتصـاد الاسـلامي يتعـرض موقتا لمشـاكل بسـبب المقاطعة الاقتصـادية والاعـتزال لـذلك وعد الله سـبحانه عبـاده المؤمـنين بـالتعويض وهكـذا نجد ان المسلمين حين منعوا حجّ المشركين الذين كانوا يحملـون معهم الى البيت الحرام الطعام والملابس ليقايضوا به مع بعضهم أو مع سلع المسلمين. حينئذ عوضهم الله سـبحانه بإسـلام أهل نجد وصـنعاء وجـرش من اليمن ، وحملـوا الطعـام الى مكة على ظهـور الإبل والـدواب وكفى الله تعالى المسلمين ما كانوا يتخوفون.

من هم المشركون ، وما واجبنا؟

[29] وكما يجب محاربة المشـركين عبـدة الأوثـان كـذلك يجب مقاتلة أولئك الـذين يتظـاهرون بالـدين وهم مشـركون واقعا كبعض أهل الكتـاب وهم الـذين يتصـفون بما يلي :

ـ الأول : عدم الايمان الحقيقي.

(**قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ**)

الثاني : عدم قبـول الشـريعة الاسـلامية كمظهر بـارز من مظاهر الايمان الحقيقي.

(**وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ**)

فكيف يعتبر مؤمنا من لا يخضع لشرائع الله ، وسيأتي في آية تالية : ان التسـليم لتشـريعات الأحبـار والرهبـان يسلبهم الايمان بالله ويجعلهم من عبدة الأصنام البشرية.

الثـالث : رفض التسـليم للنظـام الاسـلامي والدولة الاسلامية.

(**وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِ**)

الدين هو التسليم النفسي والخضوع القلبي لنظـام أو شريعة ، ان هذا الفريق إذا كانوا من عبـدة الأوثـان فيجب قتالهم حتى النهاية ، ولكن إذا كانوا.

(**مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ**)

كاليهود والنصارى والمجـوس ، فـان قتـالهم ينتهي إذا دفعوا الجزية.

(**حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ**)

أي حـتى يعطـوا الجزية صـاغرين استسـلاما لقـوة الإسلام وقهر الدولة الاسلامية ، إذ ان مجرد إعطاء المـال للمسلمين لا يدل على سـيطرة المسـلمين على السـاحة كما تـدفع ــ مثلا ــ الـدول الغنية اليـوم مسـاعدات مالية للدول الاسلامية الفقيرة بهدف استمالتها.

مظاهر الشرك :

[30] عقائد اليهــود والنصــارى في الايمــان كــانت فاسدة ، ومتـأثرة بوثنيـات المشـركين من قبلهم ذلك لان الفلسفة اليونانية التي كـانت متـأثرة بالشـرك من الناحية الثقافية ، وبالطبقية والعنصــــرية من الناحية الاجتماعية ، وبالسياســـية الطاغوتية من ناحية نظـــام الحكم ، هـــذه الفلســفة وجــدت طريقها الى الــديانات بســبب ضــعف العلماء ومحاولتهم تبليغ الـدين بكل وسـيلة ممكنة ، حـتى ولو عن طريق تقديم تنازلات للافكار والأوضاع الفاسـدة ، لـــذلك تجد آثـــار الافلاطونية الحديثة عند علمـــاء هـــذه الديانات المنحرفة.

(**وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْـرٌ ابْنُ اللـهِ وَقـالَتِ النَّصـارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ**)

ربما لم يكن عامة اليهـود والنصـارى يزعمـون هـذا الزعم الباطل.

(**ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ**)

فلم تكن فكرة منسجمة مع سائر أفكارهم وعقائدهم ، بل كـــانت بســـبب تـــأثرهم بالثقافة الغريبة عنهم ، وتسليمهم للضغوط الفكرية والاجتماعية.

(**يُضـاهِؤُنَ قَـوْلَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ قَبْـلُ قـاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**)

[31] تلك كـــانت في حقل الثقافـــة. اما في حقل التشــريع والسياسة فــان اليهــود والنصــارى استســلموا للأحبار والرهبـان وقبلـوا تشـريعاتهم دون أن يخضـعوا لله ويعملوا بشرائعه.

(**اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ**)

الحبر : هو العالم الـذي يقـوم ببيـان العلم وهو عـالم النصارى واليهود.

(**وَرُهْبانَهُمْ**)

الـــراهب : هو الـــذي يخشى الله ، ويلبس مســـوح العبادة ، وهو عند اليهود والنصارى المتفرغ للعبادة الزاهد في الدنيا.

(**أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ**)

فـــتركوا تعـــاليم الـــدين ونصوصه الواضـــحة ، الى اجتهادات الأحبار والرهبان التي تأثرت بأهوائهم وظروفهم ، كما تركـــوا عقلهم وفطـــرتهم ونصـــوص دينهم الى الاستشهاد بسيرة المسيح ابن مـريم الـتي كـانت مناسـبة للظروف الموضوعية السائدة

في عصره.

(**وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**)

لقد أمـــرهم الله في كتابه بتوحيـــده في العبـــادة والتشـريع ، وان يعتـبروه وحـده مصـدر النـور والتشـريع ، وان يتصــلوا به مباشـــرة ، وان أخذ التعــاليم من الأحبــار والرهبــان حــتى ولو كــانت متناقضة مع الهــام الفطــرة والعقل والنصوص الصريحة من الدين يعتــبر شــركا مهلكا يبعد النــاس عن حقيقة الــدين وجــوهره شــيئا فشــيئا ، ويجعل الـدين دين البشر أي الأحبـار والرهبـان الخاضـعين للجهل والجهالة ، وضـــغوط الظـــروف. بينما الاتصـــال المباشر بمصــادر الــوحي يمنع هــذه المشــكلة إذ يصــبح المؤمنـون جميعا شـاهدين على الرسـالة أوصـياء عليهـا. وأعين لنصوصها ومنتفعين من عقولهم وفطرتهم في فهم تلك النصوص.

(**سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**)

الله مــنزه عما يشــرك النــاس به ، فوحيه ورســالته وشــرائعه لا تخضع للظــروف أو للأهــواء بل هي كاشــفة لحقائق الحياة ، متناسبة مع السنن التي لا تتغـير ، ولـذلك يجب على الناس الاستلهام مباشـرة منها دون الاستسـلام للأوصـياء عليها من الأحبـار والرهبـان باسم الـدين وتـرك حبل الرسالة على غارب رجال معينين.

و قد جاء في الأحاديث المأثورة عن عـدي بن حـاتم ، انه قــال : أتيت رســول الله وفي عنقي صــليب من ذهب فقال لي : «يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك» ، قــال : فطرحته ثم انتهيت اليه وهو يقرأ من سورة الـبراءة هــذه الآية : (**اتَّخَذُوا أَحْبـارَهُمْ وَرُهْبـانَهُمْ أَرْبابـاً**) حـتى فـرغ منها فقلت له : إنّا لسنا نعبدهم فقال : «**أليس يحرمـون ما أحل الله فتحرمونه ويحلـــــون ما حـــــرّم الله فتســـــتحلونه**» قــــال فقلت : بلى. قــــال : «**فتلك عبادتهم**».

و روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام) ، انهما قالا :

«**أما والله ما صاموا ولا صلوا ولكنهم أحلوا لهم حراما وحرمــوا عليهم حلالا ، فــاتبعوهم وعبــدوهم من حيث لا يشعرون**» [1]

واليــوم نجد الكثــير من أبنــاء أمتنا الاســلامية تركــوا نصوص الدين والهام العقل واستسلموا كليا لبعض أدعيـاء العلم والــدين بــالرغم من علمهم بــان هــؤلاء يحرمــون ويحللون حسب أفكارهم وأهوائهم ، والضغوط الاجتماعية الــتي يتعرضــون لها ، أو يتبعــون أحزابا ومنظمــات اتباعا أعمى ولكن هل يعــذرهم الله وهم يهملــون أكــبر نعمة أســبغها الله عليهم وهي نعمة العقل والتفكــير ويحولــون أنفسهم الى أنعام ضالة وقد خلقهم الله بشــرا ســويا. هل يعذر الله والضمير رجلا بصــيرا يغمض عينيه ويمشي مكبا على وجهه ، حــتى يقع في الحفــرة. إن أكــبر المآسي البشــرية في حقل السياسة والتشــريع آتية بســبب التقليد الأعمى لذوي السلطة والشهرة.

(1) المصدر ص 23.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللــهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُــورَهُ وَلَــوْ كَــرِهَ الْكَــافِرُونَ (32) هُــوَ الَّذِي أَرْسَــلَ رَسُــولَهُ بِالْهُــدى وَدِينِ الْحَــقِّ لِيُظْهِــرَهُ عَلَى الــدِّينِ كُلِّهِ وَلَــوْ كَــرِهَ الْمُشْــرِكُونَ (33) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَــأْكُلُونَ أَمْــوالَ النَّاسِ بِالْباطِــلِ وَيَصُــدُّونَ عَنْ سَــبِيلِ اللــهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نــارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُــورُهُمْ هــذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)

انحراف أهل الكتاب

عن رسالات الله

هدى من الآيات :

لا يزال السياق يبيّن الفساد الذي تسـرب الى اليهـود والنصـارى من خلال تقليـدهم الأعمى للأحبـار والرهبـان. ومخالفة الرسـالة الـتي هي نـور الله واحـدة من مظـاهر الفســاد ، ولكن هــذه المخالفة الضــعيفة لا تســتطيع ان توقف انتشار النور ، والله يتم نوره بالرغم منهم.

ان الله أرسل رسوله بكلمـتين ـ الهـدى ـ أي تكامل البشر عقليا ونفســيا ـــ ودين الحق ـــ أي ســلطة الحق والعــدل لا منطق القــوة وفي النهاية ســوف ينتصر الحق على كلّ سلطة بالرغم من المشركين.

ويبقى سؤال : لماذا لا يجوز تقليد الأحبـار والرهبـان ، في تعاليم دينهم؟

والجواب :

لأن كثـيرا منهم خونة غـير أمنـاء في الأمـوال فكيف يؤمّنون على الرسالة؟ انهم

يأكلون أموال الناس بالباطل ومجمل سلوكهم ليس في مصلحة المحرومين ، بل بالعكس تراهم يصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله.

فما هو جزاء من يكنز الذهب والفضة؟ انه عذاب اليم في يوم القيامة حيث يحمى عليها حتى تلتهب في نار جهنّم الحامية الشديدة التوقد ثم توضع على جباههم وجنوبهم وظهورهم حتى تكوى بها ، ويقال لهم : هذا عاقبة الأموال المكنوزة .. أصبحت ضررا عظيما عليكم ، بينما أردتم ان تصبح خيرا ، فذوقوا ما كنتم تكنزون.

بينات من الآيات :

المؤامرات على الرسالة :

[32] الأحبار والرهبان وكل علماء السوء الذين اتخذوا الدين مطية لشهواتهم. ينصبون من أنفسهم حماة التقاليد الاصيلة والأفكار الرجعيّة ، ويقاومون كل حركة تقدمية ، وكل رسالة جديدة ، وهذه رسالة الله التي أنزلت على خاتم الأنبياء لتكون مبعث ضياء عظيم في العالم يقف حولها هؤلاء وينفخون عليها كأنهم يريدون إطفاءها بأفواههم الحقيرة ، فهل يقدرون؟

(**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ**)

وحين يضيء الله نورا لا يستطيع البشر أن يوقف انتشاره ، لان الله القوي العزيز ينشره ويبلّغه آماده وأبعاده حتى يحقق أهدافه.

(**وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ**)

أي يمنع الله كلّ عقبة تعترض طريق انتشار الرسالة حتى تتم الرسالة وتبلغ

اهدافها.

ان هـدف علمـاء السـوء دائما هو إبقـاء النـاس في الضلالة وتجهيلهم ، وسلب ثقتهم بعقولهم حـتى لا يفكـروا ولا يعرفوا شيئا. ولكن الله الذي زود البشر بالعقل وبلــور وأكمل العقول بالرسالة لا يسـمح لإنسـان أن يفقد بشـرا قدرته على الفهم بل ينبهه ، ويوقظ عقله ، ويذكره بشتى الوسائل حـتى يتم حجته عليه ، وآنئذ تكـون له الحرية في أن يرفض الاستغلال ويتحـدى التقليد الأعمى ولا يستسـلم أو يخاف أو يرضى بالخنوع والذل.

ولعل الآية تشير الى هذه الحقيقة أيضا.

أهداف الرسالة :

[33] الله الذي أرسل الرسالة على يد الرسـول ، هو الـذي يؤيد الرسـالة في تحقيق الهـدفين الاساسـيين لها وهما :

ألف : توفـير فرصة الهداية للنـاس حـتى يتم الحجة عليهم ، والهـدى هو الوصـول الى الحقيقة ولا يصل البشر الى الحقيقة الا بالعلم بها والتسـليم القلـبي لها ، ذلك لأن العلم الـذي لا يشـفعه الايمـان لا يكفي إذ يبقى الجحـود والغفلة حـاجزا بين البشر وبين الحقيقة ، انما عن طريق الايمان ، أو بتعبير آخر تسليم القلب للعلم الـذي يكتشـفه الـدماغ يهتـدي البشر ، والرسـالة ليست علما فقط بل وقبل ذلك هي تزكية للنفس وتنظيف للقلب عن الحـواجز والحجب حتى يتقبل العلم ، فهي إذا هـدى وهـذا واحد من هدفي الرسالة.

بـاء : أما الهـدف الثـاني فهو : إقامة سـلطة الحـق. سلطة العدالة والقـانون ، سـلطة القيم والمبـادئ ، وذلك في مقابل سلطة القوة التي هي شريعة الغاب ، ومنطق

الجبــارين ، ومن الواضح ان المجتمع اما تســوده شــريعة الغاب أو شريعة الله. شريعة الحق و ...

ولأن الله الـــذي خلق الحيــاة منح قـــدرا من الحرية للناس الا ان العاقبة هي للحق.

(**هُـوَ الَّذِي أَرْسَــلَ رَسُــولَهُ بِالْهُـدى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**)

أي بالرغم من مخالفة المشركين.

الممارسات العملية للأحبار والرهبان :

[34] لمـاذا يجـوز للإنسـان أن يسـمع كلام الطـبيب والمهندس والخبير العسكري ، ويتبع أوامرهم دون تحقيق أو بحث بينما لا يجــوز له أن يتبع الحــبر أو الــراهب اتباعا مطلقا ، أو ليس العــالم بالـدين يشـبه الخبـير في سـائر الحقول؟

للاجابة ، على هـذا السـؤال الـذي كـان مطروحا عند اليهـود والنصـارى أيضا نسـتطيع أن نقـول اسـتلهاما من القرآن : ان مراجعة الخبير .. أي خبير بحاجة الى أمرين :

الأول : الثقة بأنه خبـــــير فعلا ، فانك لا تراجع طبيبا تشك في معرفته بالطّب.

الثاني : الثقة بأمانته وانه لا يخونك ، فرئيس الدولة لا يسـتقدم طبيبا من الحـزب المعـادي وقائد الجيش لا يتبع نصيحة ضابط يشك في ولائه.

وكلما كانت القضية التي تراجع فيها أخطر كلما تحتاج الى ثقة أكـــبر في علم الخبــير وأمانته ، ولكن قد يكـــون البشر غير عارف بأهمية قضيته فيراجع خبيرا من دون

ثقة كافية كما كـــانت الحالة عند اليهـــود حيث انهم لم يعطوا الرسالة أهمية كافية فاذا بهم يراجعون فيها الأحبار ، والرهبان من دون ثقة كافية ، بل مع علمهم بالمخالفات الـتي يحكم العقل والفطـرة بأنها تتنـافى والقبـول بهم ، لـذلك يـذكر القـرآن هـؤلاء بتلك المخالفـات الدينية الـتي تسقط الأحبار والرهبان من صلاحية الاتباع والتقليد.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا إِنَّ كَثِـــيراً مِنَ الْأَحْبـــارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ**)

ان أكل مـــال أحد بغـــير حق أبسط مخالفة يعرفها الجميع فطريا ودون حاجة الى معلومـات دينية مسـبقة ، والأعظم من ذلك انهم كـانوا يصـدون عن سـبيل الله ، وسـبيل الله هو كل خـير ، مثل الـدفاع عن المظلـومين والمستضـعفين وإعانة الفقـراء والمسـاكين ، والعمل من أجل بناء الوطن ، وهكـذا ... ان هـؤلاء كـانوا يصـدون عن سبيل الله بدل العمل في هذا السبيل.

(**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

وأيضا تـراهم يؤيـدون التجـار الـذين يكـنزون الـذهب والفضة ، بل هم أيضا قد يصبحون تجارا من هذا النوع.

(**وَالَّذِينَ يَكْنِـزُونَ الـذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ**)

ومن يكـون عند الله معـذبا هل يمكن تقليـده واتبـاع أوامره؟

[35] اما عــذاب الله الــذي ينتظر هــذا الفريق من النـاس فهو : ان ربنا سـبحانه سـوف يحمي هـذه النقـود حتى تلتهب ، ثم يضعها على جوانبهم ليحرقوا بها.

(**يَــوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نــارِ جَهَنَّمَ فَتُكْــوى بِها جِبــاهُهُمْ وَجُنُــوبُهُمْ وَظُهُــورُهُمْ هــذا ما كَنَــزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ**)

فبـدلا من تحقيق هـدفهم من الكـنز ، وهو الانتفـاع به أضرهم وأصبح نارا لاهبة تكوي أطرافهم.

(**فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ**)

ما هو الكنز؟

سؤال : أي قدر من المال المخـزون يعتـبره الإسـلام كـنزا. هل هو الزيـادة على حاجة الفـرد؟ أم هو أكـثر من أربعة آلاف دينـار ، أم هو المـال الـذي لا ينفقه الفـرد في سـبيل الله ، ولا في بنـاء المجتمع ـ صـناعيا أو عمرانيا أو زراعيا أو تجاريا ـ ولا يـدخره لحاجة شخصـية محتملة مثل مرض أو عالة. أم ماذا؟

قد يكون الكـنز بالـذات حراما للفلسـفة المالية الـتي جـاءت في سـورة (الأنفـال) فـان المـال قيـام للمجتمع فتخزينه من دون فائـدة إضـاعة لجهـود النـاس ، وتوقيف للحركة الاقتصادية ، أما من يعتبر تخزين المال كنزا مضرا بـالمجتمع فـان ذلك يحـدده القـانون حسب الظـروف المتطورة ، وربما كان اختلاف الظروف سـببا في اختلاف الأحاديث المأثورة في حرمة الكنز ، مما نذكر طيّا بعضـها للاهمية البالغة لهـذا الموضـوع الحسـاس في ظـروف يتحالف فيها ادعياء الدين مع مستغلي الشعوب المحرومة ومصاصي دمـائهم وذلك تحت غطـاء حق الملكية الفردية التي يقرها الإسلام ، ولكن في حدود المصلحة الاجتماعية ، اما الأحاديث فهي التالية :

ألف : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) :

«**كل مال تؤدي زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل مال لا**

تؤدّي زكاته فهو كنز وان كان فوق الأرض»

باء : روي عن علي (عليه السلام) :

«**ما زاد على أربعة آلاف فهو كـــنز أدى زكاته أو لم يؤدها ، وما دونها فهي نفقة** ، (**فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذابٍ أَلِيمٍ**)»

جيم : في تفسـير علي بن إبـراهيم ، ضـمن حـديث مطول. ان عثمان بن عفـان نظر الى كعب الأحبـار فقـال له : يا أبا اســحق ما تقـــول في رجل ادى زكـــاة ماله المفروضة. هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء؟ فقـال : لا ولو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شــيء ، فرفع أبو ذر رضي الله عنه عصــاه فضــرب بها رأس كعب ، ثم قـال له : يا ابن اليهودية الكـافرة ما أنت والنظر في أحكام المسلمين. قـول الله أصـدق من قولك حيث يقــول : (**وَالَّذِينَ يَكْنِـزُونَ الـذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ**).

دال : و في حديث عن الامام الباقر (عليه السلام) :

«**ان الله حرم كنز الـذهب والفضة وأمر بإنفاقه في سبيل الله**» [1]

ما دام القـانون يحـدد المصـلحة العامة فـان اختلاف الأحاديث يدل على الظروف المختلفة.

---

(1) تفسير نور الثقلين ج 2 / 213 ـ 214.

سورة التوبة

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (37) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (38) إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ

---

37 [ليواطئوا] : المواطأة .. الموافقة.

عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)

النسيء عقدة الجاهلية ، والاستنفار ضرورة جهادية

هدى من الآيات :

بعد الحديث عن الكفار من أهل الكتاب ، عاد القـرآن مـرة اخـرى للحـديث عن المشـركين وضـرب لنا مثلا من انحـراف الشـرك ومسـبقا بين حكم الأشـهر الاثـني عشر الــتي يعتــبر اربعة منها حرما ، وبيّن ان الالــتزام بهــذه الأشـهر هو الـدين القيّم ، فيجب الا يظلمـوا أنفسـهم فيها وبعدئذ امر المسلمين بقتالهم بلا استثناء ، ووعدهم النصر إذا التزموا بالتقوى.

اما التلاعب بأحكـام الله ، وتغيــير الأشــهر ـــ حسب الأهواء ــ فانه زيـادة في الكفر ، وضـلالة يقع فيها الكفـار حيث يحلون الشـهر ذاته في عـام بينما يحرمونه في عـام آخر ، ليكون المجموع بقدر العـدد الـذي جعله الله وهكـذا يخــالفون تعــاليم الله من دون وازع نفسي ، بل زيّن لهم سوء عملهم لكفرهم المسـبق ولان الكفر يحجب الضـمير ، (**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ**).

ويخــاطب القــرآن المؤمــنين : لمــاذا لا يخفّــون الى القتال حين يؤمرون به؟ هل من

أجل الاكتفـاء بالـدنيا والرضا بهـا. بينما قيمة الـدنيا في حسابات الاخرة قليل جدا؟

بينات من الآيات :

الأشهر الحرم والأهواء الجاهلية :

[36] الشهور في السنة اثنا عشر شهرا ، فالقمر يبدأ هلالا وينتهي الى بـدر ، ثم يتنـاقص حـتى يغيب قبل أن يظهر مـرة اخـرى هلالا ، كل ذلك خلال ثلاثين نهـارا ، ويتكرر هذا الأمر كل شـهر اثنا عشر مـرة ، وعلينا ـ نحن البشر ـ ان نوافق أعمالنا حسب سـنن الطبيعة لا سـحب اهوائنا ، وسـنن الطبيعة هي الحق الـتي خلق الله السـموات والأرض عليها ، ومن مظـاهر الجاهلية العمل حسب الأهواء العاجلة دون تفكـير في ظـروف الطبيعة أو حتى دون معرفة بها والقرآن خالف ذلك قائلا :

(**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللـهِ اثْنا عَشَـرَ شَـهْراً فِي كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ**)

ففي كتـاب الطبيعة كما كتـاب التشـريع ، ومنذ ان أوجد الله الكون جعله جاريا على نظام ثـابت مـتين وعلينا اكتشاف هذا النظام فنسعد بـالتوفيق معه ، والا فـان ذلك يسـبب لنا متـاعب كثـيرة ينهانا الله عنها وينصـحنا بعـدم التورط فيها.

(**مِنْها أَرْبَعَةٌ حُـرُمٌ ذلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُـوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ**)

والمشركون هم الذين يخالفون هذه الحقـائق الكونية ، وعلينا قتالهم لتصحيح مسارهم ، كما انهم يعتبرون عقبة في هذا السبيل بطبيعة جهلهم وفساد نظامهم.

(**وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**)

إذا السبيل مختلف.

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**)
الملــتزمين بمنــاهج الإســلام الــتي هي حالة مخالفة للعمل بالأهواء.

ما هو النسيء؟

[37] إنّ تغيير احكـام الله مثل حكم الأشـهر. وسـائر الأحكام وذلك حسب مشتهيات هذا الحاكم أو ذاك ، وشيخ هـــذه العشـــيرة ورئيس تلك الجماعة ، فانه زيـــادة في الكفر.
(**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ**)
والنســيء بمعــنى التــأخير يقــال : نســأت الإبل في ظمئها يوما أو يومين أو أكثر من ذلك والمصدر النســيء ، وجاء في التفسـير : كـانت العـرب تحـرم الشـهور الأربعة وذلك مما تمســكت به من ملة إبــراهيم وإســماعيل وهم كانوا أصحاب غارات وحروب ، فربما كان يشق عليهم ان يمكثوا أشهر متوالية لا يغزون فيها فكـانوا يقـررون تـأخير المحـــرم الى الصـــفر فيحرمونه ويســـتحلون المحـــرم فيمكثـون بـذلك زمانا ثم يـزول التحـريم الى المحـرم ولا يفعلون ذلك الا في ذي الحجة. [1]
(**النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ**) :
ويبقى سؤال : لماذا يعتبر ذلك زيادة في الكفر؟
ربما لأن الاعتداء الذي كان الجاهليون يغيّرون الأشهر من أجله هذا الاعتداء حرام بذاته فاذا غيروا حكما شــرعيا وعقدا اجتماعيا توافقوا عليه من أجل الاعتداء

(1) مجمع البيان ج 5 / 29.

فان ذلك يعني تجاوز كلّ القيم والمقدسات دون تغييرها ، ومع الاعتراف بان الحرب فيها خطأ يرتكبونه ، ولكن لماذا كـان الجـاهليون يغـيرون الأشـهر الحـرم للقيـام بالاعتـداء على بعضهم؟

لأنهم كانوا يحاولون التخلص من وخز الضمير ، ولومة المؤمـنين بالشـرائع. تماما كما يفعل الطغـاة اليـوم حيث يلبسـون جـرائمهم ثـوب الشـرعية فيلاحقـون المطـالبين بحريـاتهم وحقـوقهم تحت شـعار المحافظة على الأمن ، وربما باسم الدين أيضا ، أو يضـعون قـوانين ثم يحـاكمون النـاس على أساسـها في الـوقت الـذي لا يملكـون حق إصدار القوانين بل هذا بذاته أكبر الجرائم بحق الشعب.

وهكذا يصبح التبرير الـذي يتـذرع به المجرمـون دافعا لهم نحو المزيد من الجريمة ، والتخلص من روادع الجريمة النفسـية والاجتماعية باسم ذلك التـبرير. ولـذلك أكّد القـرآن هنا : انّ النسـيء ليس زيـادة في الكفر فقط بل هو سبب للضلالة والانحراف أيضا :

(**يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا**)

انهم كانوا يحلون ذات الشهر (مثلا : شـهر ذي الحجة) في هـذا العـام بينما يحرمونه في العـام الآخر حسب خططهم الحربية ، وهكـذا كـانوا يتلاعبـون بالشـرائع والقوانين.

(**يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَـهُ عامـاً لِيُواطِـؤُا عِـدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ**)

أي ليجعلوا الأشهر الحـرم أربعة كما قـال اللـه. ولكن بعد تغيير محتواه حسب أهوائهم.

(**فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ**)

زين لهم الاعتداء ـ حتى غيروا أحكام الله من أجله ، وهكذا لو جعل الفرد هدفه غير مرضاة الله وغيّر أحكام الله للوصول اليه ، وبرر فعلته الاجرامية. بأن الغاية تبرر الوسيلة.

بيد أن العملية كلها تسبب الضلالة والجحود لأن القلب البشري الذي يستهدف الوصول الى مطامع ذاتية لا يبحث عن الحقيقة ، فلا يهتدي إليها.

(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ**)

ذلك لأن الكفر ـ وهو هنا المخالفة العملية للواجبات ـ يؤثر على العقل فيسلب منه ور المعرفة.

[38] قلنا ان أهم شيء يحدد فكر البشر وسلوكه هو هدفه الذي زين له فعشق الوصول اليه فاذا كان هدفه الله واليوم الآخر فانه كما السائق الرشيد يقود سائر العجلات والاجهزة في سيارة الحياة على الطريق السليم وإلّا فان كل العجلات تسير في طريق الانحراف والهلاك. وهكذا ضلّ الكافرون ضلالا ، وهكذا يضل المؤمنون إذا لم يحذروا ويتقوا ويخلصوا أهدافهم ، فلو كان هدف الفرد المتعة في الحياة الدنيا لترك الجهاد في سبيل الله خوف الموت. وتثاقل عن تنفيذ أوامر الله.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ**)

أي تثاقلتم وتباطأتم ، وبرّرتم بتبريرات هدفها تأخير الحرب. مرة تقولون : الآن وقت الحر القائظ. أ فلا ننتظر حتى يعتدل الجو ، ومرة تقولون : البرد شديد فلننتظر قليلا حتى تخفف وطأته ، ومرة تبررون بعدم الاستعداد الكافي للمعركة.

والنفور والتحرك في سبيل الله لا يختص بالحروب. إذ كل سعي نفر كما

جـاء : (النفر : الخـروج الى الشـيء لأمر هيّج عليـه. ومنه نفور الدابة). [1]

ومما يؤسف له ان الكثير منا يبطئ العمل في سـبيل الله بحجة أو بـــــأخرى ، والحجج كلها باطلة والســـــبب الحقيقي كامن في حب الدنيا.

(**أَ رَضِـيتُمْ بِالْحَيـاةِ الـدُّنْيا مِنَ الْآخِـرَةِ فَما مَتـاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**)

ان المؤمن الواعي يجب ان يكـون مقتلعا من الأرض. متحــررا من جاذبية المـادة. منـدفعا في الاتجـاه السـليم الذي يأمر به الله لان المتعة البسيطة في الـدنيا لا تعـادل أبــدا راحة الاخــرة. ان الــدنيا زائلة قصــيرة والمتعة فيها مشوبة بالصعاب بينما الاخـرة باقية خالـدة ومتعتها خالصة لا يشوبها خوف أو حزن.

سنّة التحرك في الحياة :

[39] التيـار الرسـالي ينـدفع في الحيـاة ، كما سـيل جــارف يرعــاه رب الســماء ، وتحركه كل ســنن الحيــاة وانظمتها ، فــاذا تــركت أنا الجهــاد فانما أشذ عن حركة عظيمة وأهلكت نفسي.

(**إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً**)

فالراحة المنشـودة من وراء تـرك السـعي والتحـرك تتبدل بعذاب أتجرع ألمه.

(**وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ**)

والتعـزز والأنفة يسـببان الاسـتغناء عـني وعـزلي عن شرف المسؤولية.

---

(1) المصدر 30.

(**وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً**)

وإذا فكــرت في الانتقــام فلا أســتطيع أن انتقم من الحق أبدا.

(**وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

إذ هو القادر على ان يسلب مني كل قــوة أوتيتها فلم اسـتخدمها في سـبيل تنفيذ أوامــره فما ذا يبقى لي غـير خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

قصة الهجرة والانتصار :

[40] هل انتصــرت الرســالة بي ، فحين كنت بعيــدا عنها سادرا في الغفلة والجهل من الـذي نصر الرسـالة أو ليس الله؟! فلما ذا التعزز عليها؟!

(**إِلَّا تَنْصُـرُوهُ فَقَـدْ نَصَـرَهُ اللـهُ إِذْ أَخْرَجَـهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**)

من مكة المكرمة ، زاعمين : ان هــذا الإخــراج يــؤثّر في مسيرة الرسالة التصاعدية.

(**ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ**)

وهو أبو بكر حيث خرج معه للهجرة.

(**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا**)

مطّلع علينا محيط علمه وقدرته ولطفه بنا فلما ذا الحزن ولماذا القلق.

جـاء في التفاسـير : قـال الزهـري : لما دخل رسـول الله وأبو بكر الغار أرسل الله زوجا من الحمام حـتى باضا في أسفل الثقب ، والعنكبوت حتى تنسج بيتا فلما جاء

ســـراقة بن مالك في طلبهما ورأى بيض الحمـــام وبيت العنكبوت قال : لو دخله أحد لا نكسر الــبيض وتفسخ بيت العنكبوت فانصرف.

(**فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ**)

على رسـول الله الـذي تحمل ثقل الرسـالة ، وهكـذا من يحمل الرســـالة ويثبت فـــان الله يبعث في قلبه الاطمئنــان والدعة حـتى لا تهـزه الحـوادث المتغـيرة أو المشاكل الطارئة.

(**وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها**)

هي جنود الملائكة في الغزوات ، كما انها جنـود الحق المجنـدة في هـذا الكـون الـرحيب ، والـتي لا يراها البصر العادي. ان سنن الحياة وانظمة الكون كلها تـدعم رسـالة الحق وصاحب هذه الرسالة ولكن لا يشعر بها أحد.

(**وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى**)

لأنها لا تعتمد على قاعدة صلبة ، أو أساس مـتين إنها تعتمد على الكفر بالحقائق وجحودها ، فكيف تثبت؟!

(**وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا**)

لقد خلقت كلمة الله هكـــذا .. انها هي العليا ، وهي المنتصرة أخيرا.

(**وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

فبعزته يجعل كلمة الكافرين السفلى بعد أن منح لهم الحرية لبعض الوقت حتى يبتليهم ويمتحن قدرة المؤمـنين على الاستقامة ، وبحكمته يدبر أمور الكون.

انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41) لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (42) عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (43) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45)

---

42 [عرضا] : العرض الشيء الزائل.

التعبئة العامة وتبريرات المنافقين

هدى من الآيات :

يجب الجهاد بأية صورة ممكنة بالنفس والمال. بيد ان البعض يزعم ان الجهاد سفرة سـياحية أو مكسب عاجل ، وحين يكتشف ان الجهـاد يتطلب طيّ مسـافات متباعـدة يتركه ويحلف بالله انه لا يقـــدر عليه ، وانه لو اســـتطاع الجهـاد ما تركه ، بيد انهم لا يضـرّون إلّا بأنفسـهم ، وعلى القيادة الاسـلامية ان تتخذ الجهـاد وسـيلة لكشف العناصر الضــعيفة والمنافقة فلا تــأذن لمن يســتأذنها في تـــرك الجهــاد. ذلك لان المؤمــنين لا يســتأذنون القيــادة لأنهم يتطلعون نحو الجهاد بأنفسـهم وأمـوالهم إيمانا منهم بالله واليوم الآخر ، والله عليم بهم.

والكفار الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر أو يرتابون في ذلك هم وحدهم الذين يستأذنون.

بينات من الآيات :

الاستنفار والجهاد :

[41] يجب النفر على الجميع بقـدر اسـتطاعتهم فقد يكـــون شـــابا نشـــيطا غنيا ليست لديه علاقة عائلية أو اجتماعية أو اقتصادية ، أو يكون شيخا أو ضـعيفا أو فقـيرا ذا عائلة كبـيرة وعلاقــات اجتماعية واقتصـادية تثقله عن الخروج.

والتحـرك من أجل الله قد يكـون جهـادا أو عمرانا أو تمهيدا للجهاد ، لذلك أكدّ القرآن على الخروج بصفة عامة وبصورة خاصة.

(**انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً**)

أي ســواء شـــقّ عليكم النفر أولا ، وقد يفسر النفر الخفيف بالسـرايا المتحركة ذات المجموعـات الصـغيرة ، بينما النفر الثقيل هو تحريك الجيش بأســـلحته الثقيلة ، وإذا صح هذا التفسير فانه يعني ان الجهـاد أو العمـران أو أيّ تحرك ، جماعي من أجل الإسلام ليس من مسـئوليات الدولة فقط وانما كل مجموعة قـادرة على القيـام بمهمة رسالية فان عليها ان تبادر من أجل تحقيقها.

(**وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**)

والجهاد بالمال يعني بـذل كـلّ فـائض مـالي يمكن أن يبقى عند المسـلم بعد الإنفـاق على نفسه حسب القناعة والزهد ، فالعامل الـذي يقـدر على الاكتفـاء بثلـثي اجـره يحتفظ بالثلث الآخر ليجاهد به في سبيل الله ، والموظف القادر على الاكتفاء بنصف راتبه يصرف النصف الآخر في سبيل الله ، والمدير الـذي يتمكن ان يعيش بثلث مدخوله يصـرف الثلـثين البـاقيين في سـبيل الله ، وهكـذا يعتـبر الجهاد بالمال زيادة على مجرد إنفاق الضرائب المفروضة على كل مسلم وفي الظروف العادية كالزكاة

والخمس انه اجهــاد النفس في الاقتصــاد وذلك بهــدف الادخار من أجل الهدف المقدس.

وقد نقــوم بالجهـاد المـالي بطريقة اخــرى وهي ان يتطـوع الواحد منا بعمل ثلاث سـاعات اضـافية في اليـوم لمصلحة الإسلام.

أما الجهـاد بـالنفس فليس فقط بالشـهادة في سـبيل الله في لحظة المواجهـــة. بل وأيضا بالعمل الجـــاد في سبيل الله ، عملا يستنفذ الجهد ، وحتى لو كان عن طريق التطوع بيوم عمل كل أسبوع لتحقيق هدف عمــراني مثل بنـاء الجسـور وتمهيد الطـرق ، وإصـلاح الاسـلحة وصـنع الوسائل الحربية والعمرانية.

والجهــاد بالمــال والنفس يكــون في مرحلة الاعــداد للمعـارك ، ولـذلك قـدم هنا الجهـاد بالمـال على الجهـاد بالنفس لان الرأسمال ضرورة أولية لأيّ إعداد حربي.

والامة الـتي تجاهد في سـبيل الله تبـني مسـتقبلها ، وتشـــيد صـــرح اســـتقلالها ، وتحقق أحلامها في المدنية والرفـاه. بينما المجتمع الانـاني الـذي يعمل كـلّ فـرد من أجل ذاته ومصالحه الخاصة ، ويتحطم في أول مواجهة مع عــدوه أو ينهــار عند نــزول الكــوارث الطبيعية ، ويــذوب استقلالها في غمرة الصراع الحضاري. من هنا كان الجهاد خـــيرا للامة من التقـــاعس ، ويحتـــاج النـــاس الى العلم بحقيقة الجهـــــاد وانه يعـــــود عليهم بــــــالنفع لأنه يحفظ استقلالهم ويبني حضارتهم. ان هــذا العلم يــدفعهم للمزيد من التضحية والجهاد لذلك قال ربنا :

(**ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

موقف المنافقين :

[42] بيد ان الجاهلين يريدون الجهاد سـفرة قريبة أو غنيمة حاضرة ولو كان

كذلك لكانوا أول المبارزين ، ولكن الجهـاد عمل شـاق ولا يريدونه.

(**لَوْ كـانَ عَرَضـاً قَرِيبـاً وَسَـفَراً قاصِـداً لَاتَّبَعُـوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**)

القاصد هو السبيل الـذي يقصد لقربه وسـهولته. بينما الشقة هي المسافة البعيدة أو الـوعرة الـتي من الصـعب تجاوزها والسير فيها. يتعلل المنـافقون على ذلك بـأنهم لا يقدرون القيام بالاسفار البعيدة.

(**وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ**)

وهكذا كلّ كسول يـزعم انه لا يقـدر على القيـام بـأيّ شيء.

(**يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ**)

سـبب كسـلهم وتقاعسـهم عن الجهـاد. إذ ان الكسل عن العمل يفقد صـــاحبه قدراته ومهاراته ، كما يفقـــده فوائد العمل ومكاسب الجهد الخارجية.

(**وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ**)

وعلى البشر أن يسعى حـتى لا يكـون ممن يعلم الله كذبه ولا يكون ذلك إلّا بالإخلاص في العمل ، وزيادة الجهد والعمل قدر المستطاع.

تعرية الطبقات الفاسدة في المجتمع :

[43] من فوائد الجهاد والأعمـال الصـعبة الـتي يكلف بها المؤمنــون فــرز العناصر الكســولة المتجمعة حــول الرسالة طمعا في الجاه والمال. ذلك لان تواجد هؤلاء في مجتمع الرســالة يربك القيــادة ، ويضــعف المجتمع فلا تستطيع القيادة إعطاء أوامر حاسمة لعدم ايمانها بتنفيذها ، كما لا يستطيع المجتمع تنفيذ الخطط الطموحة ،

وغالبا ما تكـون هـذه العناصر المتملقـون الـذين يشـغلون المناصب الحاســـــمة في المجتمع ، فعن طريق تكليفهم بالواجبات الصعبة وعـدم قيـامهم بها يتم تعـريتهم ومن ثم تصفيتهم. لذلك يعاتب الله رسوله على إعطـاء هـؤلاء إذنا بعـدم الاشـتراك في الجهـاد حيث كـان ذلك الاذن غطـاء لعدم كشفهم على واقعهم أمام المجتمع.

(**عَفَا اللـــهُ عَنْــكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَــكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ**)

[44] ذلك لان المؤمـنين لا يـتركون الجهـاد فيعـرف المنافقون التاركون للجهاد تحت غطاء الاستئذان.

(**لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**)

الذين يخشون الله لا يتركون الجهاد إلا بعذر حقيقي.

[45] (**إِنَّما يَسْــتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُــونَ بِاللــهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ**)

ففي كثير من الأحيان يزعم الإنسـان انه مـؤمن بينما قلبه مرتاب يشك في الله واليوم الآخر.

والأعمـال الصـعبة كفيلة بكشف هـذا الإنسـان لنفسه وللآخرين ، والـريب ينعكس في عـدم القـدرة على اتخـاذ القرار الحاسم والتردد في الأمور.

(**فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**)

أي يقلبون الأمور ويذهبون ويعودون.

وَلَوْ أَرادُوا الْخُـرُوجَ لَأَعَـدُّوا لَـهُ عُـدَّةً وَلكِنْ كَـرِهَ اللـهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبـالاً وَلَأَوْضَـعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُـونَكُمُ الْفِتْنَـةَ وَفِيكُمْ سَـمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللــهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَـةَ مِنْ قَبْـلُ وَقَلَّبُـوا لَـكَ الْأُمُـورَ حَتَّى جـاءَ الْحَـقُّ وَظَهَـرَ أَمْـرُ اللـهِ وَهُمْ كـارِهُونَ (48) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (49) إِنْ تُصِـبْكَ حَسَـنَةٌ تَسُـؤْهُمْ وَإِنْ تُصِـبْكَ مُصِـيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) قُـلْ لَنْ يُصِـيبَنا إِلاَّ ما كَتَبَ اللـهُ لَنا هُـوَ مَوْلانا وَعَلَى اللــــهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُــــونَ (51) قُــــلْ هَــــلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ

وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللـهُ بِعَـذابٍ مِنْ عِنْـدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52)

هكذا تقاعس المنافقون عن الجهاد

هدى من الآيات :

لا يــزال الــدرس هــذا يــبين لنا صــفات المنــافقين وتصرفاتهم في الحرب ، ويعطينا عدة مقـاييس لتميـيزهم وكشف كذبهم :

ألف : ان المنافقين لا يريـدون الجهـاد بـدليل انهم لم يعدّوا له عدة ، ولو أرادوا الخـروج للحـرب لهيـأوا وسـائله ســلفا ، لــذلك ثبطهم الله وســلبهم عــزيمتهم وجعلهم يقعدون مع الذين لا يملكون قدرة الخروج.

بـاء : ولو تحـاملوا وخرجـوا للحـرب فلا يهـدفون فعلا الجهاد ، بل كانوا كلّا وعناء للمسلمين.

جيم : وفي أرض المعركة يثــيرون الفتنة ويفســدون علاقة المؤمــنين ببعضــهم باثــارة النعــرات الجاهلية ، والحساسيات الباطلة.

دال : وهم بالتـالي جواسـيس وعيـون للأعـداء على المؤمنين ، والله يعلمهم ويعلم

طـبيعتهم الظالمة والـدليل على هـذه الحقـائق تـاريخهم السابق حيث كانوا من قبل يحاولون اثارة هذه النعـرات ، وتغيير مسار الاحداث باتجـاه مضـاد للرسـالة ، ولكن الله أظهر أمره باذنه وهم كارهون.

ومن المنـافقين من يقـول للرسـول : اعطـني إذنا بـالتخلف عن المعركة حـتى لا أضـطر الى تـرك أمـرك وعصـيانك بينما هـذا الاسـتئذان ذاته عصـيان وتخلف عن الواجب ، وان جهنم محيطة بالكافرين ، فسواء خرجـوا أو تخلّفوا فإنهم في النار لأنهم أساسا من الكافرين. والكافر لا يصلح عملا ولا يفلح مصيرا.

هـاء : ومن علامـات المنـافقين انهم يفرحـون كلما ينهزم المسلمون ويحزنـون كلما ينتصـرون. ويزعمـون ان انفصـالهم عن ركب الرسـالة دليل على كمـال عقلهم وحذرهم حيث لن يصيبهم ما أصاب المؤمنين ، ويقول ربنا ان المصـائب مكتوبة على الإنسـان ومقـدرة من قبل الله سبحانه ، والمؤمنون لا يخشون المسـتقبل لأنهم يتوكلـون على ربهم ، ونهاية ما يمكن ان يصيب المؤمـنين هو القتل في سـبيل الله وهو احـدى الحسـنيين ، اما الانتصـار فهو عاقبة حسـنى معروفة ، بينما المنـافقون إما يموتـون فيعذبون عند الله أو يبقون فيعذبون على يد المؤمنين. إذا الوقت في صالح المؤمنين والنهاية لهم على أية حال.

بينات من الآيات :

ما هو الجهاد؟

[46] هناك جدل كبير في علم أصول الفقه حول هذا السـؤال : هل يجب تهيئة الوسـائل الضـرورية لتنفيذ الواجبـات أم لا؟ بيد ان العقل يحكم بأنك حين تريد الوصـول الى القمة فعليك ان تتسـلق الجبل ، ولا معـنى أساسا لقرارك هذا إلّا الاندفاع في الطريق الـذي يوصـلك الى هدفك وهو بلوغ القمة ، وهل يعني ضرورة وجود

المسكن إلّا القيام عمليا ببناء البيت أو شرائه .. هل يعـني الحصـول على شـهادة الماجسـتير إلا الدراسة المسـتمرة في الجامعة؟!

ان الــواجب ليس نهاية السـعي. بل ان الــواجب هو السعي ذاته الـذي ينتهي بـالطبع الى النهاية أو يعـذرك إذا لم تصل الى النهاية بسبب خارج عن إرادتك.

ويذكرنا القرآن بهذه الحقيقة الواضحة عقليا ويقـول : ان الجهـاد لا يعـني إلّا توفـير وسـائله فالجهـاد ليس فرضا موهوما أو تصـورا جامـدا. الجهـاد هو مجموعة اجــراءات عملية متدرجة ينبعث نحوها المـــــؤمن يوميا ، وفيما يلي نذكر بعض هذه الاجراءات :

ـ ألف : الجهـاد يعـني الاسـتقلال عن الآخـرين وعـدم الخضوع لأوامرهم أو لضغوطهم ، وبالتـالي إعلان الصـراع معهم.

باء : ويعني توفـير فـائض من الجهد ليـدخره المجتمع من أجل إدارة الصـــراع ، والقيـــام بضـــروراته. ذلك لان الاستقلال يعني المحاصرة الاقتصادية والضغوط السياسية ، ونقص الثمرات وعدم التبادل التجاري مع أطراف اخرى غـير الأعـداء وذلك بسـبب عـدم أمن الطرقـات ، ويعـني الاستقلال وبالتالي الاكتفاء الـذاتي في كثـير من الحقـول. وهذا لا يكون إلا بجهد إضافي.

كما يعــني الجهــاد ادخــار المــؤن ، وصــنع الســلاح والـــذخيرة ، وتمـــوين الجيش ، وتمويل المؤسســـات العسكرية ، وكل ذلك بحاجة الى فائض من الجهد.

جيم : الجهاد يعني في بعض المراحل تطوير الاقتصاد لكي يكــون اقتصــاد حــرب يسـتخدم كل شــيء من أجل المعركة باستثناء الضرورات الحياتية.

دال : والجهـــاد يعـــني : التـــدريب المتواصل لكل القـادرين على حمل السـلاح أولا أقل للجيش المحـارب ، والتــدريب بــدوره قد يطــول ســنينا وأعواما من تــدريب القادة

والضباط والى تدريب الفرق الخاصة وحتى تدريب الجنود العاديين.

هـــاء : والجهـــاد بحاجة الى تقوية الـــروح المعنوية ، وشحذ العزائم ، وإعداد النفوس لتحمل الصعاب.

وهكذا يكون شكل المجتمع المحـارب مختلفا كليا عن شكل المجتمع السـادر في غيـاهب الاستسـلام والتخلف ، لـــذلك أكـــدّ القـــرآن على هـــذه الحقيقة بالنســـبة الى المنافقين الذين يتشدقون بالمعركة دون أن يصدقوا لعدم القيام بالاعداد لها.

(**وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً**)

والدليل على صـدق النية ، وسـلامة العزيمة الانـدفاع نحو الهدف.

(**وَلكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَهُمْ**)

أي اندفاعهم وتحريك الارادة لهم.

(**فَثَبَّطَهُمْ**)

أي أفقدهم إرادتهم وأقعدهم الأرض.

(**وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ**)

الذين لا حـول لهم ولا قـوة ولا فـرق بين العـاجز عن التحرك ، والمثبط الذي لا يملك ارادة التحرك.

وهكـــذا نجد اليـــوم العـــالم الاســـلامي يتحـــدث عن الاســتقلال دون أن يهيء وســائله أو يتحــدث عن محاربة «إسرائيل» دون أن يعد نفسه جديا لهذه الحرب.

الطابور الخامس :

[47] المنافقون لا يخرجـون للحـرب ، أما لو خرجـوا فليس للحرب ضد العدو ، بل ضد المسلمين وذلك بطـرق :

أولا : انهم سـوف يطـالبون القيـادة أبـدا بالسـلاح والوسائل الرفاهية حتى يتعبوا القيادة ويكونوا زيـادة عنـاء فوق عناء الحرب.

(**لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ**)

أي في صفوفكم.

(**ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالاً**)

أي عناء ، يقول العرب : هو خبال على أهلـه. أي كـلّ عليهم ، وكل عناء يفسد ولا يصلح لأنه يمتص الجهـود دون أن يقدّم شيئا لذلك فسّر الخبال هنا بالفساد والعجز.

ثانيا : انهم مسـارعون الى الفتنة ، والفرقة بين المسلمين ، بل انهم يسارعون بين الصفوف ينقلون لهـذا كلاما ضد ذاك ، فـاذا غضب وبـدرت منه كلمة ضـخموها وحملوها الى الآخرين.

انهم بالتالي يقومون بدور الطابور الخامس للعدو.

(**وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ**)

الكلمة مـأخوذة من الإيضـاع يقـال : أوضع الإبل في سيره أي أسرع والخلال يعني في صفوفكم.

أي انهم يسرعون بين الصفوف بهدف الفتنة.
(يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ)
أي يريــدونكم ان تتحولــوا الى قطعة من الخلافــات الداخلية والبرود عن المعركة.
ثالثا : ان هؤلاء جواسيس للأعداء عليكم.
(وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)
وكل ظـالم ينتهي مصـيره الى هـذه العاقبة ، وهكـذا علينا ألّا ننظر الى ظـــواهر الأشـــخاص ، بل نفكر في تاريخهم وسلوكهم السابق وكيف انهم كانوا يعملون سابقا فإنهم يعملون ذلك مستقبلا.

مراجعة السوابق :

[48] يــذكرنا القــرآن بماضي المنــافقين الأســود ، وكيف انهم كانوا في أيام السـلم يقلبـون الأمـور لرسـول الله (ص) ، ويصورونها تصويرا مقلوبا.
(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ)
جاء في التفاسـير : وقلبـوا لك الأمـور : أي صـرفوها من أمر الى أمر ، ودبـروا لك الحيل والمكائد ، ومنه قـول العـرب حـولّ قلّب ، إذا كـان دائـرا حـول المكائد والحيل يدير الرأي فيها ويتدبره. [1]
وجاء : وقلبوا لك الأمور : أي احتالوا في توهين أمرك وإيقاع الاختلاف بين

(1) الفتح القديم ج 3 / 367

المؤمــنين وفي قتلك بكل ما أمكنهم فلم يقــدروا عليه ، وقيل : انهم كانوا يريدون في كيده وجها من التـدبير فـاذا لم يتم ذلك فيه تركـوه وطلبـوا المكيـدة في غـيره فهـذا تقليب الأمور عن أبي مسلم. [1]

وأتصـور ان تقليب الأمـور للرسـول (ص) (ولم يـأت عليه) يعـني : تبيانها بصـورة غـير صـورتها الحقيقية وذلك للاشــارة الى مــدى كــذب هــؤلاء على الرســول (ص) وتمرسهم في الاشاعات الباطلة والله العالم.

ولكن هذه المحـاولات بـاءت بالفشل فهـذا الـدين قد ظهر ، وذابت تلك الاشـاعات في حـرارة الانتصـار وتحقق الرسالة.

(**حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كارِهُونَ**)

كانوا يحاولون أبدا تحـوير الحقـائق بـأقوالهم وإطفـاء نور الله بما يخرج من أفـواههم من ألفـاظ فارغة لا تعـني شيئا.

واقع المنافقين :

[49] ان بعض المنــافقين يريــدون تطويع الــدين لشهواتهم وأهوائهم ويطالبون القيـادة الدينية بـان تسـمح لهم بارتكــاب بعض المحرمـات. زعما منهم ان لهم الحق في ذلك ويهددون القيـادة بأنها لو لم تـأذن لهم بمثل ذلك لـتركوا الـدين ولخـالفوا أوامر الله ، وتكـون الخطيئة على عـاتق القيـادة الـتي استصـعبت عليهم الأمـور. فهل هـذا صــحيح؟ كلا : إذ ان الــدين هو المهيمن على تصــرفات البشر ، والقائد لمسيرته لا العكس كما يريده المنافقون ، وبالتالي يجب أن يتّبع الدين لا ان يتّبع ، ومن جهة

(1) مجمع البيان ج 5 / 36.

اخـــرى محاولة المنـــافقين بتطويع الـــدين لشـــهواتهم ومطـالبتهم بـالاذن لمخالفة تعـاليم الـدين. هـذه المطالبة ذاتها خروج عن الدين وكفر بـه. إذ ليس بـدين ذلك الـدين الذي يتخذ مطية لأهواء المنافقين.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي**)

ي لا تمتحـني وتجـبرني على تـرك واجب الجهـاد ، بل ائذن لي بتركه حتى يكون تركي للجهاد مسموحا شرعيا.

(**أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا**)

وأي فتنة أكبر من الاستئذان بترك الجهاد.

(**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ**)

فان سيئات أعمالهم وما كسبته قلوبهم وأنفسهم من الرذائل والخطايا هي بذاتها نيران كامنة في صورة نــيران ملتهبة ، أو عقارب وحيات في يـوم القيامة وما دام البشر قد اختــار طريقا منحرفا فــان كل أعماله ســتكون وبــالا عليــه. كما إذا اتخذ قائد الجيش اســتراتيجية خاطئة فــان أساليبه وعملياته ستكون كلها باطلة وغير نافعة.

معرفة المنافقين بعد الانتصار :

[50] بســبب كفر المنــافقين وعــدم إيمــانهم بالله وبالرسالة يرون أنفسهم منفصلين عن المجتمع الرســالي ، فاذا غنم المسلمون شـيئا حزنـوا لأنهم لم يكونـوا معهم حـــتى يغنمـــوا مثلهم ، وان خسر المســـلمون المعركة وانهزمــوا فرحــوا زاعمين ان تخلفهم عن المعركة كــان بسبب صحة مـواقفهم وسـلامة عقـولهم ، وازدادوا بـذلك ابتعادا عن الجبهة الاسلامية.

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ)

أي كنّا عارفين بالعاقبة ، وقد اتخذنا الاحتياطات اللازمة لمواجهة الموقف وذلك بعدم الاشتراك في الجبهة.

(وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

لأنهم في زعمهم لم يخسروا شيئا.

وهكذا يعمل المؤمن ويجلس المنافق يراقب الموقف ليعلق على النتائج.

كيف نتصرف عند المصائب؟

[51] ولكن هل الخسائر التي تلحق الرساليين في ساحة المعركة كلها خسائر. أم انها أقدار كتبها الله عليهم لحكمة بالغة. فدماء الشهداء تكرس في المجتمع القيم الرسالية وإذا لم يقتل الشهداء فإنهم لا يخلدون في الحياة بل كانوا يموتون بسبب أو بآخر ولكن حين استشهدوا وأريقت دمائهم من أجل الرسالة جرت تلك الدماء الزكية في عروق الآخرين للتحول الى عزيمة راسخة وصلابة واستقامة.

وهكذا الخسائر المادية زكاة لأموال المسلمين ، والجهود المبذولة زكاة لابدانهم تطهرهم وتؤهلهم لمسؤولياتهم القيادية.

لذلك قال ربنا :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللهُ لَنا)

فلا حزن مما كتب الله.

ثم ان الله الذي قدر علينا المصيبة هو صاحب النعمة التي سلبها فليس علينا ان نناقش ربنا فيما يكتبه ويقدره.

(**هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)

لذلك فهم لا ينهزمون نفسيا مما يقدر الله عليهم من الهزائم ، بل يعلمون ان الهزيمة خطوة الى الوراء ، وخطوتان الى الامام بإذن الله ، وبفضل التوكل عليه.

النصر أو الشهادة :

[52] وأسوأ الاحتمالات عند المنافقين يعتبر عند المؤمنين أحسن الاحتمالات ، أ وليس الموت آخر ما يخشاه المنافقون ، ولكنه أفضل ما يتمناه المؤمنون أما النصر فهو أمل الجميع وقد يبلغه المؤمنون.

(**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**)

أما النصر أو الشهادة في سبيل الله.

(**وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ**)

وننتظر لكم واحدا من عذابين فاما العذاب في الدنيا بهزيمتكم ، وإما العذاب في الآخرة وذلك بالنصر الظاهر لكم في الدنيا وزيادة ذنوبكم وتحولها الى عقاب شديد في الآخرة.

(**أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ**)

فالجميع ينتظر العاقبة ، والفارق ان الرساليين سيربحون الموقف أما الكفار والمنافقون فإنهم سوف يخسرونه لا محالة بإذن الله تعالى.

قُـلْ أَنْفِقُـوا طَوْعـاً أَوْ كَرْهـاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (53) وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَـرُوا بِاللـهِ وَبِرَسُـولِهِ وَلا يَـأْتُونَ الصَّـلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسـالى وَلا يُنْفِقُـونَ إِلاَّ وَهُمْ كـارِهُونَ (54) فَلا تُعْجِبْـكَ أَمْـوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيـدُ اللـهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَتَزْهَـقَ أَنْفُسُـهُمْ وَهُمْ كـافِرُونَ (55) وَيَحْلِفُـونَ بِاللـهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُـونَ (56) لَـوْ يَجِـدُونَ مَلْجَـأً أَوْ مَغـاراتٍ أَوْ مُـدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْـهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)

56 [يفرقون] : الفرق إزعاج النفس بتوقّع وأصله من مفارقة الأمـوال حال الانزعاج.

57 [مدّخلا] : المدخل المسلك الذي يتدسس بالدخول فيه.

[يجمحون] : الجماح مضي المار مسرعا.

المنافقون والتظاهر بالدين

هدى من الآيات :

استمرارا للحديث عن سلوك المنافقين في الحـرب ، يبين هذا الدرس موقف المنـافقين من المـال وكيف انهم لا ينسـون أنفسـهم كما يفعل المؤمنـون ، بل لا يزالـون حريصـين على المـال فلا ينفقـون منه ولا يتقبل الله منهم نفقاتهم ، لأنهم يعطونها رياء ، وأما أموالهم وأولادهم فهي عذاب لهم في الـدنيا وغـرور يـدفعهم نحو الاسـتمرار في الكفر.

ان علاقة المنـافقين بـالمؤمنين تحـددها مصـالحهم الخاصة ، فاذا وجدوا مغانم ومكاسب بـادروا الى تسـجيل أسمائهم مع المؤمنين وإلا تهرّبوا من المجتمع المسلم وو ذهبـوا الى شـياطينهم ولكن مع كل ذلك تـراهم يحلفـون بالله أبدا أنهم من جمـاعتكم ، والواقع انهم مع مصـالحهم وذلك تراهم كل يوم مع جماعة.

بينات من الآيات :

إنفاق المنافقين رياء أو خوفا :

[53] جـاء في بعض الأحـاديث ، ان إبليس قـال لربه بعد ان امـره بالسـجود لآدم : اعفـني عن ذلك وسـأقوم بسجدة لك طولها أربعة آلاف عام. قال له الله : اني أريد الطاعة ولا أريد العبادة.

وهكذا أحكـام الشـريعة ليست مطلوبة بـذاتها بل انها في حـدود الأوامر الـتي تفرضـها فمثلا لو تـركت صـلاة الصـبح وهي ركعتـان عمـدا ، ثم صـليت بـدلا عنها عشر ركعــات في غــير وقت الصــبح فــان ذلك لن يقبل منك وتكــون آنئذ مثل من لا يحمل جــوازا عند مــروره على الحــدود الخارجية للبلد ولكنه يظهر جــوازه عند شــراء الحاجيات من المحلات التجارية فهل ينفعه ذلك؟!

والمنـافقون لا يطيعـون الأوامر القيادية ثم يقومـون ببعض العبادات الـتي لا تـؤثر على مـواقفهم فلا يقبل ذلك منهم ، فهم يتمـردون على أمر القيـادة بالجهـاد ، ولكنهم يريدون تعويض ذلك بالإنفـاق مكـان حضـورهم في الجبهة فان الله لا يتقبله.

(**قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ**)

فالفاسق الــذي يــرفض الانقيــاد لاوامر الســلطة الشرعية لا تقبل منه نفقاته لان هـذه النفقـات ليست لله بل لتعزيز مكانته وشراء ذمة السلطة لئلا تضرب مصالحه ، ومثل هـــــؤلاء في بلادنا مثل بعض الرأســــماليين والاقطـاعيين الكبـار الـذين يحـاولون شـراء ذمة الجهـات الدينية والثورية بدفع بعض المـال تحت واجهة التبرعـات ، وما هي بتبرعات ولكنها رشوة (!) وعلى تلك الجهـات ان تــرفض تلك التبرعــات أو تقبلها دون أن تتقبلها بل تبقى في عــدائها المســتمر للاســتغلال والابــتزاز ، حــتى بعض

الغنية تقوم ظاهرا بـدفع مبـالغ لهـذه الثـورة أو تلك باسم خدمة الانسانية ، ولكنها تسـتغل جماهيرها وثـروات بلـدها لمصلحة شياطين الدنيا. ان على الثـورات أن تتفهم دوافع النفقـات الـتي يعطيها البعض وتتحـذر من شـرك الرشـوة والفساد.

[54] ويفصل القــرآن دوافع المنــافقين من الإنفــاق والسبب الذي يرفض الله تقبل إنفاقهم من أجله.

(**وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَــلَ مِنْهُمْ نَفَقــاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ**)

فلم يطبقوا واجبات التسليم للسلطة الشرعية.

(**وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسالى**)

فلم يتجذر الايمان في نفوسـهم وانما يصـلّون للعـادة أو للرّياء.

(**وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كارِهُونَ**)

إنفــاقهم انما هو بســبب خــوفهم من الســلطة أو محاولتهم شراءها فحتى لو كان الإنفاق طوعا فـان دافعه ليس الايمان بل الخوف ، فهو مثل من يخـاف من الاقامة في بلد فيبيع بيته ليهرب بنفسه فالبيع ظـاهرة طوعيـة. إذ انه يقـدم عليها بلا إجبـار ويتوسل بالنـاس أن يشـتروا منه بيته ويفـــرح لو وجد من يشـــتريه منه بـــأي ثمن ، ولكن مجمل العملية يكون بالإكراه لان الدافع الأساس للـبيع هو الخوف.

وربما كـــــــان في الآية الاولى دلالة على ان الدولة الاسـلامية تجـبر المنـافقين على دفع الضـرائب وخلافها ، ولكن الله لا يثيبهم عليها.

لماذا أعداء الرسالة منعّمين؟

[55] قد يســتهوي ظــاهر المنـــافقين طائفة من المؤمنين والرساليين فيفكرون في

كسـبهم لاسـتقطاب امكانـاتهم المادية لمصـلحة الرسـالة وبذلك يقدمون تنازلات لهذه الطائفة الفاسـدة ، والقـرآن يحـذر من ذلك بشـدة ويـبين ان امكانـات هـذه الطائفة لا تنفع الرسالة لأنها متصـلة بسـلوك فاسد وضـمائر فاسـدة وهي بالتـالي نتيجة وضع فاسد ، وإفـراز لوضع فاسد فهي تضر ولا تنفع.

(**فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ**)

ان الـــثروة الـــتي جمعت من الابـــتزاز والســـرقة والاسـتغلال سـحت وفسـاد وهي لا تصـلح ان تكـون في خدمة الرســـالة كـــذلك الولد الناشئ في بيت الـــدلال والميوعة وبالتربية الفاسدة لا ينفع كسبه شيئا.

ولكن لماذا أعطاهم الله المال والولد؟

(**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**)

فالمــال الســحت والولد الفاسد ليس نعمة بل نقمة يعذب بها صاحبها.

(**وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ**)

فـالغنى والشـرف الاجتمـاعي يعطيـان الفـرد غـرور العظمة ، فيكفر بالله ولا ينتبه لواقعه الضعيف البـائس إلا بعد الموت.

[56] والمنافقون ليسوا من المجتمع المسـلم ، لأنهم لا يشاطرون الامة مصاعبها ومصائبها.

(**وَيَحْلِفُـــونَ بِاللـــهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ**)

فمن شـدة خـوفهم تـراهم يتظـاهرون بـانّهم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون أي يخافون

لا أكثر ولا أقل.

[57] (**لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ**)

والدليل على ان تظاهرهم بالدين إنّما هو من خـوفهم : انهم لو وجدوا أي وجه للفـرار منكم لأسـرعوا اليه ، كما لو وجدوا قوما يلجأون إليهم. أو وجـدوا كهوفا في الجبـال ومغـارات. أو حـتى إنفاقا وأسـرابا في الأرض لـرأيتهم يتجهـون إليهـا. وهم يسـرعون من دون أن يمنعهم وفـاء بالعهد. أو بقية ذمة أو ضمير.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِـزُكَ فِي الصَّـدَقاتِ فَـإِنْ أُعْطُـوا مِنْها رَضُـوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَـوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْـخَطُونَ (58) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْـبُنَا اللـهُ سَـيُؤْتِينَا اللـهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَرَسُـولُهُ إِنَّا إِلَى اللـهِ راغِبُـونَ (59) إِنَّمَا الصَّـدَقاتُ لِلْفُقَـراءِ وَالْمَسـاكِينِ وَالْعـامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَـةِ قُلُـوبُهُمْ وَفِي الرِّقـابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)

كيف تصرف الصدقات؟

هدى من الآيات :

الانتماء الى القيـادة الرسـالية عند المنـافقين انما هو انتمـاء مصـلحي. فـان أعطـوا من الصـدقات وبيت المـال شيئا رضـوا وإلّا فـانّهم سـوف يسـخطون ، وهم يشـيرون الى ذلك من خلال كلماتهم وتصرفاتهم!

بينما الانتماء السليم هو الانتماء الايماني الـذي يسـلم الفــرد نفسه لله وللرســول وللقيــادة الرســالية ويطمئن نفسيا بـأوامر القيـادة انتظـارا لفضل الله الكبـير المتمثل في الرخاء والرفاه لكل أبنـاء المجتمع ، وذلك لا يكـون إلّا بعد الرغبة الى الله.

أما الصــدقات وأمــوال بيت المــال فهي ليست لمن أراد. انما هي للضـــعفاء من أبنـــاء المجتمع ـــ الفقـــراء والمساكين والموظفين العاملين على الصدقات. والجنـود الذين يؤلف قلوبهم من سائر الأديـان ليحـاربوا الى جـانب الدولة الاسلامية والعبيد المديونين الغارمين. و في ســبيل المصـالح العامـة. ومنها الـذين ينقطع بهم الطريق وتنتهي نفقـاتهم وزادهم .. ــ هـذه هي مصـارف الصـدقات والله عليم بالحاجات

الحقيقية حكيم يأمر بما فيه المصلحة.

بينات من الآيات :

الانتماء المصلحي

[58] الفـرق بين تركيبة المجتمع المسـلم الرسـالي وبين المجتمعـات الاخـرى. أن الحبل الرابط بين أبنـاء المجتمع الرسـالي هو المبـدأ فالإيمـان بالإسـلام هو الـذي يجعل مجموعة من البشر المختلفين (ثقافيا ـــ طبقيا ـــ عنصريا ـ ولونا ـ ولغة ـ وقوميا) يـذوبون في بوتقة الامة الواحدة ذات القيادة القويمة القوية.

وكل فـرد يسـلم عمليا ونفسـيا لهـذه القيـادة ويجعل انتمـاءه إليها مشـروطا بمـدى تجسـيد القيـادة للقيم الرسالية وتنفيذها للواجبات الدينية.

لذلك تـرى القيـادة هنا متحـررة من الضـغط والأغلال فلا تخشى انهيار صرح قيادتها لو خالفتها طبقة أو سحقت امتيازا أو ألغت عادة عشائرية شاذة.

الانتمـاء الى القيـادة ليس على أسـاس المصـالح المادية حتى إذا فقدت القيادة الثروة ضعفت أو انهـارت ، ولا هي قائمة على أساس عشائري أو قومي حـتى تكـون قائمة على ظلم سـائر العشـائر والقوميـات ، وإعطـاء المزيد من الامتيازات لهذا أو ذاك ، كلما شعرت بالضعف.

أما المنـافقون فـإنهم يريـدون القيـادة بقـرة حلـوب يحبونها ما دامت تعطيهم لبنا سـائغا ، وإلّا فهم ينقلبـون عليها.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ**)

أي يتصرف بطريقة توحي باستعطائك من الصدقات. والصدقات ـ حسبما

يبدو لي ـ كل الأموال التي ينفقها المؤمنون بوازع يماني.
(**فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُـوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَـوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ**)
على القيادة ويعارضونها.
[59] بيد أن تشجيع العمل الصالح في المجتمـع. انما يتم بتكافؤ الفرص الذي يضمنه القانون الاسـلامي وتطبقه القيـادة العادلة النابعة من ايمـان الجمـاهير بالإسـلام ، وتسليمهم النفسي للقيادة. ان هذا القانون هو الذي يـدفع الجميع الى العمل البناء ويوفر الأمن والتقدم للجميع.
وهو بالتـالي أنفع من أصـحاب الامتيـازات الباطلة الذين يحاولون تحريف المجتمع باتجاهها.
(**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتـاهُمُ اللـهُ وَرَسُـولُهُ وَقـالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**)
فحين تلغى الامتيـازات يتقـدم الجميع بسـبب العمل البنـاء الـذي ينعكس على كـلّ حقـول الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية.
(**إِنَّا إِلَى اللهِ راغِبُونَ**)
فحتى لو لم أحصل شخصيا على مكسب في الـدنيا ، فان الجزاء في الآخرة سوف يتضاعف.

أين تصرف الصدقات؟

[60] أما مصـارف الصـدقات فتكـون في الطائفة الضعيفة وليس لأصحاب

الامتيازات.

(**إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ**)

الفقــراء هم الطبقــات المحرومة الــتي لا يفي دخلها بمصــارفها حسب المســتوى الاجتمــاعي في ذلك العــرف. أما المساكين فهم المعدمون الذين أسكنهم الفقر والعجز عن الاكتساب.

(**وَالْعامِلِينَ عَلَيْها**)

أي القائمون على الصدقات من الموظفين.

(**وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ**)

من الجنــود الــذين لم يــدفعهم الايمــان الى الانخــراط في هــذا الســلك ، بل العــوز وهم غالبا يكونــون من غــير المؤمنين.

(**وَفِي الرِّقابِ**)

وهم العبيد الــذين يعتقــون من بيت المــال ليعــاد لهم حريتهم السلبية بسبب الأسر.

(**وَالْغارِمِينَ**)

الذين لا يقدرون على الوفاء بديونهم.

(**وَفِي سَبِيلِ اللهِ**)

أي في كــلّ مصــلحة أمر بها الله من بنــاء الجســور ، وتعبيد الطرق ، وإقامة المشاريع

الانمائية ، والخدمات الصحية .. وما أشبه.

(**وَابْنِ السَّبِيلِ**)

وهو المسـافر الـذي انقطع عن أهله ولا يملك ما يوصله إليهم ، فيدفع اليه زادا ونفقة كافية.

(**فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

وتجديد مصـارف الأمـوال العامة خصوصا بعد ذكر كلمة الحصر (إنّما) ينقطع أمل المنافقين من الطفيليين وأصحاب الامتيازات ، فلا يطمعون في ابتزاز القيادة الاسلامية ، واننا نجد في سلوك الامام علي (عليه السلام) مع أخيه عقيل ، ومع أصحاب الامتيازات الباطلة ما يجعلنا نفهم بعمق طبيعة القيادة الرسالية.

لقد جاء عقيل الى علي (عليه السلام) وهو أمير المؤمنين يطالبه بزيادة في العطاء ـ وقد أملق إملاقا ـ فحمى علي (عليه السلام) حديدة وقربها الى يده وكان عقيل ضريرا ، وكانت له عائلة كبيرة ، فمدّ يده ليأخذ المال بزعمه فاذا به يحس بحرارة الحديدة فقال له :

«**ثكلتك الثواكل يا عقيل أ تئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه. أ تئن من الأذى ولا أئن من لظى**»؟!

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَـةٌ لِلَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُـؤْذُونَ رَسُـولَ اللـهِ لَهُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ (61) يَحْلِفُــونَ بِاللــهِ لَكُمْ لِيُرْضُــوكُمْ وَاللــهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَـهُ نـارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)

المنافقون يحاددون الرسول

ويسترضون المؤمنين

هدى من الآيات :

بسبب تمرد المنافقين على القيادة الرسالية المتجسدة في شخص النبي (ص) كان الناس ينظرون إليهم شزرا ، فكان المنافقون يحاولون تبرير مواقفهم.

أولا : بالادعاء الكاذب ان الرسول لا بأس به ولكن يحيط به رجال يغذونه بالاخبار والمواقف المضادة بنا ، ولهذا فنحن نخالفه لا لأنه ـ لا سمح الله ـ يكذب أو يتخذ مواقف باطلة ، وفضحهم القرآن بان الرسول يستمع فقط الاخبار التي هي في مصلحة المؤمنين ويعمل لهذه المصلحة ، وبالتالي فان موقفه من الناس لا يحدده الخبر ، بل قيمته المتجسدة في الايمان ، فلو كنتم مؤمنين لاستطعتم أن تفوزوا برحمة الرسول.

ثانيا : كانوا يحلفون بالله لتبرير نفاقهم ، ويدّعون بأن مخالفتهم لا تعني مخالفة المجتمع المسلم ، ويردهم القرآن بأن الله أحق أن يرضوه بصدق النية وإخلاص العمل ، وكذلك الرسول بالتسليم والطاعة.

ويـبين القـرآن ان من يتجـاوز حـدود الله والرسـول ، ويخالف أوامر الله فان جـزاءه المعـدّ له نـار جهنم خالـدا فيها.

بينات من الآيات :

القنوات الخبرية في الإسلام :

[61] كثــيرا ما نجد المســتكبرين الــذين يخــالفون القيادات الرسـالية بسـبب أو بـآخر لا يجـرءون على النيل من شخصــية القائد ، ولو فعلــوا لم يســتمع إليهم أحد ، لذلك تراهم يتعرضـون لمن حـول القائد ، ويشـككون في أجهزته وقنواته الخبرية ، ويــدعون بــان القائد بســيط وســاذج أو أنه إنســان طيب يثق بكل النــاس ، وأن من حوله يســـتغلون طيبه في إملاء المواقف الباطلة عليه ، وهكذا قال المنافقون عن الرسول ، ولكن نعلم سـلفا ان هـدف هـؤلاء هو شـخص القائد وانهم يحاربونه نفسـيا ، ويتعمدون إيذاءه عن طريق مثل هذه الاشاعات حوله.

(**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**)

أي انه يسمع كل من يتحدث اليه ، ويقبل كلام الناس دون تمحيص أو نقد.

ولكن هل هذا صحيح؟ كلا .. ولعدة أسباب منها :

ان أي قائد هو مســـئول عمن حوله وعن أجهزته ، والقائد الرســالي يختــار اجهزته من بين أنقى النــاس ، وحتى لو لم يقدر فهو لا يسـلم نفسه لمن حوله ان كـانوا انتهـازيين ، وهكـذا كـان حـول الرسـول رجـال صـادقون اختبــارهم بدقة ، أما غــيرهم فلم يكن يتــأثر بكلامهم الرسول (ص).

ومنها : ان هدف الرسـالي هو تحقيق مصـلحة الامة ، ولذلك فهو لا يسمع الاخبار المسيئة بشخصية هـذا أو ذاك ، ولا يتأثر بالصراعات القائمة داخل المجتمع المسلم

والتي يحاول كل طرف منها تجيير شخصية القائد لحسابه ، ولذلك فهو هدف مسبق.

ومنها : ان هـــدف الرســـول وكل قائد رســـالي هو اشاعة الرحمة والبركة لكل أبناء المجتمع القـريب والبعيد ، وأشارت الآية الكريمة الى هذه الحقائق قائلة :

(**قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ**)

فهو لا يسمع الشائعات المضادة لمصلحة الناس.

(**يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**)

فالإيمـان بالله يجعل القائد بعيـدا عن التـأثر بـالأقوال الكاذبة.

(**وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ**)

فهو رحمة للجميع.

(**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

كيف يثبت المنافقين انتماءهم؟

[62] ثم ان المنـافقين يحـاولون شق عصا المؤمـنين وبناء جدار بين القيادة الرسالية والمجتمع ، لذلك ..

(**يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ**)

فان كانوا جزء من أبناء المجتمع المسـلم فـان عليهم ان يرضـوا الله والقيـادة الرسـالية ، ومن يقـاوم القيـادة الرســالية فانه لا يمكنه الادعــاء بأنه ليس بعــدوّ للمجتمع المؤمن بالقيم ، والقائم على أساسها.

[63] والذين يحاربون الله ورسوله والقيادة الرسالية ، ويحاولون تجاوز حدود الله فان الجزاء المعدّ لهم جهنم.

(**أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَـأَنَّ لَـهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ**)

أن تنتهي حياة البشر الـتي هي الفرصة الوحيـدة بنـار خالدا فيها ، أو ليس ذلك خزي وذلّ عظيم.

يَحْذَرُ الْمُنـافِقُونَ أَنْ تُنَـزَّلَ عَلَيْهِمْ سُـورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْـرِجٌ ما تَحْـذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ لَيَقُـولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُـوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللـهِ وَآياتِـهِ وَرَسُـولِهِ كُنْتُمْ تَسْـتَهْزِؤُنَ (65) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمـانِكُمْ إِنْ نَعْـفُ عَنْ طائِفَـةٍ مِنْكُمْ نُعَـذِّبْ طائِفَـةً بِـأَنَّهُمْ كـانُوا مُجْـرِمِينَ (66) الْمُنـافِقُونَ وَالْمُنافِقـاتُ بَعْضُـهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِـالْمُنْكَرِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمَعْـرُوفِ وَيَقْبِضُـونَ أَيْـدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِـيَهُمْ إِنَّ الْمُنـافِقِينَ هُمُ الْفاسِـقُونَ (67) وَعَدَ اللـهُ الْمُنـافِقِينَ وَالْمُنافِقـاتِ وَالْكُفَّارَ نـارَ جَهَنَّمَ خالِـدِينَ فِيها هِيَ حَسْـبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللـهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (68)

يستهزئ المنافقون ،

ويعدهم الله نار جهنم

هدى من الآيات :

يذكرنا السـياق القـرآني ببعض مواصـفات المنـافقين الذين يشـكلون الطـابور الخـامس للعـدو وأبرزها حـذرهم من الفضـيحة ، وفي ذات الـوقت اسـتهزاءهم بالرسـالة ، واتخـاذ مجمل الحيـاة لعبا ولهـوا ، ولكن هل يمكن اللعب بالحقيقة؟

ان أولئك الـذين حوّلـوا الاسـتهزاء الى مرحلة العمل الاجرامي ، انهم سوف ينتظرهم العـذاب. اما غـيرهم فقد يغفر لهم. بيد ان هــذا لا يعــني تقســيم هــذه الطائفة إذ النفـاق صـفة مشـتركة فيهم ، ولـذلك بعضـهم من بعض وبعضهم يـؤثر سـلبيا في البعض عن طريق الأمر بـالمنكر والنهي عن المعـروف واثـارة السـلبيات. ان هـؤلاء نسـوا الله وغفلـوا عن انه فعّـال لما يريد وهو الـذي يـدبر حيـاة الناس. وانه سـبحانه نسـوا الله وغفلـوا عن انه فعّـال لما يريد وهو الـذي يـدبر حيـاة النـاس. وانه سـبحانه نسـيهم لفسقهم وسوء أعمالهم ، ووعدهم هم والكفـار نـار جهنم خالدين فيها وهي تكفيهم عذابا وجزاء ، وأبعدهم عن نعمه ولهم عذاب مقيم في الدنيا.

بينات من الآيات :

خوف المنافقين من الفضيحة :

[64] بـالرغم من يقين المنـافق بـأن الـوحي حق ، وخشيته من افتضاح أمره عن طريق نـزول سـورة قرآنية تكشف خططهم وربما أسـمائهم بـالرغم من ذلك فهم يستهزءون ولا يتخذون الرسالة أمرا جديا لخـور عـزيمتهم وضـعف إرادتهم وعصف الشـهوات بنفوسـهم المنهـارة ، ولكن الله سـوف يخـرج ما في قلـوبهم وما يحـذرون من نشره.

(**يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُـورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ**)

من الاستخفاف بالرسالة واتخاذها هزوا.

(**قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ**)

[65] ولكن لمـاذا يسـتهزئ هـؤلاء بالرسـالة أو لا يؤمنون بأنها حق ، بلى ولكنهم يتخذون الحياة لعبا.

(**وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ لَيَقُـولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُـوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ**)

فليست هـذه الحقـائق قابلة للاسـتهزاء لأنها حقـائق حاسمة ذات خطوة كبيرة بالنسبة لمستقبل البشر.

متى يتحول المنافق الى مجرم؟

[66] وحين يأتي عذاب الله وتنتقم هذه الحقـائق من المنافقين يشرعون بالاعتذار.

(**لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ**)

والمعـــذرة انما تنفع الغافل أو الجاهـــل. أما الـــذي استسلم لضغط الشهوات وكفر بالله بعد إيمانه فـان ذلك لا ينفعه.

(**إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ**)

لصـدق تـوبتهم وخفة جـرمهم ، ولكن الطائفة الثانية المجرمة حقا لا بدّ ان تنال جزاءها العادل.

(**نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ**)

[67] ولكن لا يعـني هـذا ان النفـاق ذاته ليس جرما ، كلا .. إذ مجــرد ظهــور النفــاق عند أحد يدخله في قائمة المنافقين ، ويجعله شريكا لتصرفاتهم لطبيعة التفاعل بين أعضـــاء الكتلة الواحـــدة فبعضـــهم يشـــجع البعض على الاستمرار في الطريق المنحرف.

(**الْمُنـــافِقُونَ وَالْمُنافِقــاتُ بَعْضُـــهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِـالْمُنْكَرِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمَعْـرُوفِ وَيَقْبِضُـونَ أَيْدِيَهُمْ**)

فلا يقومـــون بعمل ايجـــابي في ســـبيل تقـــدم الامة وصلاحها ، وهذا وحـده يكفي ظلما لحقـوق الامة ومخالفة لواجبات الإسلام.

(**نَسُـــوا اللـــهَ فَنَسِـــيَهُمْ إِنَّ الْمُنـــافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ**)

كيف ينسى البشر ربّه؟

انه يلاحظ فقط ظــواهر الأمــور ولا يتعمق فيما وراء الظواهر من سنن وأنظمة

وتقديرات ، وأن الله سبحانه هو الذي يجري أمـور الحيـاة حسب علمه وحكمته ، وهكـذا اغفلـوا دور التـدبير الالهي ومن ثم الرسـالة الالهية في حيـاتهم فتجـاوزهم التـدبير الالهي فلم يحفل بهم وبتطلعـاتهم وكـرامتهم وصـدقهم. والسـبب ان نسـيان الله واغفـال تـدبيره للحيـاة يشـجع المنافق على ارتكـاب المعاصي والفسق ، وعاقبة الفسق معروفة.

عاقبة النفاق النار :

[68] ان عاقبة الفسق هي عاقبة النفـــــــاق عموما وعاقبة الكفر بصورة أعم .. فما هي؟

(**وَعَدَ اللـهُ الْمُنـافِقِينَ وَالْمُنافِقـاتِ وَالْكُفَّارَ نـارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ**)

ولكن بالرغم من ان نار جهنم تكفيهم جزاء وألما فان لهم أيضا جزاء آخر هو : ابعادهم عن رحمة الله في الـدنيا ، وأيضا العذاب الدائم الذي يقيمون فيه أبـدا وهو العـذاب النفسي وتناقضهم مع تيار المجتمع ومع أنظمة الحياة.

(**وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ**)

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْـوالاً وَأَوْلاداً فَاسْـــتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْـــتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْــــتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْــــتُمْ كَالَّذِي خاضُـــوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمـــالُهُمْ فِي الـــدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (69) أَ لَمْ يَـأْتِهِمْ نَبَـأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَـوْمِ نُـــوحٍ وَعـــادٍ وَثَمُــودَ وَقَــوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَـدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكـاتِ أَتَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيـاءُ بَعْضٍ يَـــأْمُرُونَ بِـــالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـــوْنَ عَنِ الْمُنْكَـــرِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكـاةَ وَيُطِيعُـونَ اللـهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُـوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)

هكذا كانت عاقبة المستهزئين

هدى من الآيات :

النفـاق تيّـار اجتمـاعي وليس عملا فرديا أو سـلوكا منفصلا عن سـلوك الآخـرين وهو في ذات الـوقت تيـار تاريخي علينا أن نـدرك علاقته من خلال عاقبة مثيلاته في الماضي ، فقد كان من قبل هؤلاء المنـافقين من هو أشـدّ منهم قـوة وأكـثر أمـوالا وأولادا عـدّة وعـددا ولكنهم اسـتهلكوا ما كـانت لـديهم من قـوة ومتع ، وهـؤلاء المنـافقون يسـيرون على ذات الخط وكـانت عاقبة أولئك حبط أعمالهم في الـدنيا والآخـرة ، وخسـارة فرصـهم في الحياة الدنيا.

ومثل هؤلاء يتجسد في قوم نـوح وعـاد وثمـود وقـوم إبراهيم وأصحاب مدين وكذلك المؤتفكـات الـذين ظلمـوا أنفسهم وأهلكهم الله بعد أن أنذرهم بالرسل والبيّنات.

وكما ان المنـافقين تيـار اجتمـاعي تـاريخي فكـذلك المؤمنون بعضهم أولياء بعض ، وهم يتفاعلون مع بعضـهم في القيم السامية حيث يأمرون بالمعروف وينهون عن

المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة كفــرائض اجتماعية اقتصادية ، ويخضعون للقيادة الرسالية حيث يطيعـون الله ورسـوله ، وأولئك سـيرحمهم الله ، ويـنزل عليهم الرخـاء ان الله عزيز حكيم ، هـذا في الـدنيا ، أما في الآخـرة فقد وعدهم الله جنـات تجـري من تحتها الأنهـار خالـدين فيها ، وأكبر من ذلك هو الفوز العظيم.

بينات من الآيات :

دروس من التاريخ :

[69] لكي يرتفع البشر عن حـدود المـؤثرات العاجلة في ســــلوكه فعليه أن يتمتع برؤية تاريخية ، وينظر الى حياته من خلال بصائر الماضي وسننه ، والمنــافق إذا نظر الى نظرائه في التـاريخ وكيف كـانت عـاقبتهم إذا لـتراجع عن نفاقه ، ولــذلك يــذكر ربنا المنــافقين بمن ســبق من أسلافهم ويقول :

(**كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَـدَّ مِنْكُمْ قُـوَّةً وَأَكْثَـرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً**)

وهـــذا اكتملت فيهم أســباب القـــوة واغـــتروا بها فاستخدموا قوتهم في تحقيق مطامحهم الخاصة من دون اهتمـــام بواجبـــاتهم الدينيـــة. تماما كما يفعل المنـــافقون اليوم.

(**فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ**)

أي انهم اســتفادوا من نصــيبهم في الحصــول على المتعة كما تفعلون أنتم ، فعليكم ان تقيسوا أنفســكم بهم وتنظرون كيف كان مصيرهم.

(**وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا**)

أي كما انهم خاضــوا في غمــرات الشــهوات دون أن يحددوا شهواتهم بالعقول ، أو يسـتلهموا في أعمـالهم من الوحي ، فأنتم كذلك خضتم اتباعا لهم وتقليدا. فما

كانت عاقبة أولئك؟

(**أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ**)

أي خسـرت أعمـالهم الايجابية الـتي عملوها من أجل الدنيا أو من أجل الآخرة وذلك بسبب أفعالهم السيئة.

(**وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**)

[70] المنــافق والكــافر يشــتركان في مصــير واحد لأنهما يشتركان في اتباع الشهوات ، ومصير الكافرين في التاريخ عبرة كافية للمنافقين أيضا.

(**أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُـوحٍ وَعـادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ**)

أي قوم شعيب الذين أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة.

(**وَالْمُؤْتَفِكاتِ**)

أي المنقلبات وهي مدن قوم لوط.

(**أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كـانَ اللـهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)

ظلموا أنفسهم بترك البيّنات ، والكفر بالرسل.

صفات المؤمنين :

[71] وفي مقابل التيّـار المنـافق نجد التيّـار المـؤمن الذي يتماسك أبناؤه بآصرة

الـــــولاء الواحد ، والثقافة المشــــتركة حيث يـــأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

(**وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنـاتُ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيـاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**)

كما ان الشعائر الواحدة تزيد ترابطهم كالصـلاة الـتي يقيمونها فهي كما عمـــود مســـتطيل يرفع خيمتهم فهي ليست عبـادة فقط ، بل وأيضا ظـاهرة اجتماعية سياسـية خصوصا حينما تقام جماعة أو في الأعياد والجمعات.

(**وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ**)

والزكاة بــدورها فريضة الهية تقيم المجتمع ، وتحافظ على تماســـكه ، وانتشـــــار روح العدالة والمســـاواة ، والمجتمع المســـلم ذو قيـــادة مشـــتركة ومتجـــذرة في نفوسهم.

(**وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُـولَهُ أُولئِكَ سَـيَرْحَمُهُمُ اللـهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

أي ان رحمة الله تتـــنزل على المجتمع والله قـــوي شاهد في أحداث المجتمع ويعامل النـاس بحكمته فيعطي الناس حسب أفعالهم وجهودهم ونياتهم.

[72] والله سبحانه وعد أبناء هذا التيار المؤمن حيــاة سعيدة في الآخرة كما منعهم ذلك في الدنيا.

(**وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَـةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ**)

ليس لها خريف أو شتاء أو زوال.

ولكن أكبر من ذلك رضا الله.

(**وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**)
وهـذا الرضـوان دليل توافق أعمـالهم في الـدنيا مع تعاليم الشريعة.
(**ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (74) وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (78)

هكذا امتحنهم الله بالثروة

هدى من الآيات :

لا يـزال السـياق القـرآني في سـورة التوبة المباركة يحدثنا عن صفات المنـافقين ، فبعد ان يـأمر الله رسـوله الأكـرم (ص) بـأن يبـدأ جهـادا دائما وصـعبا مع الكفـار والمنـافقين وأن يغلظ عليهم لأن نهـايتهم ليست الا النـار التي ساءت مصيرا بعدئذ يـبين لنا القـرآن الحكيم صـفات المنـــافقين ومن أبرزها حالة الازدواجية عنـــدهم فهم يحلفـــون بالله بـــأنهم لم يقولـــوا كلمة الكفر بينما في الحقيقة إنهم قـــالوا هـــذه الكلمة منذ زمـــان. حيث أنهم كفـروا واقعا بعد أن أسـلموا ظـاهرا كفـروا حينما رأوا أن مسئوليات الإسلام كبيرة وانهم دونها.

وأمـامهم الآن أحد الخيـارين الرئيسـيين فاما العـودة الى احضـان الإسـلام واما انتظـار عـذاب اليم في الـدنيا والآخرة من دون أن يكون لهم نصيرا أو ظهـير في الأرض أو في السماء.

ومن المنـافقين أولئك الـذين يبحثـون عن فرصة في الحياة و يدّعون بأنهم لو

جـاءتهم هـذه الفرصة تـراهم يعطـون كل ما يملكـون من أجل الله وأنهم يسـتغلون الفرصة هـذه اسـتغلالا حسـنا. ولكن حينما يعطيهم الله ويـوفر لهم هـذه الفرصة تـراهم بعكس ذلك تماما انما يحـاربون الله ورسـوله ويقـاومون الرسـالة وهكـذا لا يسـلب منهم الله تلك الفرصة فحسب وانما أيضا يزرع في قلوبهم حالة من النفاق تستمر معهم الى النهاية لأنهم لم يستغلوا فرصتهم الحسـنة بل قـاوموا وغيروا دين الله.

بينات من الآيات :

جاهد الكفار والمنافقين :

[73] (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِـدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنـافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**)

أولا : يربط القرآن بين فئتي الكفار والمنافقين ويأمر الرسول بجهادهم جهـادا مسـتمرا وأن يغلظ عليهم وأن لا تأخذه بهم في الله رأفة.

لان مصير المنافقين النار ومن يكون مصيره الى نـار جهنم لا يمكن ان يرحمه العبـاد أو يرحمه من يجسد ارادة الله في الأرض وهو الرسول والقيادة الرسالية.

ثم يبين أبرز صـفات المنـافقين وهي الازدواجية الـتي يقول عنها ربنا في هذه الآية :

(**يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ**)

ثانيا : أنهم حاولوا تغيـير نظـام الحكم عن طريق قتل الرّسول أو إخراجه أو إفساد الوضع السياسي.

ثالثا : لم يشـكروا نعمة الأمن والرخـاء الـتي وفرها الإسـلام لهم ، وهـؤلاء المنـافقون ان تـابوا الى الله قبلت توبتهم والا فان عذابا أليما ينتظرهم في الدنيا

والآخرة ، ولا أحد يواليهم أو ينصرهم.
رابعا : النفـاق صـفة كامنة في النفس تظهرها النعمة ، فمن الناس من يتمنى الغنى ويتعهد مع الله ان لو أغنـاه الله لأعطى حق النعمة فتصـــدق وعمل عملا صـــالحا ، ولكن حين أتـــاه الله من فضـــله أمسى بخيلا بالنعمة ، وعمل عملا سيئا مما كرّس في ذاته حالة النفاق الى يـوم القيامة وذلك بسـبب خلفهم لوعـدهم ونكثهم لعهـدهم مع الله ، ولكن ذلك الوعد كان كاذبا منذ الأساس ، وكان الله عالما بقلـــوبهم ، كما ان تـــبريراتهم الجديـــدة كاذبة هي الاخرى مثل تسويف الإنفاق ليوم الحصاد أو ربح التجارة.

من صفات المنافقين :

[74] ان من صفات المنافقين ، الحلف الكـاذب بالله ذلك لأنهم يعرفون انهم متهمون.
(**يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ**)
وقد يكون هؤلاء قد قالوا كلمة ضد السلطة الاسلامية وقيـــادة الرســـول واعتبرها القـــرآن كلمة الكفـــر. بينما اعتبروها كلمة عاديّة ، وهكـــذا المنـــافقون في كل يـــوم يزعمـــون ان الكفر ينحصر فقط في ســـبّ الله تعـــالى ، وانكار وجوده سبحانه بينما ليس الأمر كذلك ، بل مناهضة سلطة الإسلام أو مخالفة ثورة المسـلمين الصـادقين ضد سـلطات الطـاغوت هي الاخـرى كفـر. لـذلك أكد القـرآن على ان كل ذلك يعتبر كفرا بعد إسلام.
(**وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ**)
والإسلام هنا ـ كما يبـدو ـ هو التسـليم لله وللرسـول والخضوع للقيادة الرسالية

لذلك جاء في بعض التفاسير «نزلت ـ هذه الآية ـ في عبد الله بن أبيّ بن سـلول حين قـال : (**لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**))».

فبـالرغم من ان هـذه ليست سـبّ لله أو الرسـول ، ولكنها كلمة كفر لأنها تمـرد على الإسـلام لله وللرسـول ، وفي الكلمة التالية اشارة الى هذه الحقيقة :

(**وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا**)

فلقد همّوا بإخراج الرسول ، وإفساد الناس ليقـاوموا سـلطة الرسـالة عن طريق بثّ الإشـاعات الباطلة مثل قـول أحد المنـافقين واسـمه جلاس قـال بعد خطـاب الرسـول وهو يثـير رفاقه ضد الرسـول : والله لئن كـان محمد صادقا فيما يقول فنحن شرّ من الحمير.

ولقد حـاول بعضـهم قتل الرسـول في قصة معروفة عـرفت بليلة العقبة حيث أرادوا تنفـير ناقة الرسـول عند وصولها قريبا من العقبة وهي منعطف خطـير في الجبل ، وبالطبع إذا نفـرت الناقة في ذلك المكـان بالـذات أوقعت الرسول في الوادي.

كما حـاول البعض إخـراج الرسـول مثل عبد الله بن أبيّ.

كما قام بعضهم بالفساد والتخريب.

ان كـلّ هـذه المحـاولات كـانت تهـدف بالتـالي شـيئا واحدا هو تغيير نظام الحكم ، والتسلط على رقاب النـاس ولكن لم يوفقّوا.

(**وَما نَقَمُـوا إِلَّا أَنْ أَغْنـاهُمُ اللـهُ وَرَسُـولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**)

لماذا نافق هؤلاء ، ومتى؟

السـبب ان بعض النـاس يكونـون أشـداء ضد من يحسبون انهم ضعفاء ، وضعفاء أمام الأقوياء.

ولهذا حينما كان المنافقون في أوضاع شـاذة ، يلفهم الفقر والتخلف والعـذاب ، ويتحكم في رقـابهم حفنة من الشيبة باسم القبلية ، أو حفنة من التجار اليهـود. حينـذاك لم يفكـروا في الثـورة ، ولم يحـاولوا إنقـاذ أنفسـهم من براثن السلطة الفاسـدة ، لأنهم حينـذاك كـانوا مشـغولين عن كل ذلك بملاحقة لقمة الخـبز ومعالجة آثـار الفقر والمـرض. اما اليـوم وقد أغنـاهم الله من فضـله واراحهم من شـغلهم (بمطـاردة لقمة العيش) جـاؤوا ينافسـون السلطة الرسالية التي أنقذتهم.

فهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان ، هل جـزاء الرسـول الـذي حـرّرهم من جـاهليتهم إلّا الشـكر له ، والتسـليم لسـلطته المباركة أم جـزاؤه النقمة عليه ، والتخـريب ضده؟!

(**فَـإِنْ يَتُوبُـوا يَـكُ خَيْـراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَـذِّبْهُمُ اللهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ**)

وسـوف يعـودون في الـدنيا الى سـلطة الطغـاة وما تعنيه هذه السلطة من فقر وعذاب ، أما في الآخـرة فـان الله الذي وفّر لهم الهداية سوف يأخذهم بأشد العذاب.

والجـدير بالـذكر : ان الطائفة من المنـافقين الـذين حسـبوا إن دولة الإسـلام ضـعيفة وفكـروا في مقاومتها سـوف يتوبـون حينما يكتشـفون قـوة النظـام وصـلابته ، وحينما يكتشفون انه لا أحد ينصرهم أو يـدخل في حـزبهم حينما يتعرضون للهجوم المضاد من قبل أنصار الرسالة.

(**وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**)

الغنى سلّم الكفر :

[75] تتجلى هـذه الحالة النفاقية مـرة اخـرى عند ما ترى بعض الفقـراء يتمنـون الغـنى ويزعمـون انهم سـوف يوفـــون بعهـــدهم مع الله ، ويتصـــدقون بفضل أمـــوالهم ويعملون بها صـالحا ، بيد انهم بعد الغـنى يعملـون العكس تماما ، لماذا؟

لان تظـــاهرهم بالايمـــان والهـــدى انما كـــان حين لم يتعرضــوا للتجربة اما الآن فــان حب المــال وشح النفس وقضية العودة الى حالة الفقر تضغط عليهم باتجـاه البخل وتغريهم بالفساد.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَـــدَ اللـــهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْـــلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ**)

ان فضل الله ينبغي ان يـدفع الفـرد باتجـاه الصـدقة والصلاح لان الـذي اعطى يقـدر على ان يسـلب العطـاء ، ويعيد حالة الفقر. بيد ان ذوي النفوس الضعيفة والإرادات المهترئة تراهم يغترون بنعمة الله وفضله.

[76] وقد يكون المنافق واحدا منا دون أن نشعر لأنه قد يسـتطيع الواحد ان يقـاوم ضـغط الفقر ، ولكنه ينهـار أمام إغراء المال ، أو حتى يقاوم هذا الإغـراء ولكنه ينهـار أمام إغراء السلطة والجاه ، وهكذا على الإنسان أن يتزود بالايمان ويتسلح بالإرادة الصلبة والتوكل على الله حـتى لا يصبح مثل الذين يقول عنهم القرآن :

(**فَلَمَّا آتــاهُمْ مِنْ فَضْــلِهِ بَخِلُــوا بِــهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ**)

أي انهم بالاضــافة الى عــدم وفــائهم بالعهد الســابق الذي الزموا أنفسـهم به من الصـدقة ، بالاضـافة الى ذلك تجدهم يقاومون شريعة الله وأوامر الرسول.

جـاء في التفاسـير قصة طريفة بطلها شـخص باسم (ثعلبة بن حاطب) وكان من الأنصار فقـال للنـبي (ص) : ادع الله أن يرزقـني مـالا ، فقـال : «يا ثعلبة قليل تـؤدي شـكره خـير من كثـير لا تطيقه ــ أما لك في رسـول الله أسوة حسنة ـ والذي نفسي بيـده لو أردت أن تسـير معي الجبال ذهبا وفضة لسـارت» ، ثم أتـاه بعد ذلك فقـال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا ، والـذي بعثك بـالحق لان رزقني الله مالا لأعطين كلّ ذي حق حقه ، فقال (ص) «اللهم ارزق ثعلبة مـالا» ، قـال فاتخذ غنما ، فنمت كما ينمو الــدود ، فضــاقت عليه المدينة ، فتنحّى عنها فــنزل واديا من أوديتها ، ثم كثرت نموا حتى تباعدت عن المدينة فاشــتغل لــذلك عن الجمعة والجماعة فبعث رسـول الله اليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل ، وقال ما هـذه إلّا أخت الجزية ، فقـــال رســـول الله : «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» وانزل الله الآيات.

و عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في قول له :

«من ملك استأثر»

وهكذا نجد كيف ان كل واحد منا قد يصـبح منافقا في ظروف معينة.

[77] ولكن ما هي عاقبة هذه الفعلة؟

يقول القرآن ان عاقبة ذلك تكـريس حالة النفـاق الى حين الموت ، والجزاء.

(**فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقـاً فِي قُلُـوبِهِمْ إِلى يَـوْمِ يَلْقَوْنَـهُ بِما أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ**)

منذ البدء ، ويزعمون انهم مؤمنـون صـادقون ، وانهم سوف يقومون بعهد الله خير قيام.

[78] ولكن على الإنسان أن يخلص نيته ، ويشهد الله على ما في قلبه ولا يقول ولا يتعهد إلّا بـالحق الـذي يعتقد به.

(**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللـهَ يَعْلَمُ سِـرَّهُمْ وَنَجْـواهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**)

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83)

ويسخرون من المؤمنين

هدى من الآيات :

لان المنـافقين لا يؤمنـون حقا بالله والقيم ، فـإنهم لا يمكنهم تصـور إيمـان النـاس وتضـحياتهم السـخية بـدافع الايمان ، ولذلك تجدهم يفسرون صدقات المطّـوّعين بأنها ريــاء ليســقطوهم من أعين النــاس ، كما يعيبــون على الفقــراء قلة ذات يــدهم. والله يســخر من المنــافقين ويعذبهم عذابا أليما.

وســواء اســتغفر الرســول لهم أم لم يســتغفر فــان كفرهم بالله والرسول الناشئ من فسـقهم لا يـدع مجـالا لغفران الله ورضا المحرومين.

ويزعم المنافقون : ان تقاعسهم عن الجهاد خـير لهم ولـذلك فرحـوا به وكرهـوا الجهـاد ، ونهـوا الآخـرين عنـه. ولكن ما هي عاقبة ذلك .. أو ليس نار جهنم خالدين فيها ، ولكنهم لا يفقهون حقائق الأمور!!

وبسبب سوء اختيارهم سوف يلفهم العــذاب النفسي والاجتماعي مما يجعلهم

يضحكون قليلا ، ولكنهم يبكون بعدئذ كثيرا بسبب أعمالهم التي اكتسبوها.

وبعد عـــودة الرســـول الى المدينة وانتهـــاء محنته الرسالية يحاول بعض المنافقين ، التقرب الى رسول الله ، ويســتأذنون منه ليخرجــوا معه الى الجهــاد ولكن على الرسـول ألّا يسـمح لهم ثانية ولا يأخـذهم معه الى القتـال لأنهم رضوا بالقعود في أيام الشـدة ، فعليهم أن يبقـوا مع الفئة الضـالة وهم المنـافقون مفضـوحين أمـام النـاس ومحرومين من العمل السياسي.

بينات من الآيات :

كلّ يرى الناس بعين طبعه :

[79] كما الأعمى لا يفقه واقع النـــور ، فكيف يمشي على هـــداه البصـــير ، وكما الجاهل لا يحيط بواقع العلم فكيف يضيء درب السالكين ، وكـذلك المنـافق لا يصـدق بواقع الايمان الذي يعمر قلـوب الصـادقين فكيف يـدفعهم على القيـام بالأعمـال الكبـيرة دون أن يريـدوا جـزاء أو شكورا.

ان المنـــافقين يفســرون أبـــدا أعمـــال الصـــالحين بمقاييسـهم ، ويزعمـون ان وراء كل عمل صـالح مصـلحة مادية عاجلة لا يظهرها صاحبه كما هم لا يفعلون الخـير إلا رياء وطلبا للأجر العاجل ، لذلك تجدهم يعيبون على الذين يعملــون وينفقــون تطوعا لله وتصــديقا بوعــده دون أن يخالطهم رياء أو سمعة.

(**الَّذِينَ يَلْمِـــزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُـــؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ**)

فيتهمـون هـذه الطائفة بالريـاء. أما الطائفة الفقـيرة من المؤمنين فترى هؤلاء المنافقين كيف يســخرون منهم لفقرهم، وقلة عطائهم.

(**وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ**)

لأنهم فقــراء لا يملكــون إلّا قــوة البــدن وعمل اليد فيرتزقون عليها ـ وإذا فقـدوا العمل ـ فقـدوا الـرزق كما العمــال والفلاحين فيســخر المنــافقون الــذين غالبا ما يكونون من الطبقة المترفة منهم.

(**سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

حين يرون نتائج أعمالهم فتلك سخرية واقعية ، وهذه سـخريتهم لفظية كلامية لا أثر لها ، وعلينا ألّا ننهـزم أمـام سخرية المنافقين ، ولا يفقد المـؤمن إحساسه بشخصـيته امام سخرية المنافق حتى ولو كان الأخير أغنى منه وأقدر ، كما يجب ألّا يستقل المؤمن عطـاءه في الله ان لم يكن يملك غيره لان الله لا ينظر الى قدر العطـاء بل الى قـدر المعطي وسـلامة نيتـه. من هنا سـئل الرسـول (ص) عن أفضل الصدقات فقال : «جهد المقل». [1]

هل يجوز أن نستغفر للمنافق؟

[80] لان المنافقين يلمزون ويسخرون من المؤمنين فــان غنــاهم أو جــاههم الظــاهر يجب ألّا يــدعونا الى احـترامهم أو طلب الخـير لهم ، فما دامـوا كـافرين فكريا وفاسقين عمليا فان حدود الايمان تفصـلهم عنا ، فهم أمة ونحن أمة برغم الاختلاط والقرابة بيننا وبينهم.

وقد يستبد بالمؤمن الحنان البشري والعطف فيحاول هداية المنـافقين ، فيـدعوه ذلك الى التقـرب منهم بـدل منابذتهم العداء ، والقرآن ينهى عن ذلك ويقول : حـتى لو فعلتم مثل ذلك فـــان الله قد اتخذ منهم موقفا شـــديدا بسبب كفرهم وفسقهم.

(1) مجمع البيان ج 5 / 55.

(**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ**)

ان الاستغفار هو قمة العطف الايماني لشخص ما ، ولكن ذلك منهي عنه بالنسبة الى المنافقين لان علينا أن نبني بيننا وبينهم حجابا ظاهره النور والايمان ووراءه ظلمات وجهالة.

التخلف عن سوح الجهاد :

[81] حين تتقاعس طائفة من أبناء المجتمع عن الجهاد والتضحية ، ويشيعون حولهم الأفكار السلبية. يخشى أن يتأثر الآخرون بهم لو لا إعطاء الناس رؤية واضحة تجاه هذه الطائفة المصلحية التي يجسدها المنافقون في المجتمعات المؤمنة التي كانت ترضى بالقعود برغم ان القائد الرسالي كان يقود المعركة.

(**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**)

ان قعود هؤلاء في الوقت الذي خرج رسول الله دليل على انهم لا يريدون الجهاد ، وان تبريرهم ببعض الأقوال لم يكن سوى غطاء لقعودهم.

(**وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ**)

ولكن السؤال : هل يستطيع المسلم أن يدرأ عن نفسه نار جهنم من دون اقتحام ساحات الجهاد؟

(**قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ**)

[82] حتى مصاعب الدنيا لن تزول من دون تحمل بعض الصعاب ، فاذا

هاجمك العــدو في أيــام الحر أو الــبرد فهل تســتطيع أن تقــول له انتظر الى أيــام الربيع أو الخريــف. أم ان ذلك مجــرد حلم؟! ان الــذين يهربــون من المشــاكل ســوف تتضاعف عليهم المصـائب والـويلات ، وعليهم أن ينتظـروا أياما حالكة فيبكوا كثيرا بعد أن ضحكوا قليلا.

(**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِـيراً جَـزاءً بِما كـانُوا يَكْسِبُونَ**)

ان المؤمــنين الصــادقين يبــادرون في أيــام رخــائهم وقــدرتهم بالاعــداد والعمل الجــاد ليــوم الشــدّة ، وانهم مستعدون لخوض غمار المعركة في أشد الأيام لذلك فان أعداءهم يرهبـون جـانبهم وفي ظل القـوة يسـتمرون في حياة آمنة كريمة.

الموقف الرسالي من المتخلفين :

[83] وبعض المنافقين يحـاولون العـودة الى أحضـان العالم الاسلامي لا ليكونوا مواطـنين صـالحين وصـادقين ، بل ليســـتفيدوا من المكاسب بعد أن نصر الله عبـــاده المجاهدين ، وليستغلوا نفوذهم المـادي ، ويتسـلطوا على رقاب المؤمنين ولكن باسم الـدين هـذه المـرة كما فعلت بنو امية في التـاريخ الاسـلامي ، ولكن القـرآن يحـذر من ذلك وحكمته في ذلك قد تكون : ان أيـام الشـدة امتحنت النفوس المؤمنة فعلا وفـرزتهم عن الجماعـات الوصـولية التي تميل مع القوة أينما مالت ، وتحـاول أن تسـتفيد من كل وضع بما يتناسب وشـــــعارات ذلك الوضع ، وأساسا فلسفة الجهاد في الإسلام هي إنقاذ الجماهير غير الواعية من شر هذه الجماعـات الطفيلية النفعية ، لـذلك يجب أن تكون القيادة الرسالية حذرة جدا فلا تسمح لهؤلاء بالعودة الى الساحة السياسية أبدا.

(**فَإِنْ رَجَعَكَ اللـهُ إِلى طائِفَـةٍ مِنْهُمْ فَاسْـتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَـدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِـيتُمْ بِـالْقُعُودِ أَوَّلَ مَـرَّةٍ فَاقْعُـدُوا مَـعَ الْخالِفِينَ**)

فـالمهم هو المواقف الاولى في أيـام المحنة أما أيـام الرضى فهي ليست دليلا على صـــــــدق النية بل نحسب هؤلاء ضمن المنافقين الأوائل.

وَلا تُصَـلِّ عَلى أَحَـدٍ مِنْهُمْ مـاتَ أَبَـداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْــرِهِ إِنَّهُمْ كَفَــرُوا بِاللــهِ وَرَسُــولِهِ وَمــاتُوا وَهُمْ فاسِــقُونَ (84) وَلا تُعْجِبْـكَ أَمْـوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَـقَ أَنْفُسُـهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (85) وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللــهِ وَجاهِـدُوا مَـعَ رَسُـولِهِ اسْـتَأْذَنَكَ أُولُـوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُـوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُـونَ (87) لكِنِ الرَّسُــولُ وَالَّذِينَ آمَنُــوا مَعَــهُ جاهَــدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)

---

86 [اولو الطول] : أصحاب المال والقدرة والغنى.

لا للقيم المادية نعم للجهاد

هدى من الآيات :

لكي يكرس الإسلام قيم السماء في المجتمع ، ويحدد موقف الناس من الإفـراد حسب مـواقفهم من الرسـالة ، ولكي يحطم الغـنى كاسـاس لتقـييم النـاس منع الرسـول (ص) من الصـــلاة على منـــافق أو تكريمه بالقيـــام على قـــبره ما دام الرجل قد كفر بالله تعـــالى ورســـوله (ص) ومات فاسقا دون النظر الى غناه أو كـثرة عشـيرته ، لان الـثروة والأنصـار فتن يبتلي الله تعـالى بهما البشر فـاذا اسـتخدمهما في الصـلاح فهما خـير ، والا فهما عـذاب في الدنيا وسبب الكفر والعذاب في الآخرة.

ان الأغنيـــاء من المنـــافقين يتمـــردون على فريضة الجهاد ، ويسـتأذنون الرسـول (ص) بـان يمنح لهم اجـازة البقاء مع ذوي الاعـذار ـ كالنسـاء والصـبيان والمرضى ـ دون ان يفقهـوا ان ذلك اهانة بشـأنهم ، وإخـراج لهم من الساحة الاجتماعية.

اما الرســول (ص) والمؤمنــون من أصــحابه فــإنهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ،

ويحصـلون على الخـيرات الـتي يخسـرها القاعـدون ، كما انهم يفلحون في الدنيا بالنصر والرفاه وفي الاخرة بجنات أعدها الله تعالى لهم تجري من تحتها الأنهـار خالـدين فيها وذلك هو الفوز العظيم.

وهكـذا يكـرس هـذا الـدرس قيمة الايمـان والجهـاد ويضرب عـرض الجـدار القيم المادية الجاهلية الـتي تقـوم على أساس الغنى والأنصار.

بينات من الآيات :

سحب الشرعية عن المنافقين :

[84] صحيح ان الفرد الذي يموت يسـتقطب العطف والشفقة ، ولكن المنافق حين يموت يجب الا يحترم ، لان في ذلك تكريما لسيرته ولأعماله الفاسـدة الـتي ارتكبها ، وبالتالي لخطه التحريفي ، لذلك نهى القرآن رسـوله (ص) عن إعطـاء الشـرعية لخط النفـاق التحـريفي في الامة عبر تكريمه للمنافقين بعد موتهم.

(**وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ**)

اي لا تجـري عليه السـنة الـتي كـان الرسـول (ص) يجريها على قبور المؤمـنين حيث يقف على قـبر أمـواتهم سـاعة يسـتغفر لهم ، وعند ما جـاء هـذا الأمر الحاسم لم يصل النـبي (ص) على قبر منافق أبدا حتى قبض. [1]

(**إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ**)

اي انهم منحرفون فكريا بالله ورسـوله ، وعمليا حيث انهم فاسقون لا يطبقون احكام الشريعة.

---

(1) المصدر 57

والصلاة والدعاء لمثل هؤلاء قد تعطي شـرعية للكفر والفسق داخل المجتمع الاسلامي مما يعرض أساس هـذا المجتمع لخطر كبـير. ان وجـود مثل هـؤلاء داخل المجتمع قضية قد تفرضها واقعيات الحياة ، ولكن علينا الّا نسـاوي بينهم وبين المؤمنين الصالحين.

لا شرعية للعدة والعدد :

[85] قد يسـتهوي القائد الاسـلامي الـذي يسـتهدف تجميع القـوى داخل مجتمعة ، وتعبئة الطاقـات من أجل بنـاء دولة الإسـلام بعض المنـافقين بما يملكونه من ثـروة عريضة ومن مؤيدين ، ولكن القرآن الحكيم يحذّر من ذلك ويعطينا رؤية واضـحة تجـاه المـال والأولاد (العدد والعدة) هي ان كل ما في الحياة وسـيلة الإنسـان وأداته لتحقيق قيمه واهدافه فـان كـانت اهدافه وقيمه صالحة فأن الوسيلة سوف تصبح صـالحة ونافعة والّا فهي وبال عليه.

(**وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيـدُ اللـهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا**)

فالمـال والولد ، وبتعبـير أخر : العـدة والعـدد إذا لم يكونا وسـيلتي خـير وصـلاح فهما عـذاب وخبـال ليس لصـاحبهما فقط بل وأيضا لمن يتقـرب اليه بسـببهما ، فالذي يعجبه مال الأغنياء أو أولاد وأنصار الأقوياء ولا ينظر الى أعمـالهم واهـدافهم. فسـوف يجر الى نفسه الـويلات لأنه سـوف يخضع لهم وسيرضـيهم ويتنـازل عن قيمه من أجلهم ، وإذا كـان الحـاكم الاسـلامي هكـذا وأراد مثلا استرضاء الاثرياء والأقوياء فعلى حساب من سيكون هـذا الاسترضاء. أو ليس على حساب الفقراء والمستضعفين ، أو ليس يسـتدرجه الأغنيـاء والأقويـاء الى التحـيز لهم واعطائهم امتيازات غـير قانونيـة؟! وبالتـالي يجر المجتمع الى ذات العذاب الـذي تـورط فيه الأغنيـاء والأقويـاء غـير المؤمنين منهم بسبب المـال والأنصـار من غـرور وفسـاد بسبب

وجود الثروة والقـوة من دون وجـود قيم محـددة وموجهة لهما.

ثم ان الـثروة والقـوة تكونـان سـببا لاسـتمرار الكفر حتى الموت ، وبالتالي للعذاب.

(**وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ**)

مواقف المجتمع من الجهاد :

1 ـ المنافقون

[86] موقف هـــؤلاء الأغنيـــاء من الجهـــاد وتحمل مسئوليتهم كأعضاء في المجتمع الاسلامي انما هو موقف اللامبـالاة والميوعة ، فهم من جهة يريـدون مـيزات هـذا المجتمع ، ولكنهم من جهة اخــــرى يرفضـــون اي عمل ايجابي من أجل هذا المجتمع. خصوصا في أيام الشدة.

(**وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُـوا بِاللـهِ وَجاهِـدُوا مَـعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقـالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ**)

فاغنيـاء المنـافقين ــ أصـحاب الطـول ــ وهو المـال والقوة ، يحاولون اضـفاء صـفة الشـرعية على تقاعسـهم عن الجهاد وبذلك يحاولون أخذ الاجازة من الرسول حـتى يحسبهم الرسول من ذوي الاعذار ، والقاعدين عن الجهاد ، وهذا نـوع من الامتيـاز الـذي يطـالب به أصـحاب المـال والقــوة في المجتمع ، ولكن هل يمنحهم الإســلام ذلــك؟ كلا.

[87] قبل كل شــيء يرفع الإســلام من قيمة الجهـاد ويجعلها فـوق قيمة الغـنى والقـوة ، ويـذكرنا بـان الـذين يتقاعسون عن الجهاد لا يفقهون ما الذي يعملون

بأنفسهم ، انهم يهبطـون بأنفسـهم الى مسـتوى الخوالف من النساء والضعفاء الذين اسـقطوا من حسـاب المجتمع بسبب ضعفهم وعجـزهم ، فكيف يريد هـؤلاء الانتمـاء الى طائفة العجزة والضعفاء؟!

(**رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ**)

قـال الزجـاج : الخوالف النسـاء لتخلفهن عن الجهـاد ويجـــوز ان يكــــون جمع خالفة في الرجـــال والخوالف والخالفة الذي هو غير نجيب. [1]

(**وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ**)

فلا يعرفون قدرهم الحقيقي ، وأنه مع الجهـاد وتحمل المسؤولية يرتفع الفرد داخل المجتمع المسلم.

2 ـ المؤمنون

[88] وفي الطـرف الاخر من الصـورة نجد المؤمـنين الذين يجاهـدون بكل ما يملكـون في سـبيل الله ، وبـذلك يرتفع شـأنهم عند الله وعند الرسـول (ص) والنـاس في الدنيا والاخرة.

(**لكِنِ الرَّسُـــولُ وَالَّذِينَ آمَنُـــوا مَعَـــهُ جاهَـــدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)

فلهم المكاسب المادية الـتي ليست عـذابا كما كـانت عند المنـــافقين بل هي فلاح وســـعادة ، ذلك لأن هـــذه الخيرات اكتسبت عن طريق عمل الخير ، وسوف تصرف في

(1) المصدر 57

سبيل المعروف والصلاح.

وبهـذه الكلمة تكتمل رؤية الإسـلام الـتي تحـدث عنها القرآن في الآية السابقة حول المال والأنصار ، وهي انهما ان كانا قد اكتسـبا بعمل صـالح ووظفا من أجل اهـداف صـالحة فهما صـالحان ويكونـان سـببا للسـعادة والفلاح ، فالإسلام إذا لا يعطي حكما مطلقا وواحدا للثروة والقوة ، فلا يمجـدهما مطلقا ولا يرفضـهما مطلقا ، كما لا يصـدر حكما كاسـحا وواحـدا على جميع الأغنيـاء والفقـراء ، بل يربط حكمه على الثروة والقوة وأصحابهما بالأطـار الـذي وضعا فيه. فالحكم ايجـابي إذا كانا نظيفين ، والا فهما عند الإسلام وبال وعذاب.

[89] هكذا يرفع الإسلام قيمة العمل الصـالح ، الـذي يعتـبر الجهـاد القمة السـامقة له داخل المجتمع المسـلم ويربط سـائر الظـواهر به ، ويكمل الصـورة ببيـان عاقبة العمل الصالح في الاخرة ويقول :

(**أَعَـدَّ اللـهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

فعلينا ان نبحث عن الفوز العظيم في الجهـاد والعمل الصالح لا في المال والأولاد.

وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَـدَ الَّذِينَ كَـذَبُوا اللـهَ وَرَسُـولَهُ سَيُصِـيبُ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْهُمْ عَـــــذابٌ أَلِيمٌ (90) لَيْسَ عَلَى الضُّـــــعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِـدُونَ ما يُنْفِقُـونَ حَـرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللـهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (91) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَـوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْـهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92)

المعذّرون والمعتذرون

هدى من الآيات :

كما اعتذر أولوا الطول كـذلك بعض الاعـراب حـاولوا انتحال العذر ليؤذن لهم فلا يخرجوا ، بينما قعد آخرون من دون اي انتحال للعذر ، والواقع ان الكـافرين عمليا بقيـادة الرسول (ص) لهم عذاب اليم ، وهنا يبين القـرآن الحكيم الاعـذار الواقعية الـتي ليست كتلك الاعـذار الـتي جـاء بها المنافقون والتي منها : الضعف المعجز عن الاشتراك في المعركة ، والمرض المقعد ، والفقر المعجز ، ولكن هؤلاء بدورهم ينبغي ان ينصحوا لله ولرسوله (ص) فلا يخالطوا أعمـالهم خيانة أو غشا وكـذبا ، وإنما سـقط الخـروج عن هــذه الفئــات لأنهم محســنون وما على المحســنين من سبيل.

وهكذا لا يؤاخذ أولئك الذين قـدموا الى الرسـول (ص) لياخذهم معه الحرب فلم يجد الرسول (ص) ما يكفيهم لمؤنة الخروج فعادوا وقد فاضت عيـونهم من الـدمع حزنا على عدم مشـاركتهم في الجهـاد ، وأنهم لا يملكـون نفقة الجهاد. ان هذا مثل واحد للنصح لله وللرسول.

بينات من الآيات :

المعذرون من الاعراب :

[90] وفي سياق بيان القرآن لطوائف المنافقين أخذ يعـدد الاعـراب الـذين لما يـدخل الايمـان في قلـوبهم ، والـذين يعرفـون ظـاهرا من الـدين ، وهـؤلاء جـاؤوا الى الرسول (ص) ليـأذن لهم بالانصـراف عن الحـرب بعد ان انتحلوا عذرا ، ولم يكن الهدف من بيان عذرهم الا الفـرار من الجهاد لذلك عبر القرآن الحكيم عنهم :

(**وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ**)

ويبدو من معنى كلمة (المعذّر) انه الذي يتكلف عذرا ويختلقه ، والهـدف من مجـيئهم كـان الاذن للانصـراف لا الاســـتفهام الحقيقي عن واجبهم الـــديني ، وفسر بعض المفسـرين هـذه الاية بطريقة اخـرى فقـال : الظـاهر ان المـراد بالمعـذّرين هم أهل العـذر كالـذي لا يجد نفقة ولا ســلاحا بــدليل قوله : «**وَقَعَــدَ الَّذِينَ كَــذَبُوا**» .. الآية ، والسياق يدل على ان في الكلام قياسا لإحـدى الطـائفتين الى الاخـرى ليظهر به لـؤم المنـافقين وخسـتهم وفسـاد قلـوبهم وشـقاء نفوسـهم حيث ان فريضة الجهـاد الدينية والنصـرة لله ورسـوله هيّج لـذلك المعـذرين من الاعـراب حيث جـاؤوا الى النـبي (ص) يسـتأذنونه ، ولم يـؤثر في هؤلاء الكاذبين شيئا. [1].

(**وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**)

هؤلاء قعـدوا عن الحـرب دون اسـتئذان وذلك بسـبب كذبهم على الله ورسوله.

(**سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

(1) تفسير الميزان ج 9 / 361

ان هؤلاء قد يكونون ممن تتكامل شخصـيته ويضـحي مسلما حقيقيا بعد ان كان أعرابيا جاهلا وكاذبا يتشـرد من الواجبـات مع أو بـدون انتحـال عـذر ، فحسـابه على الله تعـالى ، وقد يكشف عن جهله وكفـره في المسـتقبل فيكون له عذاب اليم.

ويبدو لي من ظاهر هذه الآية : ان الاعراب نوع خاص من المنـافقين وهم الـذين ينـافقون بسـبب جهلهم وعـدم رسـوخ الايمـان في قلـوبهم لحداثة عهـدهم بالإسـلام ، ولتراكم الرواسب الجاهلية على قلـوبهم ، ويـرجى لهـؤلاء الهداية ولـذلك خصّ القـرآن العـذاب ببعض الاعـراب وهم الذين كفروا منهم (دون جميعهم).

من يجوز له التخلف؟

[91] ولكن من هو صـاحب العـذر الحقيقي ، الـذي يجوز له التخلف عن واجب الجهاد؟

في الآيتين التاليتين توضيح لذلك :

الف : ـ ليس على الضعفاء الذين لا يتحملون جسـديا مشـاق الجهـاد واجب الجهـاد. وهـؤلاء مثل المعـوقين والمبتلين بالضعف العـام ، والـذين يبلغ ضـعف بصـرهم أو ضعف سـمعهم أو ضـعف اعصـابهم أو ضـعف قلبهم أو ما أشبه يبلغ حدا يمنعهم من الخروج للحرب فيجعلهم افـراد غير صالحين للقتال أبدا.

باء : ـ وكـذلك يسـقط الجهـاد عن المـريض بـأمراض خطيرة أو طويلة أو معدية ، أو مما يسبب منعا للخروج.

جيم : ـ وكـذلك يسـقط الجهـاد عن الفقـراء الـذين لا يجـدون ما ينفقونه على أنفسـهم أو على عـوائلهم المفروض عليهم اعالتهم.

دال : ــ كـذلك يسـقط الجهـاد عمن لا تقـدر الدولة الاسلامية تحمل نفقات خروجهم.

(**لَيْسَ عَلَى الضُّــعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ**)

اي لا يكلفون فـوق طـاقتهم ، أو ما يسـبب لهم الأذى والمشقة التي لا تحتمل.

جهاد المعذورين :

من هـــذه الكلمة يتـــبين : ان ســـقوط الجهـــاد عن الضـعيف والمـريض والفقـير ليس مطلقا انما في صـورة وجود الحرج والمشـقة البالغة الـتي تختلف حسب اختلاف الظـروف ، وحسب الأشـخاص. من هنا كـان الـواجب ان يذكر القرآن المؤمنين بان الواجب النصيحة لله ولرســوله (ص) حــتى يكــون كل فــرد حســيب نفسه ورقيبها فيما يرتبط بوجود أو عدم وجود الحـرج فربما يـدعي الشـخص انه مريض وحتى يبرهن على ذلك للنـاس ولكنه يعلم فيما بينه وبين الله انه ليس بمــريض مرضا يمنعه عن الخــروج لذلك أكد ربنا على هذه الحقيقة وقال :

(**إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ**)

والنصــيحة هي خلــوص النية والعمل الجــدي ، وعلى الإنسان ان يخلص نيته لله فلا يدّعي كـذبا انه معـذور وهو ليس بمعــذور. كما عليه ان يخلص عمله لله ، فــاذا كــان معـذورا وقعد عن القتـال فلا بد ان يقـوم بـدور معين من أجل المعركة ، ولو كان ذلك الدور هو الاعـداد الحـربي أو بث روح المقاومة في المجتمع أو محاربة اعمال الطــابور الخامس مثل الاشاعات أو الأنباء الكاذبة.

انما الأعمال بالنيات :

إذا كـان مجمل سـلوك الفـرد سـليما وحسـنا فـان اشتراكه المباشر في المعركة أو تخلفه عنها بسـبب عـذر شرعي لا ينافي ايمانه وتقواه.

(**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ**)

اي ليس على من كـان محسـنا وأراد فعل الخـير فلم يقدر على القيام بكل الواجب سبيل المؤاخـذة والعقـاب ، والكلمة مطلقة ونسـتوحي منها : ان كل من أراد الخـير وتحرك نحوه فسواء أصاب أو اخطأ. سدد في عمله أو لم يسـدد. بلغ هدفه أو لم يبلغ فانه مجـزي عند الله تعـالى وليس عليه عقاب.

ومن هنا جـاء في الحـديث عن انس : ان رسـول الله (ص) لما قفل عن غزوة تبوك فأشرف على المدينة قال : «**لقد تركتم في المدينة رجالا ما سرتم مسـيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا إلّا كـانوا معكم**» قـالوا : يا رسـول الله وكيف يكونـون معنا وهم في المدينة؟ قال : «حبسهم العذر» [1].

وانما أكد القـرآن على هـذه الحقيقة : «**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ**»

لأنه من الممكن ان يتكـبر المقـاتلون على العـاجزين والمرضى فيـؤذونهم بألسـنتهم ، أو يحـاولون منع بعض حقـوقهم بحجة انهم لم يسـاهموا في المعركة ، فأكد القـرآن على ان هـؤلاء محسـنون لأنهم أرادوا المشـاركة فلم يقدروا ، ولذلك لا سبيل عليهم ، ولا تفوق أو استعلاء.

وقد يستبد بالمؤمنين ذوي الاعذار وسواس الشيطان فيوقعون أنفسهم في الحرج

---

(1) المصدر 368

الشـديد لأنهم يخـافون مثلا الا يكـون الحـرج قد بلغ حـدا يمنعهم من الخروج واقعا ، وفي هذه الحالة لا سبيل على المحسـنين ذوي النيـات الصـالحة ، والسـلوك الاجمـالي الصالح ، وأضاف سبحانه قائلا :

(**وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

فحتى ولو كان هناك بعض التقصـير فـان غفـران الله تعالى يجبره ويعوض المؤمن عن تقصيره.

[92] كـذلك لا حـرج على من يريد الخـروج ويسـجل اســـمه في قائمة المتطـــوعين للحـــرب ولكن الدولة الاسلامية لا تجد وسائل الحرب له. من سلاح أو ذخـيرة أو حتى وسائل المواصلات.

(**وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْـــهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الـــدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ**)

انك تجد في هؤلاء مثلا رائعا لذوي الاعـذار الناصـحين لله تعالى ولرسوله والمحسنين الـذين تحـدثت عنهم الآية السـابقة. انهم ممتلـؤون انـدفاعا نحو المعركة الى درجة انهم يتفجرون بكاء حين لا يقدرون على المشاركة فيها.

و قد جــاء في التفســير(نــزلت هــذه الســورة في البكائين وهم سبعة جاؤوا الى رسول الله (ص) فقـالوا يا رسول الله احملنا فانه ليس لنا ما نخرج عليه فقـال : «**لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**» [1].

وربما تــدل هــذه الآيــات على ان المفــروض على المسلم ان يكون مستعدا للجهاد

(1) تفسير مجمع البيان ج 5 / 60

بكل وسيلة ممكنة. فـأن عجز فلا أقل باسـتعداده النفسي ، و قد جاء في حديث مروي عن النبي (ص) :

«من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية».

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (93) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (96)

المنافقون

بين ذل القعود وذلة الاعتذار

هدى من الآيات :

بعد ان بين السياق ذوي الاعذار المشروعة عاد ليؤكد على العلاقة مع الأغنيـــاء المتخلفين عن الجهـــاد الـــذين يستأذنون الرسول (ص) بالرغم من غناهم وقدرتهم على الخروج وذلك بسبب جهلهم باهمية الجهاد.

ويحـــاول هـــؤلاء تـــبرير مـــواقفهم امـــام المســـلمين العائدين من المعركة ، وينهى الله من قبول اي عذر منهم لان مستقبلهم سوف لا يكون أفضل من ماضيهم ، ولذلك فان الله سـبحانه سـيرى أعمـالهم ، ثم يـردون الى عـالم الغيب والشـــهادة ويجـــازيهم على أعمـــالهم لا أقـــوالهم وتبريراتهم.

وهم يتشبثون بالحلف الكاذب لتغطية جبنهم وخيانتهم ، ولكي يتركهم المسلمون فلا يوبخونهم على تقاعســـهم ، والقرآن يأمر بتركهم. ولكن ليس بـــدافع الرضا عنهم ، بل انطلاقا من واقع رجســـهم وصـــغر شـــأنهم ، وان مـــأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وحــتى لو اســتطاع هــؤلاء جلب رضا المســلمين عن طريق الحلف الكاذب ، فان الله تعــالى لن يرضى عنهم ، لأنهم قوم فاسقون ، أعمالهم سيئة ، وقلوبهم فاسدة.

بينات من الآيات :

على من يقع الحرج؟

[93] لتكريس قيم الرسـالة الـتي تـدور حـول محـور الايمان والعمل الصالح ، وضرب قيم الجاهلية التي تقدس الثروة والاثرياء ففي القرآن الحكيم ـ في آيـات سـابقة ــ عفى الله عن الضعفاء وعن ابن السبيل ، والمؤاخـذة انما هي على الأغنياء غير المساهمين في الجهاد.

(**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ**)

ولكنهم يتهربــون من القيــام بمســؤولية الــدفاع عن الرسالة.

(**رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ**)

اي النساء والصبيان والعاجزين عن الخروج.

(**وَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

فاختاروا لجهلهم الناشئ بدوره عن فسقهم البقاء مع العجزة ، ويبدو لي : ان البقاء مع العجــزة أســقط قيمتهم الاجتماعية بل والغى بعض حقوقهم المدنية.

النقمة الجماهيرية :

[94] لأنهم تخلفــوا عن القتــال وســقطوا عن أعين النـاس تعرضـوا لهجمـات الجمـاهير المستضـعفة ، لـذلك أخذوا يعتذرون الى الناس حتى يعيدوا ماء وجههم

الصفيق ولكن هيهات.

(**يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ**)

فماضيكم الذي عرفناه عن طريق الوحي مباشرة ، أو بصورة بصائر ورؤي زودنا الوحي بها ، فاستطعنا عن طريقها ـ كشف المنافقين وطبيعة تحركاتهم ـ كل ذلك الماضي دليل كذبكم ودجلكم ، كما ان المستقبل هو الآخر دليل. كذبكم في الاعتذار فمن يتوب بصدق الى الله يصلح اعماله في المستقبل اما أنتم فلستم تائبين حقا.

(**وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ**)

فيعلم الماضي والمستقبل ويعلم خفيات القلوب ، وخلجات الصدور ، وبالتالي يعلم ما وراء كل عمل من نية حسنة أو سيئة كما يعلم بالأعمال الظاهرة ، وهكذا لا تقدرون على تبرير أعمالكم الفاسدة والاعتذار منها ببعض الكلمات الفارغة ..

(**فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

الرؤية الرسالية

وهذه الآية تدل على ان المؤمنين الصادقين يتسلحون برؤية رسالية تمكنهم من كشف طبيعة المنافقين ، ومن مظاهر هذه الرؤية النظر الى الفرد من خلال تاريخه الماضي ، واعمال المستقبلية ، دون الاكتفاء فقط بأقواله وتبريراته.

وبما ان المنافق مجتث الجذور ، متلون حسب المتغيرات ، وانه لا يريد الاستمرار في خطه مستقبلا لذلك فهو يتستر تحت ستار كثيف من الكلمات الفارغة والأقوال

الكاذبة ، المؤكّدة بالأيمان ليعـوض عن عمله بقوله ، وعن تصرفاته المتغيرة بتبريراته الواحدة المؤكدة ، لـذلك فـان كثــيرا من البســطاء ينخــدعون بأقواله وتبريراتــه. انما المــؤمن الصــادق ينظر الى عمل المنــافق لا الى قوله ، فيتخلص من خطر عظيم هو الانخـــداع بالمنـــافق ، ذلك الخطر الــذي وقعت فيه ــ ومع الأسف ــ شـعوبنا اليـوم بالنسبة الى الطغـاة ، والى جيش المنـافقين من خـدمهم وحشمهم الـذين يـبررون أبـدا تصـرفاتهم بشـعارات عامة وأنيقة فــاذا مــال الطاغية الى الشــرق تــرى الصــحفي المـأجور يحمد باسم الشـرق حـتى يجعله كعبة الطمـوح ، وإذا اتجه الطاغية غربا تــراه يقــدس الغــرب ويكيل التهم كيلا ضد الشرق كما فعل قديما خادم حاكم نيســابور حيث ينقل المؤرخـــــــون انه طلب من خادمه ان يطبخ له ال (باذنجان) فأخذ الخادم يعدد لسـيده فوائد ال (باذنجـان) ولكن ما لبث الحــاكم ان غــير رأيه ، فأخذ الخــادم يــبين مضــاره وكأنه سم زعـاف ، فنهـره الحـاكم وقـال : كيف تقول هذا ، وقد عددت قبل لخطات فوائد الباذنجان حــتى ظننت انه دواء لكل داء. فقـال الخـادم : فـداك أمي وأبي إنك تعلم بــأنني خــادم لحــاكم نيســابور ولست خادما للباذنجان.

ولو تســلحت شــعوبنا برؤية الإســلام وأخــذت تقيم الأشخاص والحكومات بأعمالهم وتاريخ حيـاتهم وانتظـرت حتى تـرى انجـازاتهم الحقيقية إذا لرفضت ان تـدفع قرشا واحــدا لشــراء الصــحف المنافقة الــتي تطبل لكل طاغية وتخدع الناس بترديد شعارات فارغة لا أول لها ولا آخر.

[95] وهكــذا تجد المنــافقين يتقنــون صــناعة الكلام لأنهم لا يحسنون عملا ، وكلامهم أبدا مؤكد بالأيمــان لأنهم لا يريدون تأكيد كلامهم بالأعمال الواقعية.

(**سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُـوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ**)

انهم يريــدون الســكوت عن جــرائمهم ، بتصــغيرها وتقليل خطورتها في أعين الجمـــــــــــاهير ، ولكن على المؤمنين ان يعرضوا عنهم ويسـكتوا عن جـرائمهم لأنها لا تصـلح بـالكلام ، ولأنهم قد سـقطوا كليا عن أعين النـاس وانفصلوا عن الجماهير وأصبحوا رجسا قذرا نجسا.

(**وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**)

[96] وأكد القـــرآن على ان هـــدف المنـــافقين من أيمــانهم هو استرضــاء النــاس ، وعلى النــاس الا يكونــوا طيــبين مع المنــافقين الخبثــاء فلا يرضــوا عنهم. لأنهم لو رضــوا عنهم فــان الله لا يرضى عنهم بســبب أعمــالهم الإجرامية ، واستمرارهم على نهجهم السابق.

(**يَحْلِفُـونَ لَكُمْ لِتَرْضَـوْا عَنْهُمْ فَـإِنْ تَرْضَـوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ**)

نعم إذا غــيروا واقعهم وتــابوا عن فســقهم فــان الله تواب رحيم.

وكلمة اخـــيرة : المـــؤمن يرضى برضا الله تعـــالى ويسخط لسخطه. وإذا كان ربنا غـير راض عن المنـافقين فهل يسمح لنا بالرضا عنهم؟

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى رَسُـولِهِ وَاللـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَمِنَ الْأَعْـرابِ مَنْ يَتَّخِـذُ ما يُنْفِـقُ مَغْرَمـاً وَيَتَـرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللـهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِـذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99)

مواقف الأعراب من الرسالة

هدى من الآيات :

لكي يعطي القرآن بصيرة واضحة تجاه سـكان البادية ، ويربط تقـييم النـاس لهم بمـدى الـتزامهم بـالقيم ، بين السـياق ان الحالة الأولية لسـكان البادية تقتضي الكفر والنفـاق لأنهم بعيـدون عن العلم ، ولـذلك فهم أشد كفـرا ونفاقا من غيرهم وابعد عن فهم حقائق الدين ، والالـتزام بشرائعه.

وان هناك فريق من الاعراب يزعمون ان إنفاقهم في سبيل الله نوع من الخسـارة الـتي تلحقهم وبـذلك يثبتـون جهلهم وبخلهم ، وهم ينتظـرون نـزول البلاء عليكم مما يدل على نفسـيتهم اللئيمة والمتخلفة بيد ان عليهم دائـرة السوء بسبب لـؤمهم وتخلفهم ، والله سـميع بما يقولـون. عليم بما يضمرون.

بيد ان هناك فريقا من الاعراب يؤمنون بالله ورسوله ، ويتجـاوزون حـاجز البخل والجهل ، فيـدفعون أمـوالهم قربة الى الله ، ولكي يحصـلوا على دعـاء الرسـول لهم بـالخير ، والله يـوفر ذلك لهم ، وأنه سـيدخلهم في رحمته الواسعة والله غفور رحيم.

بينات من الآيات :

من صفات الاعراب

[97] كـانت النظـرة الجاهلية المتخلفة تمجّد سـكون البادية وركوب أهوالها وتحمّل قساوتها وقال أحدهم :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا.

وجــاء الإســلام وأكد على اهمية المــدن والتحضر ، وجـاءت الآية الكريمة تحـدد الموقف من سـكان البادية ، الذين يسمّون بالاعراب (جمع اعرابي وهو ساكن البادية) وبيّن فيهم صفتين : الشدة في الكفر و النفاق ، وربما لان طبيعة البادية شــديدة ، أو انهم جــاهلون والجهل يــورث الشدة.

(**الْأَعْـرابُ أَشَـدُّ كُفْـراً وَنِفاقـاً وَأَجْـدَرُ أَلَّا يَعْلَمُـوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ**)

فهم بطبيعة وجودهم في الصحراء بعيدون عن مراكز العلم ، فهم أولى بالجهل بالاحكام الشرعية الـتي يسـميها القرآن بالحدود في أكثر من مناسبة.

(**وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

عليم بأحوالهم حكيم فيما يطلقه عليهم من نعوت.

[98] ومن مظاهر كفرهم ونفاقهم. انهم يزعمـون أنّ الإنفاق في سـبيل الله خسـارة مما يعكس بخلهم وجهلهم معا.

(**وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً**)

ومن مظـاهر جهلهم وخشـيتهم انهم ينتظـرون نـزول البلاء على المسلمين ، فهذه

دلالة على انهم خبثـاء كما يـدل على تخلفهم الحضـاري ، فبـدل ان يقومـوا بعمل ضد من يحسـبونه عـدوا تـراهم يجلسون وينتظرون.

(وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ)

والدائرة هي النائبة ، الـتي تحيط بجـوانب الشـخص ، وتحاصره فلا يجد منها مخرجا ، ولكن أ ليس هذا الانتظـار المتخلف واللئيم بذاته دائرة أحاطت بهم أنفسهم؟!

(عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[99] ولكن هـــذه الطبيعة الاولية للأعـــراب الـــتي يقتضيها جهلهم بالشريعة وشدتهم باسـتطاعة الإنسـان ان يغيرها ويخـــرج من مقتضــيات ظروفه عن طريق التوعية والتوجيه.

لــذلك نجد طائفة من الاعــراب تــؤمن بالله واليــوم الاخر ايمانا حقيقيا ولـــــذلك فهي تنفق طوعا وايمانا منها بان الإنفاق توبة الى الله والى دعاء الرسول لها بالبركة.

(وَمِنَ الْأَعْـرابِ مَنْ يُـؤْمِنُ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَواتِ الرَّسُـولِ أَلا إِنَّها قُرْبَـةٌ لَهُمْ سَـيُدْخِلُهُمُ اللـهُ فِي رَحْمَتِـهِ إِنَّ اللـهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

إذا بالرغم من نظرة الإسـلام السـلبية الى البقـاء في البادية فانه لا يحكم على أهلها جميعا حكما مطلقا بل حسب ايمانهم وعملهم.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (100) وَمِمَّنْ حَـوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْـرابِ مُنـافِقُونَ وَمِنْ أَهْـلِ الْمَدِينَـةِ مَـرَدُوا عَلَى النِّفـاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَـذابٍ عَظِيمٍ (101) وَآخَـرُونَ اعْتَرَفُـوا بِـذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللـهُ أَنْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)

---

101 [مـردوا] : المـرد أصـله الملامسة ومنه صـرح ممـرد اي مملس والأمرد الـذي لا شـعر على وجهه وقيل أصـله الظهـور فيكـون المعـنى عتوا وخرجوا من الطاعة.

مواقف الناس من الجهاد

هدى من الآيات :

في مقابل المثل السـيء للمنـافقين ، يـبين ربنا سبحانه واقع المؤمنين الصـادقين السـابقين الى الرسـالة كمثل أعلى للإنسان الكامل ، فالسابقون اولا الى الايمـان سـواء من أهل مكة أو من أهل المدينة ، ومن ورائهم الـذين اتبعـوهم وتـابعوا مسـيرتهم رضي الله عنهم وعفى عن ما تقـدم من ذنبهم ، واطمـأنت نفوسـهم الى رسـالة الله ومناهجه وقضـائه وقـدره وقد أعد الله لهم جنـات تجـري من تحتها الأنهـار خالـدين فيها أبـدا ، وذلك اسـمى تطلع يمكن ان يبلغه البشر ـ رضا ربه وجنات خلد ـ.

بينما هنـاك أعـراب منـافقون ، وآخـرون من أهل المدينة متوغلـون في النفـاق لا يعلمهم الرسـول ، ولا نعلمهم نحن ولكن الله يعـرفهم ، وفي الواقع إن معرفتنا أو عدم معرفتنا لا تؤثر شيئا في جـزاء هـؤلاء ، بل ان ربنا سبحانه سوف يعذبهم مرتين ـ مرة قبل ان يكشفوا ومرة بعدئذ ـ اما بعد الموت فان لهم عذابا عظيما.

وهناك فئة ثالثة متوسطة وهم ضعفاء الايمـان الـذين يخلطون بين الأعمال الصالحة

والسـيئة ، ولكن ليس بـدافع الكفر أو النفـاق بل بسـبب ضعف ايمانهم ، ورجاء رحمة الله. (**عَسَى اللهُ أَنْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**).

بينات من الآيات :

طبقات المؤمنين

[100] السـبق بذاته قد لا يكـون قيمة أساسـية في مقابل قيمة التقوى ، ولكنه يكشف عادة عن التقـوى تلك القيمة الأسـمى عند الرسـالات السـماوية ، والسـابقون الأولـون هم أفضل من غـيرهم لأنهم بـادروا الى قبـول الرسـالة بـإرادة صـلبة تتحـدى الصـعاب ، ولا تستسـلم لضغوط الطغاة ولا للاعلام الفاسد المضلل.

(**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ**)

لا فرق بينهم رغم بعض النعرات الاقليمية التي كـانت تحـاول زرع الخلافـات بين أهل مكة المهـاجرين وأهل المدينة الأنصار. ليس على أساس السبق الى الهدى ، بل على أسـاس المـيزات المزعومة في المجتمع المكي أو المدني ، ولكن الإسلام رفض بقوة هـذه النظـرة الجاهلية وربط بين الفرد وعمله لا بين الفرد وإقليمه.

(**وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ**)

فلم يتبعوهم بنفاق أو من أجل مصـلحة خاصة بل لله سبحانه. ان هؤلاء هم الـذين يكونـون في صف السـابقين الأولين.

وربما تدل كلمة الإحسان على حالة نفسـية هي حالة العطاء والإنفاق لا حالة الاستسلام والقبول المطلق.

(**رَضِيَ اللـهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ**

(**فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

الصف المقابل للمؤمنين :

[101] لكي نعـرف مـدى تحلق السـابقين في سـماء الإنسـانية والخـروج عن جاذبية الشـهوات والضـغوط لا بد ان نلقي نظــرة الى الطــرف الاخر من الصــورة لــنرى المنافقين كيف هبطوا الى حضيض الميوعة.

(**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْـلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ**)

فليس لأنهم من أهل المدينة أو من أهل مكة يمكن التغاضي عن ذنوبهم.

(**لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَــنُعَذِّبُهُمْ مَــرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ**)

فعلم الله تعالى كاف لعذابهم ، فـاذا اختفى المنـافق عن انظار الناس وعن نظر القيادة فلا يغنيه ذلك شيئا لان الله سبحانه قد احصى اعماله وهو الـذي سـوف يجـازيهم فيعــذبهم مــرتين. مــرة قبل انكشــافهم وذلك بالعــذاب الـروحي ، ومـرة بعـده بالعـذاب المـادي ، وكـذلك سـوف يعذبهم بعد الموت عذابا عظيما.

ضعاف الايمان

[102] وهناك فئة وسيطة يعـترفون بـذنوبهم وبـذلك فهم أقرب درجة الى الايمـان حيث ان له مرحلـتين : فهم الحقيقة وتطبيقها ، وإذا عــــرف البشر الحقيقة فربما لا يعمل بها اليــوم ولكنه يعمل بها حين يمتلك قــوة وارادة كافية وهؤلاء.

(**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِـذُنُوبِهِمْ خَلَطُـوا عَمَلاً صـالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

الله يعــاملهم مثلما هم يعــاملون القيم ، ولكن رحمة الله أوسع من ذنوبهم.

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُـزَكِّيهِمْ بِها وَصَـلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَـلاتَكَ سَـكَنٌ لَهُمْ وَاللــهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبـادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللهَ هُـوَ التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ (104) وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللــهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلى عـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّـهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (105) وَآخَـرُونَ مُرْجَـوْنَ لِأَمْرِ اللـهِ إِمَّا يُعَـذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُـوبُ عَلَيْهِمْ وَاللـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106)

---

106 [مرجوّون] : مؤخرون موقوفون لما يروا من أمر الله.
[موعدة] : من الوعد.

بين الصدقات والتطهير

هدى من الآيات :

بعد ان بين لنا الـدرس السـابق ان فريقا من النـاس خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا جاء هذا الدرس ليبين لنا ما يصلح هذا الفريق ، فبدأ الحديث ببيان أخذ الصدقات منهم لتطهير أموالهم ولتزكية نفوسهم ، وأمر القـرآن الرسـول (ص) بالصلاة عليهم لأنه تسكين لقلق نفوسهم المتورطة في الـذنوب ، والله سـميع لما يصـدر منهم من أصـوات ظاهرة وعليم كذلك بخفاياهم.

وبما ان الله يقبل التوبة عن عبـاده فلا بد ألّا ييـأس هـؤلاء من روح الله ، وليبـادروا بإنفـاق الصـدقات لأنه يأخذها بفضله ، وانه هو التواب الرحيم.

ولا يعـني التوبة وإعطـاء الصـدقات الاسـتغناء عن العمـل. كلا .. بل عليهم بالعمل الـدائب الـذي سيتجسد ويـراه الله ورسـوله والمؤمنـون ، وسـوف يجـازيهم الله العالم بالظاهر والباطن والغيب والشهادة.

وهناك فريق من الناس ابعد من هؤلاء وحسابهم على الله ، فاما يعـذبهم أو يتـوب عليهم حسب علمه بـواقعهم وحكمته البالغة والمحددة بطبيعة الجزاء الذي يستحقونه.

بينات من الآيات :

متى تكون الصدقة قسرا؟

[103] الصـــدقة كل عمل يمارسه الفـــرد تقرّبا الى الله وانبعاثا من ايمانه بالله واليـــــوم الآخر ، والصـــــدقة المالية هي الإنفاق المالي بدافع التقوى والايمان ، وهنـاك فريق من الناس لا يعطون الصـدقات بل تؤخذ منهم أخـذا ، وهؤلاء هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، والذين حـــدّثنا القـــرآن عنهم في الآية الســـابقة ولـــذلك امر الله رســـوله (ص) ومن ورائه (القيـــادة الاســـلامية) بأخذ الصدقة من أموالهم حـتى ولو وجـدوا صـعوبة نفسـية من دفع الصـــــــدقات طوعا ورغبة ، ولكن لا يعـــــني ذلك الاقتصاص منهم أو اعتبار ذلك كالجزية الـتي هـدفها القهر والتصغير. لا .. انما هدف أخذ الصدقة :

اولا : تطهير أموالهم وتنظيف سمعتهم الاجتماعية.

وثانيا : تزكية نفوسهم وتربيتها على الكرم ، والخروج من زنزانة البخل ، ورفعهم الى مســـــتوى العطـــــاء والاحساس بمسؤوليتهم الاجتماعية.

(**خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها**)

ولا يعني أخذ الصدقة الاستيلاء على أموالهم ، بل أخذ قـدر محـدد منها مثل الخمس والزكـاة أو سـائر الحقـوق الاجتماعية التي تحددها الظروف الاجتماعية.

ولكن هـــذا الأخذ يجب الا يســـبب لهم حرجا نفســـيا يبعدهم عن طريق الحق ، لذلك يجب الدعاء لهم.

(**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**)

والدعاء لهؤلاء بالخير والبركة يعني أيضا السـعي وراء خيرهم ورفاههم في مقابل عطائهم كأي دعاء اخرى حيث انه ليس منفصلا عن العمل من أجل ما يدعو له الفرد.

والـدعاء بالصـلاة لهـؤلاء يسـبب سـكون نفوسـهم واطمئنانها الى الله ، والى المجتمع المسـلم الـذي تمثله القيادة الرسالية ذات الاهتمام بكل الناس.

(**وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)

يسـمع الـدعاء ، ويعلم باهـداف المصـلي الـذي يبتهل اليه سبحانه بالدعاء ولإخوانه.

قبول الله للصدقات :

[104] علم الله تعالى بأحوال عباده يجعلنا نؤمن بأنه يقبل التوبة الصـادرة عن عبـاده ، وانه يأخذ الصـدقات بالرغم من ان المبتهل الى الله هو الرسـول أو المؤمنـون ، فان الله هو الذي يقبل التوبة لا الرسول فقط ، وبالرغم من ان الرسـول يأخذ الصـدقة في الظـاهر ولكن الله هو الذي يأخذها في الواقع.

(**أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَـةَ عَنْ عِبـادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**)

[105] لكي يطهّر هذا الفريق الذي خلط عملا صالحا وأخر سيئا ليطهروا أنفسـهم ويزكوها ويعطوها المزيد من الصـلابة الايمانية فـانّ عليهم ان يعملـوا فالعمل يخلف أثـرين في النفس برسـوخ الايمـان فيها ، وفي الواقع الخارجي بمكاسب يراها الله

ويراها الرسول والمؤمنون.
(**وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللـهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**)
ولـذلك لا قلق أبـدا على الإنسـان العامل ان يضـيع عمله في زحمة الاحـداث ، ولا خـوف من عـدم حصـوله على نتائج عمله. عاجلا أم آجلا هنا وعند الاخرة.
(**وَسَتُرَدُّونَ إِلى عـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّـهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)
فالله سـبحانه الـذي يعلم الظـاهر والبـاطن لا يكتفي بإعطاء الجزاء الوافي للعامل ، بل وأيضا يـبيّن للعامل ان هذا الجزاء انما هو لذلك العمل ليكـون ألذ وأطيب وأدعى الى الاعتزاز والفخر.
كل هذا علاج شاف للنفوس الضـعيفة الـتي لا تمحض الايمـــان ، ولا تخلص العمل الصـــالح بل تخلطه بالعمل السيء.
وكلمة اخـــيرة : ان أكـــثر المســـلمين هم من هـــذا الفريـق. الـذي لم تتكامل شخصـيتهم الايمانية فعليهم ان يســـتفيدوا من هـــذا العلاج لتعميق روح التقـــوى في نفوسهم.

المرجون لأمر الله :

[106] هنـــاك فريق أخر لا يصـــلحون أنفســـهم ولا يستفيدون من هذا العلاج القرآني لضعف نفوسـهم وخـور عزائمهم لذلك يبقى هؤلاء مرددين بين النار والجنة.
(**وَآخَـرُونَ مُرْجَـوْنَ لِأَمْـرِ اللـهِ إِمَّا يُعَـذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)
ربما حسب ظــروفهم الاجتماعية فقد يكــون الــذنب بسبب ظروف صعبة لا

يحتملها ايمان الفرد وإرادته ، فرحمة الله تعالى واسـعة ، وقد يكون الذنب بسـبب تحـدي سـلطان الله أو اللامبـالاة بأوامر الله ، أو الاسترسال التام مع الشهوات فالله شديد العقاب.

(**وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

ومن هنا فعلى البشر الا ييـــــــأس من روح الله ولا يسترسل مع الذنوب حتى ولو كـانت ذنوبه كثـيرة وكبـيرة بل يقف فيها على حـــدود معينة تبعا لظروفه الضـــاغطة عليه باتجاه الذنوب ويحاول أبدا ان يدع علاقاته بالله باقية غير مقطوعة.

كما أن عليه الاّ يعتمد كليا على رحمة الله ، فربما يكتشف عند المــوت أن نقمة الله تســتقبله بــدل رحمته بسبب ذنوبه الكبيرة.

علم الله بلطـائف نيّـات البشر ، ودقـائق أعمـالهم ، وحكمته البالغة التي لا يسـقط شـيئا من حسـابه وتقـديره كل ذلك يجعلنا حذرين أبـدا حاسـبين حسـاب كل شـيء ، عاملين حسب المستطاع من أجل الخلاص من عذاب الله ، والوصول الى رحمته الواسعة.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْـجِداً ضِـراراً وَكُفْـراً وَتَفْرِيقـاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْـنى وَاللــهُ يَشْـهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (107) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْـجِدٌ أُسِّـسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيـهِ فِيـهِ رِجـالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللــهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْـرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هـارٍ فَانْهـارَ بِـهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَـوْمَ الظّالِمِينَ (109) لا يَزالُ بُنْيـانُهُمُ الَّذِي بَنَـوْا رِيبَـةً فِي قُلُـوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)

رسالة المسجد ومسجد الضرار

هدى من الآيات :

في معرض بيانه للفئات الاجتماعية المختلفة في هذه السلسـلة من الـدروس يـبيّن السـياق حالة فئة منافقة تتستر بالدين ، وتتخذ مسجدا للأضرار بالمسلمين وإفسـاد عقائـدهم وبث التفرقة بين صـفوفهم وتعبئة للقـوى المعادية للرسـالة. كل ذلك تحت شـعارات براقة وبادعـاء انهم انما يريدون الخير والحسـنى للنـاس بينما يشـهد الله انهم كاذبون.

وينهى الله ورسوله من القيام في هذا المسـجد ، لان المسجد يجب ان يكون بنـاؤه على أسـاس التقـوى وليس الإضـرار والكفر والتفرقة وبتعبـير آخر على أسـاس النفع والايمان والوحدة وبـدل تجميع القـوى المعادية ، يجب ان يجمع المسجد رجالا يحبـون التطهّر والصـلاح ، والله يحب المتطهرين.

ان المسـجد يجب أن يبـنى على أسـاس التقـوى ورضـوان الله واتبـاع مناهجه ، والا فهو من دون أسـاس ثابت بل مبـني على طـرف هاوية ، وبـالطبع سـوف ينهـار هذا

البناء ، وتكون عاقبة أهله نار جهنم ، لان أساسه منحــرف ، والله لا يهدي القـوم الظـالمين الـذين انحرفـوا فظلمـوا أنفسهم بالكفر والفساد.

وهذا البنـاء التحـريفي لا أسـاس له حـتى في نفـوس بناته ، لأنهم يشـكّون في سـلامة خطتهم ويرتـابون حـتى تقطع قلــوبهم وتشــتت إرادتهم والله عليم بما يفعلــون ، وحكيم حينما يجازيهم على أفعالهم.

بينات من الآيات :

مسجد ضرار :

[107] مــرة اخــــرى يكشف لنا القــــرآن عن خطة شيطانية ماكرة هي تسترفئة من المنافقين بشـعار الـدين ، وبناء المساجد للفساد ، ويبيّن أن علينا أن نكون حـذرين فلا تخـدعنا المظـاهر بل ان نتعمق أبـدا الى ما ورائها من أهداف ، وكل عمل يقوم به شخص أو فئة يجب أن نجعله في ســياقه التـــاريخي ونقيسه على أســـاس الغايـــات المتوخّاة من ورائه.

فهــؤلاء فئة من المنــافقين اتخــذوا مســجدا بهــدف الإضــرار بينما أسـاس المسـجد هو النفع .. المسـجد لله تعالى وقد اتخذ هؤلاء مسـجدا للكفر باللــه. لتكـريس قيم الشيطان ، مثلا : لتفريق النـاس على أسـاس عنصـري أو قـــومي أو إقليمي أو عشــائري ليقولــوا : هــذا من أهل المدينة وهــــذا من أهل مكة ، ونحن نقبل الخــــزرج دون الأوس.

وهــدف بنــاء المســجد تعبئة الطاقــات الخيّــرة في المجتمع بينما هدف هؤلاء من بنـاء المسـجد تجميع شـذاذ الأرض ، وإرصادهم ودفعهم نحو مقاومة الرسالة.

(**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً**)

اي للإضرار بالنـاس لا النفع ، وربما أضـحى المسـجد ضـــرارا لأنه بـــني بـــأموال المســـتكبرين ، مثل كبـــار الرأسماليين و رؤسـاء القبائل العنصـريين ولـذلك لم يكن من الممكن أن يهدف المسـجد سـوى الضـرار واسـتغلال المستضعفين ، والتسلط على رقـاب النـاس باسم الـدين هذه المرة.

(**[وَكُفْراً]**)

ومحتوى ذلك المسجد من الناحة الإيدلوجية والثقافية كـان الكفر بالله وبـالقيم الرسـالية ، بـالرغم من اقامة الصلاة فيه. لان الصلاة كانت ضد الصـلاة الحقيقية ، وتلك الشـعائر الـتي تهـدف اعـادة حكومة المسـتكبرين ليست سوى الكفر والضلال.

(**وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

كـــان المســـجد يميّز بين الفقـــراء والمستضـــعفين والمهاجرين من أهل مكة ، وبين الأغنيـاء ورؤسـاء القبائل وكبار المنافقين من أهل المدينة ، بينما المسجد الرسالي يجمع الكل على صعيد المساواة.

(**وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ**)

فبينما ينبغي أن يكـــــون المســـــجد منطلقا لتجميع الطاقات المؤمنة الصادقة مع المجتمع ، ترى هذا المسجد يجمع كل منافق ، ويعبّؤهم لمحاربة الله ورسوله.

كل ذلك وأصـحاب هـذا المسـجد يـدّعون بـأنهم لا يهدفون شرّا ، بل هدفهم مقدس وهو تحقيق أفضل حيـاة للإنســان ، وحماية حقــوق البشر ، وصــيانة الاســتقلال والحرية.

(**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ**)

أساس المسجد واهدافه :

[108] وينهى الله رسـوله وبحـزم بـالغ ألّا يقـوم في هذا المسجد أبدا.

(**لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً**)

فحـتى لو كـان البنـاء باسم المسـجد فانه لا يكتسب شرعية ، لأنه مبني بهدف الفساد والكفر ، وقيام الرسول أو القيـادة الرسـالية في مثل هـذه المسـاجد الـتي بـنيت لتكـريس سـلطة الطغـاة أو لتحقيق قيم الجاهلية يعطي شرعية زائفة لها.

(**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ**)

والتقـوى هنا تفسّـر بما سـبق وهو : أن يكـون هـدف بنـاء المسـجد النفع لجميع النـاس من الناحية الاقتصـادية والاجتماعية ، واشـاعة قيم الرسـالة من الناحية التربويّة وبث روح التحـابب والتعـاون من الناحية الخلقية والسياسية.

اما من يجتمع في هذا المسجد ويقود مسـيرته ، فهم أناس نظيفون هدفهم أولا تزكية ذواتهم ، ثم تربية الناس.

(**فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**)

فليس هدفهم اسـتغلال الفقـراء ، ولا التسـلط عليهم باسم الـدين ، ولا التعـالي عليهم باسم العلم والفضـيلة ، بل هم بـدورهم يبحثـون عن الطهـارة ، ويهـدفون تكميل شخصـياتهم ، وبـذلك يضـربون مثلا حيّا لمن يقـوم في المسجد من الناس.

[109] ان أسـاس هـذا المسـجد مختلف عن مسـجد الضرار الذي لا أساس له. ان بناء هذا المسـجد الرسـالي قائم على أساس التقـوى ، والبحث عن رضا الله تعـالى ، وبالتالي تنفيذ منـاهج الرسـالة وتحقيق أهـدافها بينما قـام ذلك المسجد على أساس

متزلزل ، انه قام من أجل الأهواء والمصالح الــتي لا تثبت على حال. بل تتبع رياح القوة والـثروة ، فـاذا هبّت الريـاح جنوبا أو شـرقا تـراهم من أفضل خـدم الشـرق وإذا هبّت شمالا أو غربا تـراهم من أفضل تلامـذة الغـرب وإذا حكم آل كـذا! فعلى أهل المسـجد التسـبيح بحمد آل كـذا! وإذا حكم أعداؤهم فعليهم لعن آل كذا!

(**أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ**)

اي الطرف القريب من المنحدر.

(**فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ**)

ان على المسجد ان يكون له ثقل في الواقع الاجتماعي والسياسي يهتدي النـاس به كما يهتدون بـالنجوم الثابتـة. ويطمئنـون اليه ويسـكنون في ظله كما يطمئن شـتات المستضـعفين الى الامـام الهـادي ، وكما يسكن الخائفون الى ركن شديد ، المسجد يعبّئ الطاقات المؤمنة بعد أن كانت متفرقة ويعطيها قوة التجمع بعد ان كانت مستضـعفة لـذلك يجب ان يكـون المسـجد مسـتقلا عن متغيّـرات السياسة ، ويجب أن يكـون أئمة المسـاجد مسـتقلين عن السـلطات ، أما إذا كـانوا أقمـارا في فلك السياسة المتغيّرة فان الله لا يهديهم طريقا لأنهم ظالمون لأنفسهم ولدورهم الرسالي.

(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

الشك والاهداف القصيرة :

[110] وهذا المسجد القائم على أساس الظلم يبقى من دون أساس حـتى بنـاة المسـجد لا يعتمـدون عليه ولا يزالون يشكّون فيه.

(**لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَـةً فِي قُلُـوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

لأنهم لا يؤمنــون فعلا بالمســجد وبــدوره الرائد في المجتمع ، فهم انما بنوه لغرض فـاذا بلغـوا هـدفهم تركـوا المسجد وكانوا كمن قال فيه الشاعر :

صـلى المصـلي لأمر كـان يطلبه ... لما انقضى الأمر لا صـــلى ولا صـــاما

سورة التوبة

إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)

صفات المجاهدين

هدى من الآيات :

في سـياق اسـتعراض فئـات النـاس حسب مـواقفهم من الرسـالة ، يـذكرنا القـرآن بالمثل الأعلى للمؤمـنين ، وهم الفئة التي اشترى الله منهم كل ما لـديهم في الـدنيا في مقابل الجنة في الآخـرة ، لـذلك تـراهم يقـاتلون في سبيل الله ولا فرق عندهم بين أن يقتلـوا أو يقتلـوا ، ولقد قطع الله معهم وعـــدا حقا ذكـــره في التـــوراة والإنجيل والقرآن ، وهل هناك من يفي بوعـده بالطريقة الـتي يفي بها ربنا العزيز الحكيم؟! تلك إذا صـفقة رابحة يستبشر بها المؤمنون وهي فوز عظيم.

ومن صفات هذه الفئة التوبة (إصلاح الذات) والعبادة (التبتل الى الله في الـدعاء والصّـلاة) والحمد (الرضا بما يقسم الله ، والاطمئنان الى رحمته الواسـعة) والسـياحة (السير في الأرض اعتبارا أو جهادا) والركـوع والسـجود ، والتسليم لله والخضوع له ، والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر ، وصيانة حدود الله.

كل هذه الأعمال الكبـيرة تجعلهم أعلى مثل للإنسـان المسلم ، ولذلك يجب أن

نبشّرهم ونهنيهم بها.

بينات من الآيات :

علاقة الله بالمؤمن بيع وشراء

[111] حين تـــدفع ألف دينـــار لتأخذ قطعة أرض من مالكها ، كيف تتعامل مع الألف دينار؟ بالطبع سوف تقطع علاقتك الخاصة بها وتنتظر صاحب الأرض متى يطالبك بها لتـدفعها اليـه. كما انه بـدوره ينتظـرك حـتى يـدفع إليك الأرض الــتي اشـــتريتها ، وهكـــذا حين اشـــترى ربّنا من المؤمنين ما هو لهم في الدنيا من مـال ونفس ، ووعـدهم الجنة وعد الصـــدق ، فانك أنت المـــؤمن البـــائع لا تـــرى لنفسك الحق في التصـــرف في نفسك أو مالك ، لأنك قد بعتها الى الله نعم المشتري بأفضل ثمن وهو الجنة ، ومن هنا يـــزداد شـــوقك الى الجنة كل لحظة لأنك قد امتلكتها بفضل الله.

هل تشك في أن الله سـوف يـدفع إليك ما وعـدك؟. كلا بل هو أوفى من وعد لأنه غـــني حميـــد. مالك الجنـــان الواسعة التي عرضها السموات والأرض.

(**إِنَّ اللـــهَ اشْـــتَرى مِنَ الْمُـــؤْمِنِينَ أَنْفُسَـــهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**)

ولــذلك تجد نفسك مشـتاقة الى الجهـاد لأنه طريقك الى الشــهادة ، وهي ســبيلك الى الجنة ، والى لقــاء الله حبيب قلوب المؤمنين.

(**يُقـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ فَيَقْتُلُـونَ وَيُقْتَلُـونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ**)

وفي كل عصر تجد المؤمــنين الصــادقين يتســابقون الى الجهــاد. من أيــام موسى الى عهد عيسى (ع) ، الى عصر محمد (ص).

(**وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ**)

وفاء الله بعهده ثابت لأنه صـادق وقـادر وعزيز ، وهو أرحم الراحمين. يدفع إليك ما وعدك أضعافا مضاعفة.

(**فَاسْتَبْشِـرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بـايَعْتُمْ بِـهِ وَذلِـكَ هُـوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

صفات المؤمنين :

[112] من مواصـــفات هـــذه الفئة أن كل جـــوانب حياتهم تتجلى بهـذه الصـفقة الرابحة ، فهم من أهل الجنة الذين لا علاقة لهم بالدنيا وحطامها ، لذلك نجدهم :

ألف : يتوبـون الى الله في كل لحظة ، ومن كل ذنب يرتكبونه. غفلة أو جهلا أو جهالة ، وهكذا يصلحون أنفسهم كلما أفسدتها عوامل الشهوة وضغوط الحياة.

باء : ويعبدون الله ويتبتلون اليه ويتضرعون ليل نهار ، وبذلك يزدادون رسوخا في الايمان وصلابة في الجهاد.

جيم : ويحمدون الله سـبحانه ، فهم أبـدا راضـون بما يعطيهم ربهم سبحانه ، وهكـذا تكـون شخصـياتهم سـليمة غير معقدة بتلك العقد التي تتراكم على قلوب أهل الــدنيا بسـبب الاحباطـات النفسـية الـتي يتعرضـون لها ، وهكـذا يـزدادون قـدرة على العطـاء وتحملا للعنـاء وسـلامة في الجسم.

دال : ويسيحون في الأرض لينظـروا ما فيها من عـبر التـاريخ ويسـتخرجوا ما فيها من طاقـات سـخّرت لعمـارة الأرض ، وليروا من فيها من بشر ينتظـرون الهداية والبلاغ ، وبالتالي ليروّضوا أنفسهم على التعب من أجل الله.

هاء : يركعون ويسجدون لأنهما مظهـران من مظـاهر العبادة الصادقة والتبتل

الى الله.

واو : (**وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**) لأنهم قد هيأوا أنفسهم لهذه المسؤولية الكبيرة.

زاي : ويعتبرون أنفسهم شهداء على تطبيق النظام الاسلامي. وحدود الشريعة المقدسة ، لذلك فهم حافظون لحدود الله. سواء بأنفسهم فلا يعطون لأنفسهم الحق في تغيير حدود الشريعة باجتهادهم أو بسبب أنهم ثوار مجاهدون. كلا .. بل يلتزمون دائما قبل الآخرين بتفاصيل المناهج التي بينها لهم ربهم سبحانه ، ولذلك فان الله يبشّرهم برحمة واسعة منه.

(**التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**)

سورة التوبة

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَـوْ كـانُوا أُولِي قُـرْبى مِنْ بَعْـدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْـحابُ الْجَحِيمِ (113) وَما كـانَ اسْـتِغْفارُ إِبْـراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْـراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَما كـانَ اللـهُ لِيُضِـلَّ قَوْمـاً بَعْـدَ إِذْ هَـداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللـهَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللـهَ لَـهُ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (116)

---

114 [لأواه] : الاوّاه من التأوه وهو التوجع.

الولاء للرسالة

هدى من الآيات :

لقد فصّلت آيات الدرس السـابق مواقف الفئـات من الرســالة ، وفي هــذا الــدرس والــدروس القادمة يــبيّن السياق القرآني جوانب من علاقات هذه الفئات ببعضــها ، وبـدئها بضـرورة فصم الـولاء بين المؤمـنين والمشـركين حتى ولو كانوا أقاربهم الأدنين.

فلا يجوز للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشـركين ، لان ذلك نوع من العلاقة الايجابية المحظورة شرعا ولأن الاستغفار لا ينفع أحدا إذا أصرّ على الشرك والعناد.

ولم يكن اســتغفارا إبــراهيم (ع) لأبيه وهو يعلم أنه مشـرك الّا بسـبب وعد بينهما ، وربما كـان يرجو إبـراهيم اهتـداء أبيه ، بيد أنه لمّا علم أنه عـدو لله تـبرّأ منه ، وقد كــان إبــراهيم (ع) ممحضا في التوحيد ومتبتّلا الى الله ، وكان في الوقت ذاته حليما.

ولقد هـدى الله البشر بـالفطرة ، وأرسل إليهم رسلا بيّنوا لهم شرائع الدين ، فلما خالفوا تلك الشرائع ــ وليس قبل ذلك ـ أضلّهم الله ، والله بكل شيء عليم.

وهكـذا ينهى الله سـبحانه عن الاسـتغفار للمشـركين لأنه هداهم فاستحبّوا العمى فاضلّهم وأبعدهم ، والله ولي البشر لأن له ملك السموات والأرض دون أسـرة الإنسـان وأقاربه.

بينات من الآيات :

شروط الاستغفار :

[113] بعض الناس يـذنب ويتمـنى لو أن الرسـول أو أحد الأوليـاء يشـفع له ذنبه بمجـرد أنه ابن ذلك الـولي أو تابع للرسول.

وقد يكون ذلك التمني معقولا ولكن بشروط ثلاثة :

أولا : ـ الّا يكون مجرّد تمني بل يشفع بعمل وسـعي ، يقـول القـرآن الحكيم في آية كريمة : «**أَمْ لِلْإِنْسـانِ ما تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى**» ، الى قوله سبحانه : (**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى**) مما يـدل على ان التمـني لا يجدي نفعا لو بقي في حدود التمني.

ثانيا : ـ أن تكـون علاقته بـالولي ، أو بالرسـول علاقة ايمان لا علاقة إعجاب عاطفي أو انتماء نسبي ، فالرسول (ص) ليس أبا لأحد من الرجـــال بل هو قبل كل شـــيء رسول بعثه الله ليطاع باذنه ، فلو كانت العلاقة معه نابعة من الايمان بالله فانها تشفع له.

ثالثا : ـ الّا يكون الـذنب هو الشـرك بالله العظيم لأن الله يغفر كل الذنوب دون الشرك بالله تعالى.

ضمن هذه الشـروط يقـدر النـبي أو الـولي أن يشـفع للمـذنبين ، ولكن لا تعـني الشـفاعة أنه يفـرض على الله غفران ذنوبهم ، بل أنه يدعو والله يستجيب دعاءه

بفضله ، وهكـذا تكـون الشـفاعة والاسـتغفار بمعـنى واحد لان الاسـتغفار هو الـدعاء بغفـران ذنب المـذنبين ، والآية التالية تؤكد على الشـرط الأخـير الـذي هو الأهم من هـذه الشروط الثلاث للشفاعة فتقول :

(**ما كـــانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُـــوا أَنْ يَسْـــتَغْفِرُوا لِلْمُشْـرِكِينَ وَلَـوْ كـانُوا أُولِي قُـرْبى مِنْ بَعْـدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ**)

فما دام الشـخص مشـركا فهو من أصـحاب النـار لا محالة فلما ذا طلب المغفرة له ، ولمـاذا أساسا الارتبـاط النفسي بـه. إنه من أمة ونحن من أمة ان صـاحبه النـار وصاحب المؤمنين الجنة.

[114] نعم ان الاستغفار يجوز للمشرك وذلك بطلب الهداية له من الله سبحانه ، كما كان الرسول (ص) يكرّر هـــذه الكلمة في المواقف الحرجة من حياته الرســالية (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون وكما كان إبـراهيم (ع) وعد أباه أن يستغفر له (**قالَ : «سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَـزِلُكُمْ وَما تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ وَأَدْعُـوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُـونَ بِـدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا**)».

ذلك لأنه كان يسـعى آنئذ نحو هداية قومه وإخـراجهم من ضـلالتهم ، اما بعدئذ حينما تــبيّن له أن أبـاه وقومه أعداء لله ، وان شركهم ليس لجهلهم بل للعناد والتحـدي. هجرهم وتبرأ منهم.

(**وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيـهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِـدَةٍ وَعَـدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَـهُ أَنَّهُ عَـدُوٌّ لِلَّهِ تَبَـرَّأَ مِنْـهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**)

[115] والله كذلك لا يأمرنا بمقاطعة المشركين فورا ومن دون سابق تبشير وإنذار ، انما علينا أن نـدعوهم الى الهدى بكل وسيلة ، ومنها الدعاء لهم بالهداية ، فاذا

عانــدوا تركنــاهم وتبرّأنا منهم ، كما أنه ســبحانه لن يضل الناس بعد أن هداهم. وكشف لهم تفاصيل الشريعة.

(**وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ**)

ان هدايته اما تكـون بـالفطرة حيث خلق الله النـاس وأركز في أنفسهم معرفته وزوّدهم بالعقل ليعرفــوا الحق ، أو تكون بالرسالة حيث بعث أنبياء ليهدوهم ، فلما اهتدوا وأنعم الله عليهم بالرخاء طغوا ونسوا ما ذكّروا بـه. هنالك يضلّهم الله ويسـلب منهم نعمة الهداية الـتي سـبق وأنعم بها عليهم فلم يراعوها حق الرعاية ، وأهملوا السنن الـتي بينها لهم ، وأهملـوا المحرّمـات الـتي أمـرهم الله تعـالى باتقائها واجتنابها.

(**حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ**)

أي الذنوب التي يجب اجتنابها.

(**إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

فهو عليهم بأســباب شــقاء الإنســان ، وكيف يجب اتقائها ، وعليم بواقع ذلك القـوم الـذي لم يجتنب الـذنوب وأرتكب أسباب الشقاء ، لذلك فلما يضلّهم ، يضـلّهم بعلم سبحانه.

[116] كـذلك يجب الّا ينتمي الإنسـان الى قرابته بل الى الله ، فلا يستغفر للمشــركين من أقاربه ، لأن الله له ملك السـموات والأرض وأسـرة الفـرد لا تغـني شـيئا عن الله.

(**إِنَّ اللــهَ لَــهُ مُلْــكُ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**)

سورة التوبة

لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُـوبُ فَرِيـــقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تــــابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (117) وَعَلَى الثَّلاثَــةِ الَّذِينَ خُلِّفُــوا حَتَّى إِذا ضــاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضـــاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُـــهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَـأَ مِنَ اللــهِ إِلاَّ إِلَيْـهِ ثُمَّ تــابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

الطاعة في ساعة العسرة

هدى من الآيات :

ان الله تعالى يغفر الـذنوب الـتي ارتكبها البشر تحت ضغط الظروف الصعبة مثل سـاعة العسـرة الـتي مـرّ بها أصـحاب الرسـول (ص) وكـادت قلـوبهم تصـاب بـالزيغ والانحـــراف بل الضـــلال ، فغفر الله لهم لأنه رؤف رحيم بهم ، ويعرف مـدى ضـعفهم ، كما غفر الله لأولئك الـذين تخلّفوا عن المعركة ثم تابوا الى الله وعرفـوا ألّا ملجأ من الله الا اليه ، فآنئذ تـــاب الله عليهم ، ليعـــودوا اليه والى مناهجه السماوية.

وهكذا يأتي هذا الدرس مكملا لآيات الـدرس السـابق الــتي تــبيّن لنا أن الاســتغفار انما هو قبل بلــوغ الــذنب مستوى الشرك بالله ، فاذا بلغه فـان الله لا يغفـره أبـدا ، أما قبلئذ فان الله سبحانه يغفر بعض الذنوب.

بينات من الآيات :

الشفاعة متى ولماذا؟

[117] نعـود ـ مـرة اخـرى ـ الى الشـفاعة ، ومـتى وكيف يشفع الرسول في أمته؟

لنؤكد على حقيقتين :

الاولى : ان الشــفاعة من عمل الإنســان وســعيه ، وليست من تمنياته وأحلامه.

الثانية : ان الهــدف من الشــفاعة تعميق الصــلة بين الرســول (ص) وقومه ، ونســتوحي من الآية التالية كلتا الفكرتين : ولكن كيف؟

دعنا نتدّبر في الآية الكريمة :

(**لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ**)

توبة الله على النــبي تعــني المزيد من بركاته عليه ، ولكن بالنســبة الى المهــاجرين والأنصــار قد تعــني أيضا غفران ذنــوبهم ولكن بمــاذا وكيف غفــرت ذنــوبهم؟ بــأنهم أتبعوا الرسول في ســاعات الشــدة ، ولأن ذلك كــان عملا كبيرا والله سبحانه يغفر بسبب الحسنات الكبيرة الــذنوب الصغيرة لذلك أكّدت الآية على هذه الحقيقة.

(**الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ**)

فالصــبر في ســاعة العســرة عمل عظيم يغفر الله تعــالى بســببه ســائر الأعمــال الصــغيرة ، ولكن أهم نقطة هي اتبــاع الرســول ، وعــدم الخلاف معه ، وعــدم الاسترســال مع حالة الزيغ ، الــذي يصــيب البشر في مثل هذه الحالات الصعبة.

(**مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ**)

وزيغ القلب هو انحرافه عن الايمان بالله والرســول ، وإذا اتبع المؤمن قيادته ولم يتشكك فيها بسبب الظــروف الصعبة فان ذلك يشــفع له ذنوبه ، لأن الرســول أو الــولي الذي يمثل القيادة ســوف يشــفع له عند الله ، ويصــلي له ويستغفر له ، وبهذا نعــرف فلســفة الشــفاعة فهي ســبب لتمتين الارتباط بالرسول (ص) أو بالقيادة السليمة.

(**ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ**)

حين تضيق بنا الحياة!

[118] وهناك حالة مفردة غفرها الله سـبحانه وهي : أن ثلاثة من أصـحاب الرسـول (ص) تخلّفـوا عن الجهـاد فغضب الله عليهم وأمر الرسول الّا يكلمهم المســلمون ، فشعروا بضيق كبير حتى ضاقت عليهم الأرض بالرغم من سعتها ورحبها.

(**وَعَلَى الثَّلاثَــةِ الَّذِينَ خُلِّفُــوا حَتَّى إِذا ضــاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ**)

ضـيق الأرض بسـبب مقاطعة المجتمع لهم ، وضـيق أنفسهم بسبب شعورهم بالذنب ، لذلك توجهوا الى الله.

(**وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ**)

اي تصوروا هـذه الحقيقة ماثلة أمـامهم كـأنهم يرونها بالرغم من ايمانهم المسبق بهذه الحقيقة وهي أن الكهف الحقيقي لا يــــوائهم في زحمة المشــــاكل هو حصن الله الحصين.

(**ثُمَّ تــابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُــوا إِنَّ اللــهَ هُــوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ

---

120 [مخمصة] : المخمصة المجاعة وأصـــله ضـــمور البطن للمجاعة يقال للرجل خميص البطن.

[يغيظ] : الغيظ انتقاض الطبع بما يرى مما يسوؤه يقال غاظه يغيظه.

[نيلا] : النيل الأمر ونيلا : أمرا.

125 [رجسا] : الـرجس هي النجاسة .. وانما سـموا بـذلك لأنّ الكفر والنفاق كالنجاسة.

لِيَجْـزِيَهُمُ اللـهُ أَحْسَـنَ ما كـانُوا يَعْمَلُـونَ (121) وَما كـانَ الْمُؤْمِنُـونَ لِيَنْفِـرُوا كَافَّةً فَلَـوْ لا نَفَـرَ مِنْ كُـلِّ فِرْقَـةٍ مِنْهُمْ طائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِي الـدِّينِ وَلِيُنْـذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)

خطوات المجاهدين عمل صالح

هدى من الآيات :

من أجل تحريض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله ، أكدّ القرآن الحكيم على ضـرورة التقـوى والانسـجام مع المؤمــنين الصــادقين ، وفي طليعتهم رســول الله (ص) الذي لا ينبغي التخلّف عنه أو تفضيل حياتهم وراحتهم على حياته وراحته لأنه لا يصـيب أحـدا من الاعـراب أو من أهل المدينة شــيء من الأذى الّا كتب له بقــدره عمل صــالح يجازى به سواء كـان ذلك الأذى عطشا أو تعبا أو مجاعة ، ولا يعملون عملا الّا سجّل بحسابهم سـواء كـان صـغيرا أو كبـيرا ، ومقيــاس العمل هو التحــرك في ســبيل الله ، أو مقاومة أعدائه ، و (**إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**).

كما أن أية نقطة صغيرة أو كبيرة محسوبة عند الله ، وكـذلك قطع المســافات هو الآخر محســوب بقــدر الجهد والعناء الذي يصيبهم بذلك ، والله سبحانه سوف يجــازيهم خيرا عليه.

وعلى المؤمــنين المنتشــرين في أقطــار الأرض أن تختار كل فرقة منهم طائفة لينفروا

الى (المدينة) مركز القيادة الاسلامية لكي يكونوا قريبين من الأحداث ، ويعرفوا تعـاليم الـدين ، ويتعمّقـوا في فهم الرسالة ليقوموا بعد عودتهم بواجب الإنذار لقومهم بهدف تزكية وتعليم قومهم ، واعادتهم الى الصراط المستقيم.

بينات من الآيات :

واجبات وأولويات المؤمن

[119] ثلاث واجبات متكاملة ينبغي أن يعقد المسـلم عزمه على تحقيقها :

أولا : الايمان المستقر في قلبه.

ثانيا : التقوى وتنفيذ سائر الواجبات الاسلامية.

ثالثا : أن يكون مع الصادقين وهم التجمع الرسالي.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللـهَ وَكُونُـوا مَـعَ الصَّادِقِينَ**)

وأيّ واحد من هذه الواجبات الثلاث لا يكتمل من دون سائر الواجبـات ، وبالـذات الانتمـاء الى تجمع الصـادقين ، والتفاعل معهم ثقافيا واجتماعيا واقتصـاديا ، ومشـاركتهم الهمـوم والآمـال. ذلك لأن هـذا التجمع حصن الايمـان والتقوى ولأن ضغط الحيـاة وتحـدياتها كبـيرة ولا يسـتطيع المؤمن أن يواجهها وحده.

صفات المجتمع الرسالي :

[120] المجتمع المستقر الراكد ليس مجتمعا رسـاليا ولا مسـلما لأن الإسـلام الحقيقي هو الاهتمـام بشـؤون الآخـرين ، والـدفاع عن حقـوق المستضـعفين الى درجة الجهاد من أجلهم ، والمجتمع الاسلامي لا يجمد في حـدود اقليمية ضـيّقة ، ولا يقـول بنـاء الـوطن أولا ، ثم الانطلاق لاصلاح الآخرين لأنه لا وطن للفضيلة والخير ، ولا

حدود للعدالة والرفاه.

وهكذا كـان الرسـول (ص) نـذيرا للعـالمين ، وهكـذا كان يجب على أهل المدينة وهم أبنـاء المجتمع الاسـلامي الأول ، أن يتّبعوا الرسول في حمل رسالته بلاغا وتنفيـذا ، قولا وعملا.

(**مَا كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَـوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْـرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ**)

فيقعـدوا في بلـدهم ويطبّقـوا الإسـلام ويقولـوا علينا بإصـلاح بلـدنا وحـده. كلّا .. كـان عليهم أن يسـيروا في الأرض كما كـان يسـير رسـول الله (ص) ، ويحملـوا على أكتافهم مشعل الرسالة الى كل مكان. أو كانت نفوسـهم أعز من نفس رسول الله (ص) ، من يدعوا نفس رسـول الله تتعرّض للمصـاعب والأخطـار بينما نفوسـهم آمنة في المدينة؟

(**وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِـهِمْ عَنْ نَفْسِـهِ ذلِـكَ بِـأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**)

وبالتـالي لا يصـيبهم مكـروه الّا وهو مسـجل عند الله تعالى ويوفيهم جزاءهم كاملا.

(**وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ**)

فسـواء بقـوا أو اتبعـوا العـدو تضـرّروا أو أضـرّوا بالمخالفين.

(**وَلا يَنـالُونَ مِنْ عَـدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِـهِ عَمَـلٌ صالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**)

فهناك مقياسان للعمل الذي يجازيه ربنا الرحيم به :

المقياس الاول : أن تحسب مقدار عنائك وتعبك.

المقياس الثـاني : أن تقيس مقـدار تجسّـد عملك في الخارج وبالذات أثره في عدوّك ، فان الله سـبحانه حسب هـذا المقيـاس أو ذاك سـوف يجزيك دون أن يضـيع عنك أجرا.

(**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ**) :

[121] كـــذلك الله يحسب حســـاب نفقاتك وحـــتى خطواتك.

(**وَلا يُنْفِقُـــونَ نَفَقَـــةً صَـــغِيرَةً وَلا كَبِـــيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللـهُ أَحْسَـنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

فالجزاء دقيق وأفضل من العمل ، ولذلك لا تنظر الى عملك نظـــرة مطلقة وعامة ، بل انظر الى كل جـــزء من عملك ، واعلم بـأن لكل جـزء جـزاء. مثلا : اعلم بـأن كل تسبيحة تعني شـجرة في الجنة فاشـتل أكـبر عـدد ممكن من الأشجار في الجنـان بـأكبر قـدر ممكن من التسـبيح ، واعلم بـأنّ كل خطـوة تجـازى بغرفة فـابن لك غرفا أكـثر بخطوات أكثر تخطوها للعمل الاسلامي.

الامة الاسلامية وواجب الطليعة :

[122] المجتمع الاسلامي مجتمع رسالي متحفز أبـــدا الى الامـــام ، وهو لـــذلك بحاجة الى طليعة رائـــدة همّها الوحيد التفقه في الـدين والتعمق في رسـالته السـماوية فهما وتطبيقا. وتكـون هـذه الطليعة شـاهدة في الأحـداث وقريبة من القيـــادة ، بينما يبقى الآخـــرون في أرضـــهم يقومون بأعمالهم العادية.

(**وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً**)

فيجتمعوا جميعا حول الرسول في المدينة أو يخرجـوا معه الى الغزوات.

(**فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ**)

اي نفر من كل فريق ومجموعة متماســـــــكة بعض ليقوموا بالواجب نيابة عن الآخرين ، فمثلا من كل عشيرة ، ومن كل منطقة بعض أهل العشـــــيرة ، وأهل المنطقة ليكون أقرب الى واقعهم وأعرف بمشاكلهم.

(**لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ**)

أي ليعرفـوا الـدين أعمق وأفضل ، أما وظيفة هـؤلاء بعد التفقّه في الدين فليس الجلـوس واجـترار الحسـرات بل الإنذار.

(**وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**)

صفات الفقهاء :

الفقهاء في الإسلام يتصفون بثلاث صفات :

أولا : انهم ليســـوا من طبقة أو عـــرق معين بل من صميم كل المجتمعات.

ثانيا : انهم يتعلّمـــــون الفقه داخل ســـــاحة العمل الرسالي وليس في زوايا المساجد أو المدارس ، بل أنهم ينفرون مع الرسـول أو مع القيـادة الرسـالية ، ويتعلمـون الدين عبر الصراع القائم بين الجاهلية والإسلام.

ثالثا : انهم سـوف لا يجمـدون بعد التفقه ليـأتي إليهم الناس ، بل ينطلقون الى مواقع قومهم ويقومـون بـواجب الإنذار.

والإنذار يهدف إيجاد روح الحـذر والتقـوى عند النـاس لذلك يجب الّا يقتصر

الإنذار على مجرّد إسقاط الـواجب الشـرعي ، بل يسـتمر الى تحقيق هدفه وهو تربية روح الحذر في الناس.

سورة التوبة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (125) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (127)

موقف المنافقين من القرآن

هدى من الآيات :

وفي نهايات سورة التوبة المخصصة لبيان جوانب من شـرائع الجهـاد الاسـلامي يبلغنا السـياق الحكيم ضـرورة البـدء بقتـال العـدو الأقـرب إلينا بشـدة وغلظـة. مع المحافظة على حـدود الله ، واتقـاء تجاوزها حـتى يكـون الله معنا.

كما يبلغنا عن نفسـية المنـافقين ومـوقفهم السـلبي تجاه الآيات القرآنية زاعمين انها لا تنفع شـيئا ويتسـاءلون بسـخرية وربما بغبـاء أي واحد من المؤمـنين زادته هـذه الآية ايمانا ويجيب القرآن : بأن المؤمنين اسـتفادوا زيـادة في الايمـان ووجـدوا في الآيـات نعمة يبشّـر بعضـهم بها بعضا ، بينما الكفّـار والمنـافقون توغّلـوا في العنـاد حيث أصـرّوا على مـوقفهم السـلبي ، فـازدادوا رجسا بسـبب كفرهم الجديد الذي استمر معهم الى النهاية.

وكما لا ينتفع المنافقون بالآيات القرآنية النازلة وحيا ، كـذلك لا ينتفعـون بالآيـات الكونية كـالكوارث والمصـائب التي عادة تنزل عليهم كل سنة ، أما مرة أو

مرتين ومع ذلك لا يتوبون الى الله ولا يتذكرون.

وهكذا موقفهم من الآيات إذا أنـزلت آية أخذ بعضـهم ينظر الى بعض مشيرا الى عـدم فهمه لمحتـوى الآية ، ثم يلتفتـون الى من حـولهم خشـية أن يـراهم المؤمنـون فيكتشـفون مـوقفهم السـلبي من الآية ، ثم ينصـرفون ويذهبون ، وسبق أن أبعد الله تعـالى قلـوبهم عن الايمـان بسبب جهلهم وعدم فهمهم.

بينات من الآيات :

قرار الحرب لأقرب الأعداء :

[123] حينما تكـون الأمة مسـتقلة في قـرار الحـرب والسـلم ، وغـير متـأثرة بـالأعلام المضـلل الـذي يقـوم به الأعداء فانها تبدأ بقتال أقرب أعدائها خطرا عليها كما أمر الله ، ثم إذا تفـرّغت منه توجه عـداءها ضد العـدو البعيد ، كما أمر الله في هذه الآية وقال :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا قـاتِلُوا الَّذِينَ يَلُـونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**)

ومثل هـذه الأمة لا تلين بسـبب الاحسـاس بـالخطر ، بل تتصلب أكثر فأكثر ضد مصدر الخطر القـريب لأنها أمة مستقلة تعتز بكرامتها وأصـالتها ، ولا تسـاوم على كرامتها أحدا.

والله تعـالى يعد المؤمـنين إذا كـانوا كـذلك ، وإذا احترموا حـدوده فلم يـدفعهم الى القتـال غـرور أو طمع ، وبالتالي إذا اتّقوا يعدهم أن يكون معهم.

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**)

اما الامة المهزومة نفسـيا ، والتابعة لتهديد الآخـرين وإعلامهم فانها تعادي أبدا

العــدو الضــعيف والبعيد الــذي لا تحس منه الأمة بخطر مباشر عليها.

فالمسـلمون حين كـانوا أقويـاء نـاطحوا الـروم الـذي أحسّوا بخطرهم المباشر ، وخاضـوا معركة تبـوك ومؤتة ، ولم يستسلموا للروم ليحاربوا معهم الفرس ، ولم يقولـوا : ان الروم أقرب إلينا دينا لأنهم نصارى والفرس مجــوس ، ولكن اليـــوم حيث يشـــعر المســـلمون أولا أقل بعض الأنظمة الحاكمة عليهم بالضعف فإنهم يستسلمون للعــدو الأقـرب والأخطر ويتحـالفون معه ضد العـدو الأبعد والأقل خطـرا ، فـترى البلاد القريبة من الشـرق تحـارب الغـرب بينما تتحـــالف مع العـــدو المجـــاور لها ، كما فعل نظـــام أفغانستان سابقا خضع لضغوط الروس ، وزعم بأن عدوه الأصـــيل هو أمريكا لا العـــدو القـــابع على بعد أمتـــار من أراضيه ، وانتهى بهذا العـدو الى التحـرك والقيـام بـانقلاب عسـكري ، ثم التـدخل العسـكري المباشـر. ومثلما يفعل اليوم النظام المصري حيث يتحالف مع النظام الاسرائيلي ويوجه أنظـــار شـــعبه الى خطر ليبيا الضــعيف. أو مثلما تفعله بعض الحركـات الاسـلامية تهـادن النظـام الغـربي المتســـلط على رقـــاب شـــعوبهم المستضــعفة وتختلق الصراع مع الشيوعية ، وهكذا تتحالف مع العدو النازل في بيتها لتحارب السرّاق الأجانب الـذين لا يعـرف هل يـأتون. أم هم مجرّد بعبع يخوف به السارق الفعلي ضحاياه؟

وهذا الضعف هو الذي خلق جيوب النفـاق داخل الأمة الاسلامية ، فقد حـاولت الأنظمة الطاغوتية أبـدا أن تختلق أعــداء وهمــيين ، وتغــذي بعض ضــعفاء النفــوس بالحقد عليهم. يتّخذ منهم أدوات طيّعة لتحقيق تسـلطهم السـافر على الناس مثلما فعل نظام شاه إيران السابق مع جيشه الذي ربّاه لمعـاداة الشـيوعية ، ومثلما يفعل اليـوم نظـام أفغانستان بجيشه المرتزق الذي يحاول اقناعه بأن العــدو رقم واحد لأفغانستان هو (أمريكا) لا المعتدي الروسي.

موقفنا وموقفهم :

[124] والمنـــافقون أبـــدا يشـــكّكون بقيمة الآيــات القرآنية ، ولا يعرفون مدى انتفاع المؤمنين بها.

(**وَإِذا ما أُنْـزِلَتْ سُـورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هـذِهِ إِيمانـاً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا فَـزادَتْهُمْ إِيمانـاً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**)

وهكـذا كـان موقف المنـافقين سـلبيّا أمـام السـور القرآنية بســــــــــبب جهلهم بالحاجة الماسة إليها ، بينما المؤمنـــون فقد كـــانوا يشـــعرون بالحاجة لـــذلك كـــانوا يستبشرون كلما نزلت عليهم سورة ويتدبّرون فيها وبذلك يزدادون ايمانا فوق ايمانهم.

متى يكون الهدى سببا في الضلال؟

[125] ولأن المنافقين كانوا يكفرون بالسور الجديدة ، فان ذلك الكفر كان يكـرس العنـاد في ذواتهم ويزيـدهم رجسا الى رجسهم.

(**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزادَتْهُمْ رِجْسـاً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ**)

قلب البشر مزوّد بجهاز رؤية يحدد مساره في شؤون الحيـاة ، فـاذا وجد هـذا الجهـاز عقبة اجتماعية نبّه القلب الى ضرورة التحـدي. وإذا واجه أزمة ذكّر القلب بضـرورة مضاعفة السعي ، وإذا أنذر حذّر وإذا بشّر اندفع وهكـذا .. فـاذا أصـيب القلب بمـرض وتعطّب الجهـاز فـان النتـائج سـوف تكـون عكسـية وخطـيرة. فمثلا حين يواجه عقبة ليس لا ينبّه القلب الى وجودها فقط بل وأيضا يقـول انها طريق معبّد ، وإذا وجد أزمة يحســــــبها رفاها ويحتسب المشكلة رفاها وهكذا.

وهكـذا تكـون كل ظـاهرة خارجية مفيـدة لصـاحب القلب السليم. بينما تكون

مضرّة بالنسبة الى القلب المـريض ، وهكـذا الكلمة الحق بالنســبة الى القلب الســليم هــدى وموعظــة. بينما هي بالذات تتحول بالنسبة الى القلب المريض ضلالة ورجسـا. كيف؟

لنضرب مثلا : انك تنصح أخاك وتقول له : اقرأ كتـاب نهج البلاغة ، وهو بـــدوره يـــرى فيك الأخ الناصح ويتقبّل نصـيحتك ولكن إذا قلت ذات الكلمة لعـدوك فلأنه مصـاب بعقــــدة تجاهك يفسر كل كلمة منك على أنها أســــلوب تستخدمه لتحطيمه. فانه سـوف يـترك قـراءة نهج البلاغة لو كـان يقــرؤه ســابقا ، وكــذلك لو ألقيت هــذه الكلمة الناصحة على شـخص متكـبر مغـرور بنفسه فلا يكـون رد فعله ســوى الاســتياء منك ومن الكتــاب الــذي تــأمره بمطالعته ، وهكـذا كـانت بعض القبائل من قـريش الـذين كــانوا يعتــبرون بــني هاشم منافسا تاريخيا لهم ، كــانت مـواقفهم من الرسـالة نابعة من هـذه العقـدة. فعارضـوا الرســــالة ، وازدادوا معارضة لأفكارها وتوجيهاتها الحقة لمجرد أنها تجلّت في بيت بني هاشم.

التفسير الخاطئ للاحداث وسببه :

[126] وكما موقف القلب المـريض من الكلمة الحق ، موقف عكسي مضر كــذلك موقف الإنســان ذي الرؤية الفاســدة من الظــاهرة الخارجية ، فبــدل أن يفسّــرها تفسيرا مناسبا تـراه يفسّـرها معكوسة ويعمل حسب ذلك التفسير. فاذا وجد تخلّفا في حياته الاجتماعية فسّره على أنه نتيجة تمسّـكه بالتقاليد الأصـيلة فتركها وازداد تخلّفـا. بينما كان عليه أن يفسّـرها على أنها نتيجة تبعيّته للآخـرين وتكاسله عن العمل.

وهكــذا الفتنة الــتي هي ظــاهرة صــعبة في الحيــاة الاجتماعية مثلا : الفقر والمـرض والحـرب والمجاعة ، كل ذلك أشارات خطر تدل على سلوك فاسد لذلك الإنسان ، ولكنها بالنســبة الى المنــافقين ذوي القلــوب المريضة والرؤوس الفاسدة ، ليست نافعة

أبدا. لأنهم يفسّرونها تفسيرا شاذا.

(**أَوَلا يَـرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُـونَ فِي كُـلِّ عـامٍ مَـرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ**)

فلا هم يعودون من الأعمال السيئة الـتي تسـبّبت في تلك المشاكل ولا هم يتعمقون في فهم الحياة بسـبب تلك المشاكل.

ويبدو من هذه الآية ان المجتمعات تصاب عـادة بفتن ومشاكل عامة. بين فترة وأخرى وان عليها أن تعتـبر منها وتدرسها دراسة معمّقة.

[127] وكـان موقف المنـافقين من سـور القـرآن الحكيم الجديـــــــــدة ليس الملاحظة النظيفة والدراسة السـليمة من العقد ، بل تجاهلها والعـودة الى عصـبياتهم وأفكارهم الجاهلية وتقييم السور الجديدة على أساسها.

(**وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ**)

ربما كـان ينظر بعضـهم الى بعض لـيرى كل واحد موقف رفاقه من السـورة دون أن يكـون لديه ثقة بعقله هو والاستفادة منه في دراسة السورة.

(**ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللـهُ قُلُـوبَهُمْ بِـأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**)

لا يفقهون أن فوائد السورة لهم إذا نظروا إليها بتجرّد ودون اتخاذها وسـيلة لنفـاقهم ، والانصـراف عنها الى قيمهم الفاسدة.

سورة التوبة

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129))

صفات الرسول (ص)

هدى من الآيات :

في الآيتين الأخيرتين لسورة التوبة يذكرّنا السياق بأن الرسول قادم من صميم قومه الذين أرسل إليهم فهو من أنفسهم ، وأنه يتأثر ويحزن إذا وجد مكروها يصيب قومه ، وأنه يحرص على سلامتهم ، وأنه رؤف رحيم بالمؤمنين.

ولكن لا يعـــني ذلك أن الرســـول (ص) يعتمد على قومه ويتـأثر بسـلبياتهم. كلا .. بل يصـمد أمامها اعتمـادا على الله تعالى فـان تولـوا فـان حسـبه الله يتوكل عليه ، (**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**).

بينات من الآيات :

سيرة الرسول (ص):

[128] المواقف الخاطئة للمنافقين من الرسالة ربما كانت بسبب سـوء فهمهم لواقع الرسـول (ص) وأنه جـاء منقذا لهم من الآلام التي يعانون منها.

(**لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ ما عَنِتُّمْ**)

فهو يتحسس بالعنــاء الــذي يعيشــونه ويحــزن لهم ويسعى من أجل تخفيف الألم عنهم.

(**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**)

يحرص على راحتهم ، ويسعى من أجل حصولهم على الراحة.

(**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ**)

يوفر لهم أسباب الخير والرفاه ، ويغض عن نواقصهم ، والأذى الذي يصيبه منهم.

لو لم يؤمنوا برسالته؟

[129] ولكن رحمة الرســــول (ص) ليست بعاطفة قومية أو اقليمية بل لأنه رسول الله ، والله يأمره بــذلك ، لذلك لا يوقفه تولّيهم عن متابعة مسيرته.

(**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلـهَ إِلَّا هُـوَ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**)

ولأنه رب العــرش فهو الــذي يــدبّر. شــؤون العبــاد وعرشه عظيم ، فهو أكبر من سلطان ذوي السلطان.

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث في فضل السورة :

عن النبي محمد (ص) :

«**قـال من قرأها أعطي عشر حسـنات بعـدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعــون**» (مجمع البيان ـ ص ـ 87 ج 5)

و عن الامام الحسين (ع) قال :

«**من قرأها في كل شـــــهرين أو ثلاثة لم يخف عليه أن يكون من الجـاهلين وكـان يـوم القيامة من المقربين**» (مجمع البيان ـ ص 87 ـ ج 6 ـ 5)

الإطار العام

لكي يتحـــدى الإنســـان ضـــغوط الطبيعة ، وإرهـــاب الطغـاة ، كما فعل شـيخ المرسـلين نـوح عليه السـلام ، وكما امر موسى قومه بـان يفعلـوا. فلا بد ان يـؤمن بالله وبسلطانه على خلقه وتدبيره له ، ويؤمن بـان جـزاءه حق ، وانه يعاقب الكافرين بيـوم الجـزاء كما يـثيب الصـالحين بأفضل الجزاء.

ومتى يعي البشر حقيقته وانه عبد الله ، وانه لا اله الا الله؟

يعي ذلك عند الضـــراء ، حين تتســـاقط حجب الغفلة والشرك وتتجلى قدرة الله سبحانه.

وتتأكد الذكرى بهذه الحقيقية في سـورة يـونس ثلاث مرات ، وتتناسب مع قصة قوم يونس حيث سمّى القـرآن الســـورة باســـمه ، لأنه قد رفع الله عنه العـــذاب بعد ان أحاط بهم.

نقرأ في آي السورة ، عن جدل الكفار حول القرآن ، وكيف يفنده الذكر ، ولعلّ ذلك ، كجزء من التحـدي الـذي أمر به القرآن في هذه السورة (15).

ولكي يتم عند النفس حالة التحـــــــدي في مواجهة الطغــاة والقــوى الطبيعية ، لا بد ان يســتهين المــؤمن بالشــركاء ، الــذين لا يضــرون ولا ينفعــون (18) وتــأخير العـــذاب عنهم ليس الا لكلمة ســبقت من الــرّب (19) والغيب عند الله (20) والله أسرع مكرا ورسله يكتبون ما يمكر المجرمون (21).

وبعد ان يذكر القرآن الناس مرة اخـرى بحـالتهم عند إماطة الخطر ، وكيف انهم ينســـون المشـــركين (22) يضرب مثل الحياة الدنيا ، والمثل مقتبس من دورة حياتية ، يميز بها النيات (24) والسلام عند الله ، وهو الذي يهدي الى الصـراط المسـتقيم (25) وسـلام الله انما هو للـذين أحسنوا ، اما المجرمون فلهم النار (26).

وهكـذا يأمرنا بـالكفر بالشـركاء ، لأنهم يتـبرءون من اتباعهم ، وعند الله الجزاء (28) ويستمر السياق القـرآني في بيان حقيقة الشركاء وانهم تـافهون وان اتبـاعهم ليس الا اتباعا للظن (36) ويعود الى بيـان : ان القـرآن لا ريب فيه وان جهلهم به هو الذي دعـاهم الى التكـذيب به (40) ويأمرنا بتحـدي المشـركين والـبراءة منهم ويـبين ضـلالة الــذين يكفــرون بــالقرآن ، وانهم هم عمي وان عمــاهم وصممهم منهم لان الله لا يظلمهم (44).

ثم يعود ويبين ان الله هو الـذي يملك الضر والنفع فلا بد ان نتوكل عليه ، ونـــــترك الشـــــركاء (52) ويؤكد أن القرآن وما فيه حق ، وان الجزاء واقع ، وان وعد الله حق ، وان الله يحي ويميت وان القرآن موعظة وشفاء (58).

كل ذلك يثبت فــؤاد المؤمــنين تمهيــدا للــبراءة من الشركاء.

ويــبين القــرآن ان التشــريع انما هو لله وحــده وليس للشركاء ، وينذر الذين يفـترون على الله الكـذب وأن الله شاهد على كل كلام ، وأنه مسجل عنـده صـغيرا وكبـيرا (61).

وأولياء الله لا خوف عليهم (بعكس أوليـاء الشـركاء) وان لهم البشــرى ، وان لله العــزة (وليس للمشــركين) وأن له ما في الســماوات والأرض (وليس للطغــاة) وانه هو الــذي جعل الليل ليســكن والنهــار مبصــرا (وليس الشركاء) (62).

اما قـــولهم بـــان الله قد ولد (وهو أحد ســـخافات المشركين) فانه ضلال لان الله غــني فلما ذا الولد ، وانه ليس الا افتراء لا يفلح صـاحبه وان هـدف الافـتراء ، متـاع الــدنيا ، وهو قليل ونهاية المشــركين العــذاب الشــديد بكفرهم (70).

كل تلك الآيات تمهد لاعلان الـبراءة من المشـركين ، كما فعل نوح شيخ المرسلين (عليه السـلام) فـأغرق الله قومه وخسر المشركون (73).

ولعل هذه الآيات (70) هي غرر هذه السورة الكريمة ، حيث تفصل القــول عن تحــدي الرسل لطغـاة عصـرهم وكفــار النــاس من قــومهم وكيف انهم أمــروا اتبــاعهم بالتوكل على الله ، وبالتالي كيف نصرهم الله سبحانه.

ثم بعد بيان قصص الأنبيـاء عليهم السـلام ، يـأمر الله بطرد الشك ، في القـرآن ، والابتعـاد عن التكـذيب بآيـات الله ، وان الكفار لا يؤمنون حتى يروا العـذاب الأليم (97) ولكن هل ينفع الايمـان ذلك اليـوم ، لا ، انما قرية واحــدة نفعها ايمانها حين آمنت بالله ، وهي قرية يونس (98).

ولكن هل الايمان من العبد أو من الرب؟

لا ريب ان الله لا يكـره النـاس على الايمـان وهكـذا على كل نفس تحدي أمواج

الكفر للوصول الى شـاطئ الايمـان ، حيث يـأذن من الله له بالايمان (100).

ويعـود القـرآن ليسـفه حالة الانتظـار في النفس بل على الإنسـان أن يبـادر للايمـان ، حـتى يكـون من الـذين ينجيهم الله عند العذاب (103).

ويعلن القـرآن على لسـان النـبي (ص) الـبراءة من الشـــركاء ، وانه يخلص العبودية لله (وبـــذلك يتحـــدى المشركين) (104).

ويـأمره بإقامة وجهه لله حنيفا ورفض الشـركاء ، لأنه سيصـبح ظالما لنفسه (106) والاعتقـاد بـأن الـذي يرفع الضر هو الله وأنه إذا تفضل على عبـــده بخـــير فلا راد لفضله إلا هو.

وهكذا على المؤمن أن يتحدى الشـركاء والمشـركين والتمسك بهـــدى الله لأنه آنئذ ينفعه كما أن ضـــلالته عن القرآن تضره هو وليس غيره. وأن على المـؤمن اتبـاع ما يـوحى الى الرسـول والصـبر حـتى يحكم الله وهو خـير الحاكمين (109).

وبهـذا نسـتطيع أن نسـتفيد من سـورة يـونس روح التوكل على الله ، وتحـدي الطبيعة ، والطغـاة ، ومقاومة ضعف النفس أمام المشاكل والاخطار.

سورة يونس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الر تِلْكَ آيـاتُ الْكِتـابِ الْحَكِيمِ (1) أَ كـانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُــوا أَنَّ لَهُمْ قَــدَمَ صِــدْقٍ عِنْــدَ رَبِّهِمْ قــالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (2)

لماذا كذّبوا برسل الله؟

هدى من الآيات :

تلك آيــات القــرآن الحكيم ، الــتي ركّبت من ألفــاظ وأصوات معروفة كالألف ، واللام ، والراء ، ولكنها اتّسمت بالحكمة البالغة ، فهي تكشف الحق وتهـــــدي البشر اليه والنـاس لا يصـدقون بهـذه الحقيقة ، أن يكـون رجل منهم يــــوحى اليه القــــرآن ، بينما لا عجب في ذلك خاصة وان هدف نزول الوحي إنذار الناس جميعا ، وتبشير المؤمــنين بأن لهم قدم صدق عند الله ، فمقامهم عند ربهم ثــابت لا يتزلزل ، وبالتالي فالله ينصرهم ويجزيهم الحسنى.

ولكن الكـافرين قـالوا : ان هـذا لسـاحر مـبين ، فهو ساحر لأنه جاء بشيء غريب لا يقـدر عليه الآخـرون ، وهو واضح الحجة ، قوي البيّنة.

وقد لخّصت هاتان الآيتان كثـيرا من توجّهـات السـياق القرآني في هذه السورة ، والتي سوف يفصــلها فيما يلي تفصيلا.

بينات من الآيات :

معنى الحروف القرآنية المقطعة :

[1] «**الر**» تلك هي المقاطع الحرفية التي نجدها في كثير من سور القرآن ، والرأي الـذي ذكرنـاه عـدة مـرات حولها هو : انها إشـارة الى ذات الحـروف ، وهي بالتـالي تشـبه كلمة «هـذا» والجملة التالية هي خـبر لها ، وهنـاك تفسيرات أخرى لهذه المقاطع والله أعلم. [1]

وهذه الأحرف هي آيات وعلامات تشـير الى مجموعة متكاملة وثابتة من العلـوم الـتي تنفع الإنسـان في حياته ، فهي آيات الكتاب الثابت والمشتمل على الحكمة.

(**الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ**)

إن كتـاب الله ثـابت يكشف الحق ، فهو مـتين لا تجد فيه عوجا ولا أمتا ، كما لا تجد فيه تناقضا ولا اختلافا فهو محكم الأطراف.

[2] ومشكلة البشر مع القرآن مشكلة نفسـية ، حيث أنهم لم يرتفعـــوا الى مســـتوى الكتـــاب ، بل تـــراهم يســتغربون منه ويقولــون : كيف يصــبح رجل منّا حــاملا لرسالة الله العظيم التي تحمل الإنذار والبشارة؟!

(**أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ**)

ولكن بما أن الهـدف من القـرآن هو إنـذار النـاس ، فلـــذلك كـــان من الحكمة أن يكــون واحد منهم حـــاملا للرسالة فلما ذا التعجّب والاستغراب؟!

---

(1) سبق الحديث في سورة البقرة عن مثل هـذه الحـروف المقطعة / وكذلك في أوائل كثير من سور القرآن.

(**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ**)
القــدم الصــادقة الــتي وضــعت في مقامها الصــحيح وبــوعي ، ذلك لأن المــؤمن يعــرف أين يــذهب ، وهو حين يســعى لتحقيق هدفه هــذا وهو الوصــول الى مرضــاة الله يبلغه ، فقدمه عند الله قـــدم صـــادقة ، هـــذا هو محتـــوى الكتاب الحكيم ، ولكن

(**قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ**)
تفسير الكــافرين بالرســالة لها أنها ســحر ، دليل على أنهم لم يستوعبوا واقعها بســبب مشــكلة فيهم لا مشــكلة مستوى الرسالة ، والاهتــداء الى ما فيها من خــير ومنــافع ولو أن الإنســان اجتــاز حــاجزه النفسي لوجد أن الرســالة حق لا ريب فيه ، ولكن ذلك الحــاجز النفسي يجعله يفتش عن تفسيرات بعيدة لظاهرة الرســالة ، حــتى أنه يفسّــرها بأنها سحر مبين ، وبتعبير آخر لا يفسّرها بشيء إذ الســحر هو كل ظاهرة غريبة لا تفسير لها.

سورة يونس

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (4) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

آيات لقوم يتّقون

هدى من الآيات :

في الــدرس الاول من هــذه الســورة ، وبعد اشــارة خاطفة الى السياق العام لها ، يبيّن القـرآن الكـريم صـفة الربوبية اللازمة على الخلق ، والـــــــتي تتجلّى في خلق السموات والأرض عبر أيام متتالية ، مما يحتاج الى العناية الدائمة ، ثم استواء ربّنا على عرش التدبير وقيامه بتــدبير شــؤون الكــون ، دون أن يكــون له منــافس قــادر على التـدخل في شـؤون مملكته الواسـعة الّا حسب اذنه وبعد السماح له بذلك.

فهذا هو الرب الذي يأمرنا القرآن بعبادته ، وتلك أيضا وصـــية عقولنا لو نتــذكر قليلا. (**لِيَجْــزِيَ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحاتِ بِالْقِسْـطِ**) والتقـدير الـدقيق ، بينما الذين كفروا يجازيهم بشراب حار ، وعـذاب مـؤلم بسـبب كفرهم.

وتتجلى مـرة أخـرى في تقـديره الهـادف ، وأنه كيف جعل من الشمس ضياء للنـاس يتـوهج ، بينما جعل القمر نـورا هادئا ، وقـدره حسب منازله المختلفة بهـدف معرفة الحساب ، وليعلم الإنسان عدد الأيام وينظم حياته وفقهـا. كل شيء خلق

بهـدف وضـمن خطة حكيمة ، ولم يخلق شـيء عبثا ، وأن القرآن يفصل الحديث ، ويوضحه تفصيليا لقوم يعلمون.
وتتجلى مرة أخـرى في اختلاف الليل والنهـار ، وكيف نجد كل شـيء في الليل والنهـار وضع موضـعه ، ولتحقيق هدف خاص به.

بينات من الآيات :

الربوبية صفة ذاتية :

[3] الله هو الــرب العظيم ، والربوبية ليست صـــفة اعتبارية طارئة على ربنا ســـبحانه ، بل هي صـــفة ذاتية تتجلى في الحاجة الدائمة للكـــــــــــون اليه ، إنه خلق الســـماوات والأرض في ســـتة أيــام ، وهكــذا أركز فيها الحاجة الماسة الى تقـــديره وقيمومته ، ذلك لأنه أعطاها في كل يــوم شــيئا جديــدا في الخلق ، وبعدئذ لم يتركها لشأنها ، بل استوى على عرش القـدرة مهيمنا على أمـور الحيـاة ، مـدبرا لها بلا منـازع ولا شـريك ، الاّ من يـأذن له وبقدر القدرة المخولة له.
(**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ**)
فأمور الخلق بيده المقتدرة يدبرها بها ، ويخطّط لكل مرحلة من مراحلها ، ويجــري خطته ســبحانه ، أما الخلق فهم مخولون للقيام ببعض التدبير في حـدود سـماحة لهم بذلك ، ولأمد معدود.
فالبشر مثلا قد زوّده الله بالإرادة ، وسخّر له الأشـياء ، وخوله بعضا من سلطاته سبحانه ، وسمح له بالاسـتفادة منها ، دون أن يفقد هو شيئا من سلطاته الذاتية.
(**ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ**)

فليس له شـفيع أو منـافس أو منـازع لقدرته ، بل قد يكون غيره قادر ضمن قدرته وفي مجـرى قدرته تعـالى ، وبعد اذنه سبحانه.

(**ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ**)

ذلك لأن قليلا من التـــذكر والعـــودة الى المقـــاييس العقلية يكفينا معرفة بأن الرب الحقيقي هو الله ، وليست السـلطات الجـائرة الـتي تفـرض نفسـها على الشـعوب بالقوة.

[4] ومن مظـــاهر ربوبيته وآياته الواضـــحة : أن الله سبحانه هو مرجعنا الأخير ، وغدا سوف نجد أنفسـنا أمامه ليحاسبنا حسابا دقيقا.

(**إِلَيْـهِ مَـرْجِعُكُمْ جَمِيعـاً وَعْـدَ اللـهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْـدَؤُا الْخَلْـــقَ ثُمَّ يُعِيـــدُهُ لِيَجْـــزِيَ الَّذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ**)

أي بالدقة دون أن ينقصهم من عملهم شيئا.

(**وَالَّذِينَ كَفَـرُوا لَهُمْ شَـرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَـذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ**)

من أهداف الخلق :

[5] ومن آيـات تـدبير الله للكـون ، وهيمنته المطلقة عليه ، ذلك التقـدير الحكيم ، الـذي نجـده في كل أرجـاء العالم الرحيب ، ألا تجد الشمس كيف جعلها الله سـبحانه ضياء؟ وضياؤها بقدر محدد صيفا وشتاء ، ضـحى وظهـرا ، لو زادت اشعاعاتها لاحترقت الأرض ، ولو نقصت لتجمدت بـردا ومـاتت الحيـاة فيهـا؟ والقمر بـدوره يسـيل منه ذلك النور الهادىء ، وهو يتحول عبر منازل ، ابتداء من المحاق ، فالهلال ثم البدر ، ثم يتناقص حـتى يعـرف كل واحد من النـــاس ان الـــزمن يمر عنه ، وأن عليه أن ينظّم أوقاته ويعمل بجد ليوم حاجته ، إنك تجد كل يوم يشبه اليوم

الماضي تقريبا ، لأن الشمس هي الشـمس كل يـوم ، أما القمر فيتحول عـبر منـازل ليهـديك الى التحـولات اليومية التي تحصل في ذاتك ربما دون أن تشعر بها.

(**هُـوَ الَّذِي جَعَـلَ الشَّـمْسَ ضِـياءً وَالْقَمَـرَ نُـوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِ**)

ولأجل تحقيق هدف محدد.

(**يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)

[6] واختلاف الليل والنهـار دليل آخر على ربوبية الله سبحانه ، ذلك لأن الاختلاف دليل الهدفية والتدبير.

(**إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللـهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

من مختلف أنـواع الخلق مما لا تحصى كـثرة وتنوعا ، وكل واحد منها يحقق هدفا خاصا.

(**لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**)

ولأنهم يتّقـــون الله ويخشـــونه ، فـــان حجب الغفلة والجهالة لا تـؤثر على قلـوبهم ، فتكتشف هدفية الحيـاة ، وان كل شيء قدّر لهدف محدد سلفا.

العلاقة بين هدفية الحياة والتقوى :

ان هدفية الحياة الـتي تتجلى في النظـام المـتين في كل أبعاد الكون ، إنها تدعونا الى التقوى لماذا؟ وكيف؟

و الى هذه الحقيقة يشير الامام الصادق (عليه السلام) حين يوضح للمفضّل

بن عمر كيف أن التــدبير في الكــون يــدلّنا على ربنا العزيز فيقول :

(يا مفضل أول العــبر والأدلة على البــاري جل قــدره تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ، ونظمها على ما هي عليه ، فانك إذا تــأمّلت العــالم بفكــرك وميّزته بعقلك وجدته كــالبيت المبــني المعد فيه جميع ما يحتــاج اليه عبــاده ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبســاط ، والنجوم منضودة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالــذخائر ، وكل شــيء فيها شــأنه معد ، والإنســان كالمملّك ذلك الــبيت والمخــوّل جميع ما فيه ، وضــروب النبــات مهيّــأة لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه ، ففي هــذا دلالة واضــحة على أن العــالم مخلــوق بتقــدير وحكمة ، ونظــام وملاءمة ، وأن الخــالق لهو واحد ، وهو الــذي ألّفه ونظّمه بعضا الى بعض جــلّ قدسه ، وتعــالى جده وكرم وجهه ولا اله غيره تعالى عما يقـول الجاحـدون وجلّ وعظم عمّا ينتحله الملحدون.[1]

ذلك لأنك حين ترى كل شيء في الدنيا يحقق هــدفا ، ويسعى في سبيل بلوغ غاية محددة ، فتتــذكّر حقيقة هامة في ذاتك ، هي أنك بــدورك خلقت لهــدف ومن أجل بلــوغ غاية ، وهــذه التــذكرة تصــبح حجر الزاوية في بنــاء كيانك الفكــري ، إذا تتســاءل ما هو الهــدف؟ وكيف أحقّقــه؟ وما هي الغاية وكيف الوصــول إليهــا؟ وعــبر سلســلة من التساؤلات التي تــؤدي بك الى التــدبّر العميق في نفسك ، وفي آفاق الكــون حولك ، تصل الى الهــدف الأساسي من خلقك ، ذلك هو العــروج الى مقامك الأســمى عند الله ، وتبحث عن الوســيلة الــتي تســاعدك على الوصــول الى مقامك المنشــــود عند الله ، الى مرضــــاة ربك العزيز المقتدر ، فلا تجــدها الّا في التقــوى ، لــذلك جــاء فيما بعد الآية «**إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهـارِ ... لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَّقُونَ**» وجاء في آية أخرى : «**وَيَتَفَكَّرُونَ**»

(1) بح ج 3 ص 60

فِي خَلْـــقِ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هــذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ» (آل عمران)

حين نجد كيف يتـــدرج المتفكّر في خلق الســـموات والأرض من معرفة هدفيّة الخلق ، وأنه لم يخلق بـــاطلا ، حتى يصل الى التقوى من الله والحذر من عذابه.

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُــونَ لِقاءَنا وَرَضُــوا بِالْحَيــاةِ الــدُّنْيا وَاطْمَــــأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غـــــافِلُونَ (7) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِــبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ يَهْـدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمــانِهِمْ تَجْــــرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهـــــارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْــواهُمْ فِيها سُــبْحانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَــلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (10)

الكفر والايمان الأسباب والنتائج

هدى من الآيات :

مع هـذه الآيـات الواضـحة المبثوثة في آفـاق الأرض ، والتي نبّهت إليها آيات الدرس السابق ، لمــاذا يكفر فريق من الناس؟

باختصار : لأنهم لا يحبـون لقـاء الله ، ورضـوا بالحيـاة الدنيا ، واطمأنت نفوســهم بما فيها من زخرفة ومتع زائلة ، وزعمـوا بأنها باقية لهم أبـدا ، ولأنهم بالتـالي غفلـوا عن آيات الله الـتي تـدلّهم على ان للـدنيا نهاية ، وأنهم خلقـوا للبقاء في عالم آخر.

وما هي عاقبة هذا الفريق الكافر؟.

أولئك مـأواهم النـار ، ذلك لأن هـذه النظـرة الضـيقة الى حيـــاتهم ، تجعلهم يقـــترفون ذنوبا ويحـــترفون آثاما تستوجب لهم النار.

بينما الذين آمنوا بالله ، وبأن وراء حيـاتهم هـذه حيـاة أخرى يهديهم الله ، لذلك عملـوا صـالحا لحصـول مرضـاة الله ونعيم الآخرة ، لذلك تراهم مهتدين لأن الله يجعل

من ايمـانهم ضـياء يهـديهم به الى حقـائق الأشـياء ، وعند الله يجزون بجنات النعيم التي تجري من تحتها الأنهار.

إنهم يــزدادون ايمانا بالله لــذلك فــدعاؤهم عند الله «**سُــــبْحانَكَ اللهُمَّ**» وتحيتهم فيما بينهم «الســــلام» ، فعلاقتهم بالله وهكـذا بـإخوانهم تـزداد متانة ، ونفوسـهم راضــية مرضــية ولــذلك يقولــون «**الْحَمْــدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**».

بينات من الآيات :

هل ترجو لقاء الله؟

[7] اللقاء مع الله خالق السموات والأرض ، الـرحمن الرحيم ، هدف سام يرجى بلوغه لما فيه من مصالح هامة ، ولكن بعض النــاس لا يرجــون لقــاء الله ، فهم غــير مرتبطين بهدف أسمى في حياتهم ، لذلك تجدهم يهتمـون بعاجل الــدنيا ، يحســبون ما فيها من لذائذ ومتع هي كل شيء.

(**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا**)

بينما هم غافلون عما حـولهم من آيـات بيّنـات ، تـدل على أن الإنسان أرفع درجة من سائر الأحيـاء ، وأنه قـادر على بلوغ مراتب عالية ، لذلك لا يعيشـون قلق المؤمـنين النفسي الــذي يبعثهم الى النشــاط من أجل بلــوغ تلك المراتب ، بل تجدهم يطمئنون بالحياة الدنيا ، يرضـون بما فيها من متع ولذات ، كالبهيمة السائبة همّها علفها!!

(**وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ**)

وقليل من التفكر في آيــات الله ، يبعث الفــرد الى الايمان بأن الدنيا هذه الحلقة الفارغة التي لا تعني شـيئا ، انها أتفه من أن تكون هدف البشر ، عمل وأكل ونوم ،

ثم تكرار ذات الاسطوانة ، أعمل لتأكل ، وكل لتنـام ، ونم لتعمل غدا .. وهكذا!!

[8] لأن هـؤلاء النـاس اطمـأنوا بالـدنيا ، فـأن الـدنيا سلّمتهم الى النار ، لأن الذي يحسب الـدنيا نهاية مطافه ، يجـترح السـيئات ويكتسب شـرا ، وذلك الشر يتحـول في القيامة الى عذاب اليم.

(**أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**)

فاكتسابهم الشر هو الذي سبّب لهم النار ، ولكن هـذا الكسب كان بسبب سوء عقائدهم ..

النموذج المعاكس :

[9] وفي مقابل هــذا الفريق نجد الــذين آمنــوا بالله وباليوم الآخر ، فأصبح ايمانهم هذا سببا لتطلعهم الأسـمى نحو مرضاة الله ، فكانت حياتهم ذات مغزى وهدف ، فلم يـأكلوا ليعملـوا ، ثم ليـأكلوا ثم ليعملـوا وهكـذا بل أكلـوا للعمل وعملوا لله ، وليس للأكل المجـرد ، وهكـذا عملـوا الصالحات ، فلم يعملوا لكي يصلوا الى الشـهوات العاجلة ، بل فقط العمل الصـالح ذا النهج السـليم الـذي لم يضر بهم.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**)

إن انـتزاع واقع الهدفية من الحيـاة ، كما فعل الكفـار يخرب المعادلة في فهم اهـداف الكـون ، ويحـدث الحلقة المفقودة التي تجعل فهمنا لسائر القضـايا فهما محـدودا ، بل ناقصا ، بل متناقضا ، ما هـذه الـدنيا ولمـاذا خلق فيها الشقاء والعذاب؟ ولماذا أعطي الجبـابرة والطغـاة فرصة الاعتــداء على النــاس وهل المــوت تلك النهاية البــاردة لحرارة الحياة؟

وهذا ما يجعلنا نرى ظواهر الكون بعين واحـدة ، ومن بعد واحد ، وحين يؤمن

الإنسان بالغيب وبالآخرة يجد تلك الحلقة المفقودة ، ويكتشف السر الخفي ، وبالتالي تكتمل عنده أجزاء المعادلة ، فيفهم كل شيء لذلك قال ربنا :

(**يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ**)

هذا في الدنيا .. أما في الآخرة فهم في جنات.

(**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**)

متعة المؤمنين :

[10] كل ما في الجنة بعد الموت يمكن أن نوجد منها صورة مصغّرة في الدنيا قبل الموت ، بل هو انعكاس لما في الدنيا ، والمؤمنون في الآخرة يتمتعون بما يلي :

ألف : انهم ينزهون الله عما يتصل بخلق الله ، وكلما وجدوا جمالا وقوة ونظاما نسبوه الى مصدره ، وهو جمال الله وقوته وحكمته ، وكلما وجدوا ضعفا عرفوا بأن رب الخلق منزه عنه ، ولذلك فيمكن أن يرفع بعض النقص عن خلقه مستقبلا ، لذلك فهم يتحركون في سلم التكامل ، لذلك تجد الكلمة المفضّلة ، عندهم هي «سبحان الله» وتلك دعواهم.

(**دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللهُمَ**)

باء : ان علاقتهم ببعضهم علاقة سلمية.

(**وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ**)

جيم : وعلاقتهم بالأشياء حسنة ، فهم أبدا راضون عمّا أنعم الله عليهم.

(**وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

وَلَــوْ يُعَجِّلُ اللــهُ لِلنَّاسِ الشَّــرَّ اسْــتِعْجالَهُمْ بِــالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيــانِهِمْ يَعْمَهُــونَ (11) وَإِذا مَسَّ الْإِنْســانَ الضُّــرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَــرَّ كَــأَنْ لَمْ يَــدْعُنا إِلى ضُــرٍّ مَسَّــهُ كَــذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْــرِفِينَ ما كــانُوا يَعْمَلُــونَ (12) وَلَقَــدْ أَهْلَكْنَا الْقُــرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُــوا وَجــاءَتْهُمْ رُسُــلُهُمْ بِالْبَيِّنــاتِ وَما كــانُوا لِيُؤْمِنُــوا كَــذلِكَ نَجْــزِي الْقَــوْمَ الْمُجْــرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنــاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)

الامتحان الإلهي

هدى من الآيات :

لكي يستفيق البشر من غفوتهم ، يذكرهم القرآن الحكيم بما ينتظرهم من العذاب بسبب أعمالهم ، الذي لو عجّله الله لهم لما بقوا أحياء ، إذ أن الأعمال السيئة كثيرة وعظيمة العقاب ، ولكن البشر يطالب أبدا بالجزاء العاجل ، دون أن يعرف أن جزاء الخير خير وجزاء الشر شر ، بيد أن الله يؤخر جزاء الشر ، لأمها لهم في طغيانهم.

فطرة الإنسان تدعوه الى نسيان كل عاداته وأفكاره وثقافته الباطلة ، والعودة الى فطرته النقية ، فاذا مسّ الإنسان الضر ، دعا ربه في أيّة حالة كان ، نائما على جنبيه أو قاعدا أو قائما ، ولكن لما كشف الله عنه الضر مشى في حياته دون أن يتذكر أن هناك ضرا مسّه ، وذلك بسبب زينة الدنيا في نفسه ، خصوصا فيما أسرف فيه ، وتعود عليه.

والله يستجيب للإنسان الذي يدعو لدفع الضر عنه ، الى فترة محدودة ، فاذا انقضت مهلته أخذه كما أخذ القرون الماضية لما ظلموا ، وأتم الله حجته عليهم

بإرسال الرسل ، ولكن لم يستغلوا فرصة الايمـان وكـانوا مجرمين.

ثم جعل الله الآخـرين مكـانهم ، لا لأنه ملّكهم ما في الأرض ، بل لمجرد امتحانهم.

بينات من الآيات :

العجلة من الشيطان :

[11] لقد فطر البشر على البحث عن الخير العاجل ، وإذا قـام بعمل حسن انتظر جـزاءه فـورا ، وقليل من النـاس أولئك الـذين يعملـون الآن ليحقّقـوا مكاسب في المستقبل البعيد.

ولكن الحياة ليست بأماني الأحياء ، لذلك تجد الجـزاء قد يتأخر سنين عديـدة ، ولو أن ربنا سـبحانه خلق الحيـاة بحيث يجازي العاملين فيها فورا ، إذا انتهت فرصة اختبـار الإنسان في هذه الحياة الدنيا.

إن جزاء من يرتكب المعاصي الكبـيرة أن يهلك هلاكا ، فهل ترضى ان يحيط بك جزاء معاصيك فور ما تقوم بها ، ودون إعطائك فرصة للمراجعة والإصلاح؟! كلّا .. وهكـذا عليك أن ترضى بهـذا الوضع عموما ، وهو تـأخر الجـزاء خيرا كان أو شرا ، وليس من الصـحيح أن تطـالب بتـأخير جـزاء الشر ، وتسـتعجل الله في جـزاء الخـير ، فالحيـاة واحدة ، والسنن الحاكمة عليها واحـدة ، في حقلي الخـير والشر معا.

(**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْـتِعْجالَهُمْ بِـالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**)

لقد أعطى الله للنـاس فرصا محـدودة ، ولهم أن يختـاروا خلالها طـريقهم ، وفي نهاية المطـاف سـوف يأخذون جزاءهم الأوفى.

(**فَنَــذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُــونَ لِقاءَنا فِي طُغْيــانِهِمْ يَعْمَهُونَ**)

أي يترك الله الذين لا يؤمنـون به وبـاليوم الآخر حيث يلاقون فيه ربهم ليجـازيهم بـتركهم فاقـدي الرؤية بسـبب ظلام الطغيان الذي يحيط بهم.

الطغيان عمى البصيرة :

[12] الطغيـان يفقد الرؤية ، والإسـراف ينسي النعم ويبطر أصـــحابها ، ان المســـرف يـــزعم أن النعم ملك مــــوروث له ، ولـــــذلك فهو لا ينتبه الى حقيقة عبوديته وضعفه وصغاره الّا بعد أن يفقد النعم ، فتراه يتضـرع الى الله حتى يعيدها عليه ، فاذا انتهت محنته يعـود الى سـابق غـروره ، كل ذلك بسـبب الإسـراف ، وبسـبب الأعمـال السـيئة الـتي كـان يقـوم بها بـدافع الإسـراف ، فتطبع بها وأعتاد عليها.

(**وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً**)

اي دعا ربه في كل الحــــالات ، أو في مختلف حالاته الصعبة.

(**فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ**)

فبدل الوقـوف للشـكر تـراه يمشي من دون اعتنـاء ، وكأنه لم يصب أبدا بمصاب ولم يدع دعاء؟!

(**كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

وعلى الإنســان أن يتحــرر من ســلبيات النعم الــتي ينزلها الله له ، ومن أخطرها حبه لنـوع حياته ، واسـتئنافه بنمط معيشــته ، اللـــذان قد يدفعانه الى الغـــرور والى ارتكاب معاصي كبيرة.

الهلاك مصير المجرمين وسنة الحياة :

[13] الجـزاء يتـأخر وقد تطـول المسـافة بين العمل والجـزاء ، بيد أن ذلك لا يعـني أبـدا أن الجـزاء لا يـأتي ، وعلى البشر أن يفهم هذه الحقيقة جيّـدا : أن الجـزاء حق لا ريب فيه ، وأن يـذكر نفسه بمصـير الهـالكين من قبله ، الـذين أخـذهم الله بشـدة بعد أن تـوافرت عوامل هلاكهم والتي تتلخص في ثلاث فلقد ظلموا ، فبعث الله لهم رسلا بالبيّنات فما آمنوا هنا لك أهلكهم الله.

(**وَلَقَـدْ أَهْلَكْنَا الْقُـرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُـوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنـاتِ وَما كـانُوا لِيُؤْمِنُـوا كَـذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**)

إنها سنّة عامة تختص بالقرون السابقة ، فعلينا جميعا انتظار ذات المصير إذا أجرمنا.

[14] وبالـذات على المجتمعـات أن تـدرك هـذه الحقيقة الهامة ان وجـود نسـبة عالية من الفسـاد الخلقي أو الاقتصادي أو السياسي ، سوف تقضي عليها قضاء تاما ولو بعد حين ، لـذلك ينبغي أن ينشط الجميع من أجل تقليل هـذه النسـبة حـتى لا تنطبق عليهم صـفة القـوم المجـرمين. لـذلك تـرى القـرآن يـذكّرنا بأننا خلائف أولئك الهالكين ، وتنطبق علينا ذات القوانين الفطرية.

(**ثُمَّ جَعَلْنـاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْـدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**)

فنحن خلفـاء أولئك ، والهـدف من إعطـاء الفرصة لنا دونهم أن الله يريد أن يبتلينا ، فهل نعقل تجـاربهم ولا نكرر اخطاءهم أم ماذا؟!

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّنـاتٍ قـالَ الَّذِينَ لا يَرْجُـونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْـهُ قُـلْ ما يَكُـونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِـعُ إِلاَّ ما يُـوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخـافُ إِنْ عَصَـيْتُ رَبِّي عَـذابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُـهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِـهِ فَقَـدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِـهِ أَ فَلا تَعْقِلُـونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَـذِباً أَوْ كَـذَّبَ بِآياتِـهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

الكافر بالآخرة لا يفقه بآيات الله

هدى من الآيات :

حين يعيش البشر في حـــدود لحظته الحاضـــرة ، ولا ينظر بعيدا في مستقبله ، ولا يرجو لقاء الله في الآخـرة ، فسوف يتّخذ من آيات الله موقفا خاطئا ، حيث تـراه حين تتلى عليه آيـات الله الواضـحة يطـالب الرسـول بتغيـير القرآن ، أو تبديل آياته ، وكأن الرّسول هو صاحب القـرآن ، أو كأنّ الحقيقة تتبدّل وتتغيّر حسب أهواءه ، ولا يعلم أن الرســـــــول نفسه يخشى ربّه ، فلو عصى ربه ولم يبلّغ رســالته ، أو لم يطبّقها فيكــون جــزاؤه عــذابا في يــوم القيامة ذلك اليـوم العظيم. ومن هنا لم تكن الرسـالة من صنع الرسول ، بل لو لم يشأ الله ما تلاها على الناس ولم يعلمهم ، والشـاهد على هـذه الحقيقة أن الرسـول كـان يعيش بين أظهــرهم فــترة طويلة ولم يبلّغهم شــيئا من الرسالة ، والرسـول يعـرف أن افـتراء الرسـالة على الله جريمة كبيرة ، وأنه لا يفلح المجرمون ، فهو لا يقـوم على هذا العمل بدافع الغفلة أو التهاون ، إذا فرســالته انما هي من الله سبحانه.

بينات من الآيات :

الأيمان طريق المعرفة :

[15] الايمان بالآخرة يـؤثر بصـورة مباشـرة في فهم الحقــائق ، إذ أن الغــرور والاســتكبار ودواعي الشــهوة والغضب قد يكون كل أولئك سببا في نكـران الحقيقة ، أو عـدم الانتبـاه إليها ، والتهـاون بشـأنها ، فـاذا آمن البشر باليوم الآخر وعرف ما فيه من أهـوال وعـذاب أليم ، عـاد الى رشده وأخذ يفكر في الحيـاة بواقعية لكي ينقذ نفسه من شرور ذلك اليوم.

من هنا تجد الـذين لا يؤمنـون ولا يرجـون لقـاء الله ، يستهينون بآيات الله الواضحة ، ويطالبون الرسول بتغيــير القـرآن جملة واحـدة ، أو لا أقل تبـديل تلك الآيـات الـتي تمس مصــالحهم وتخــالف ثقــافتهم ، فالمســتكبرون مثلا يطــــالبون بقــــرآن يؤيد تســــلطهم اللامشــــروع على المستضعفين ، والمسرفون يطالبون بقرآن يبرّر استغلال المحرومين .. وهكذا.

ولكن هل القرآن كتاب الرسول أم كتاب الله؟ وكيف يغيّر الرسـول كتـاب ربه ، وهو يـؤمن بيـوم القيامة ، ذلك اليــوم العظيم الــذي يجعل الولــدان شــيبا؟ إن ايمــان الرســول بلقــاء الله يمنعه من تبــديل رســالة الله ، أو الخضوع لضغوط البشر الهادفة تغيير بنود القرآن.

(**وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّنــــاتٍ قــــالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ**)

يبدو أن المعنى غيّره كله أو بعضه.

(**قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي**)

فالكتــاب كتــاب حق وعلم وعقل ، ولا يداخله هــوى النفس وشهواتها ومصالحها.

(**إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخـافُ إِنْ عَصَـيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**)

فالرسول يتبع الوحي ويـدعو النـاس الى إتباعه ، وهو يخشى ما ينبغي أن تخشــاه ، وهو عــذاب يــوم القيامة ذا الأهوال.

دلائل إلهية الرسالة :

[16] ولو شاء الله سبحانه لمنع الوحي عن رســوله ، فلم يســـتطع تلاوته على النـــاس واعلامهم بما يحتويه ، والشاهد على ذلك أن الرسول بقي في قومه عمرا طويلا وزمنا ممتــدا ، ولكنه لم يــبيّن لنا شــيئا من ذلك الشــلّال الهـادر من الهـدى والبينـات ، ولو كـان الكتـاب من نفسه وأفكـاره وملاحظاته وتجاربه ، إذا لنشـره في كل مناسـبة خلال هذ الفترة الطويلة.

(**قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ**)

كما أن ربنا قـــادر على توقيف الـــوحي فلا يقـــدر الرسول على تلاوته.

(**وَلا أَدْراكُمْ بِهِ**)

أي لم أكن أكــثركم دراية وعلما بالكتــاب ، بل كنت كأحدكم ، أفكاري تشبه أفكـار المجتمع الـذي أعيش فيه ، والوسط الحضاري الذي ترعرعت فيه ، بينما لم تكن هذه الأفكـار وتلك البينـات والبصـائر شـبيهة أبـدا بما كـان في الجاهلية لا من قريب ولا من بعيد.

ان أعـداء الرسـالة حـاولوا ربط أفكارها الجديـدة بما لدى الفرس والروم ، أو

بالسحر والقوى الغيبية الأخرى ، لأنهم وجدوا تناقضا حـادا بينها وبين الأفكار الشائعة في وسـطهم الثقـافي ، كما أن فريقا من المستشرقين وأدعياء علم التاريخ يحـالون ربط بينات القرآن بما كان عند الأحبار والرهبان من أفكار.

بيد أننا نرى تناقضا واضـحا بين هـدى وبينـات وبصـائر القرآن ، وبين الثقافة المسـيحية الخليطة بالوثنية المانوية ، أو النيو أفلاطونية التي كانت شائعة آنئذ في عالم اليهود والنصارى.

من هنا كان واضـحا أن ما جـاء على لسـان الرسـول كان وحيا خارقا للعادات والقـوانين السـائدة ، طـاهرا نقيا عن مــؤثّرات الوسط الاجتمــاعي أو الثقــافي للرســول ، ولذلك أكّد القرآن على هذه الحقيقة قائلا :

(**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ**)

خلال ذلك العمر الــــذي بلغ الأربعين عاما تبلــــورت شخصية الرسول وأفكاره ، وكانت بمستوى الـوحي الـذي بدأ ينزل عليه متتاليا بنسق واحد وبأسلوب مختلف جدا.

ان المهنــــــدس يتعلم القــــــراءة والكتابة ثم يعطى معلومــات مــوجزة عن الرياضــيات ، ومن ثم يتــدرج في تعلم أوّليات الهندسة ، وكل يوم يـزداد علمه حـتى يتخـرج من الكلية بصفته مهندسا ، لأنه قبلئذ كـان يعلم كثـيرا من المعلومات الهندسية ، ولكن إذا نام هذا الرجل واسـتيقظ مهندسا ، وكـانت معلوماته كلها جديـدة بالنسـبة اليه ، أو ليس في ذلك دليل واضح على ان علمه كان غيبيا؟!

[17] والرسول كان يؤكد على هـذه الحقيقة وهي أن نسـبة فكـرة أو رؤية الى الله جريمة نكـراء ، وأن جزاءها العاجل هو عدم وصول صاحبها الى هدفه الذي رسمه

لنفسه ، وبتعبـير أوضح أنه لا يفلح ، من هنا لم يكن يقـدم على هــذه الجريمة ، ولم يكن ينسب الــوحي الى الله لو لم يكن من عنده فعلا.

(**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَـذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ**)

وعادة ما يكون المفتري على الله كذبا هو ذاته الــذي يكذب بآيات الله ، لأن البشر ينتمي الى مبــدأ معين وذلك المبدء قد يكـون رسـاليا ، وقد يكـون جاهليا ، فـاذا انتمى الى المبـدء الجـاهلي لا بد أن يـبرر انتمـاءه فيفـتري على الله كـذبا ، ليـدعي ان مبـدءه حق وان المبـادئ الأخـرى باطلة.

وكلمة اخـيرة : ان بعض النـاس لا يفـترون على الله الكذب بصـورة مباشـرة ، ولكنهم يعتـبرون نيّـات فكـرهم وتخرصـات أهـوائهم هي الحق الـذي لا ريب فيه ، وهـذا بـدون شك نـوع من الاجـرام بحق أنفســهم وبحق الفكر السليم ، وهو يؤدي حتما الى الفشل وعدم الفلاح.

سورة يونس

وَيَعْبُــدُونَ مِنْ دُونِ اللــهِ ما لا يَضُــرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ قُـلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللـهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّــماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُــبْحانَهُ وَتَعـالى عَمَّا يُشْـرِكُونَ (18) وَما كـانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) وَيَقُولُونَ لَـوْ لا أُنْـزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَـانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

وحدانية الله سبحانه

هدى من الآيات :

عدم الايمان بــالآخرة يجعل البشر يتخبّط في مواقفه ، فتارة لا يؤمن بالرسـالة كما رأينا في الـدرس السـابق ، وتـارة يتخذ من دون الله شـفعاء يـزعم بـأنهم شـركاء لله في سـلطانه ، ولا يفقه هــذه الحقيقة البسـيطة وهي أن مقام الألوهية لا يحتمل التعدد ، فهو أرفع وأقــدس من أن ينازعه شـيء ، وأن الله لا يعلم لنفسه شـريكا في عـرض السموات والأرض ، وأن هذه العبادة المزدوجة لا تجـديهم نفعا ، وأن هــؤلاء الشــركاء أو الشــفعاء لا يقــدرون على الحاق ضرر بهم لو تركوا عبادتهم.

والله ســبحانه لم يخلق بعض النــاس كفــارا والبعض مسلمين بل خلقهم أمة واحدة ، الّا انهم كـانوا مختـارين ، فاختــار طائفة منهم الهــدى ، بينما ضــلّ الآخــرون. ولقد ســــبقت كلمة الله بتأجيل قضــــاء الحق بينهم الى أجل محدود ولولاها لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه.

ويطالب البعض بـان يـنزّل الله آية على رسـوله ، آية معينة حتى يضطروا للايمان

بالرســـالة ، بينما جعل الله الـــدنيا دار اختبـــار وهو يعلم بالحكمة ، والنهاية سوف تكون للرسالة باذنه.

بينات من الآيات :

بمن نتشفع؟

[18] لمـاذا يعبد البشر غـير اللـه؟ ولمـاذا يستسـلم للأصـــنام كرمز للطبيعة أو للطـــاغوت ، كرمز للقـــوة أو للمستكبرين كرمـوز للقيم الزائفـة؟ إنه يخضع لكل أولئك ويطيعها ، لزعمه أنها تضر وتنفع ، فيستســـــــلم لها رهبا ورغبا ، ولكنها في الواقع لا تضر ولا تنفع ، الّا أن يشـــــاء الله ، فهي محكومة بقـــدرة الله ، والقـــوة الـــتي تملكها الطبيعة أو البشر انما هي مخولة إليها من قبل الله سبحانه وليست شريكة لله حتى يتخذها البشر شفعاء عند الله ، إذ أن الله لا يحتم عليه شـــيء ، والشـــفيع يجب أن يكون بحيث يستطيع الضغط على الله تعـالى أو يكـون قد اذن له الرب في الشفاعة.

(**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ**)

بلى .. لو أمر الله بطاعة أحد مثل الرسل وأولى الأمر الـــذين تتمثل فيهم القيـــادة الرســـالية ، إذا لم تكن الطاعة من دون الله بل كانت بإذن الله وبـأمره ، ولـذلك تصـبح طاعة الرسـول وأولي الأمر من بعـده شـفيعة عند الله ، لأنها باذنه الله ولتحقيق مرضاته.

والسـؤال الـذي يطرحه القـرآن على هـؤلاء هو : هل هناك شريك لله أو شفيع عنده لا يعلم به الله؟!

(**قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ**)

لو كـانت هنـاك قـوة غـير الله حاكمة في السـموات والأرض لعلم بها الله حتما ، ولكـانت رسـالته تكشف عنها وتأمرنا بالتقريب إليها.

(**سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**)

فالله قـــدوس ومـــنزه عن أن يجد ســـلطانه الواسع شـــــريك ، وهو أعلى من أن يصل الى مقامه الأســــمى شريك.

سبب الاختلاف :

[19] هل أن ايمــان طائفة من النــاس وكفر أخــرى مرتبطة بطينة النــاس وفطــرتهم؟ أو أن الله خلق هــؤلاء كفارا وأولئك مسلمين؟ أم ماذا؟

يقول القرآن :

(**وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً**)

خلقهم الله بصورة واحدة ، وأعطاهم جميعا قدرا من العقل يكفيهم لهــدايتهم الى الله ، ولكن بعضــهم اســتفاد من عقله بينما غفل عنه الآخر ، وكــــان الاختلاف بفعلهم هم لا بسبب خلقتهم.

(**فَاخْتَلَفُوا**)

وأمهلهم الله حتى يتم اختبارهم.

(**وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**)

تلك الكلمة ـ حسبما يبدو لي ـ هي أن الله جعل الدنيا دار ابتلاء ولم يجعلها دار جزاء.

لا للجبر .. نعم للاختيار :

[20] ولجهل الناس بحقيقة الـدنيا ، فهم يزعمـون انّ على الله أن يجـبرهم على الهـدى جـبرا ، ولا يعلمـون ان على أنفسهم مسئولية الاهتداء الى الحق ، وذلك بتشـغيل عقولهم بحثا عن الحقيقة.

(**وَيَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُـلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ**)

ان الله يعلم الغيب ، ومن الغيب الحكمة البالغة التي يعلم بها ، أن أي قـدر من الآيـات يكفي الإنسـان في بحثه عن الحقيقة لو استخدم عقله ، أما أن يريد تدخل الله في أمور الحياة مباشرة فذلك أمر يحتاج الى وقت ، حيث أنه بعد انقضاء مهلة هؤلاء سوف يأخذهم الله بعذاب عظيم.

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَـةً مِنْ بَعْـدِ ضَـرَّاءَ مَسَّـتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُـلِ اللـهُ أَسْـرَعُ مَكْـراً إِنَّ رُسُـلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21) هُوَ الَّذِي يُسَـيِّرُكُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْـكِ وَجَـرَيْنَ بِهِمْ بِـرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَـوْجُ مِنْ كُـلِّ مَكـانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيـطَ بِهِمْ دَعَـوُا اللـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الـدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هـذِهِ لَنَكُـونَنَّ مِنَ الشَّـاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجـاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُـونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)

عند الخطر يجأر العبد الى الله

هدى من الآيات :

وفي سياق الحـديث عن الـذين يعبـدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، وللدلالة الفطرية على واقع هذه العبادة ، يبيّن لنا الله سبحانه موقف الناس من آيـات الله ، وكيف يتبدل حسب اختلاف حالاتهم النفسية ، فاذا كـانوا في شـدّة وضـرّاء ثم أسـبغ الله عليهم نعمه ، وجعلهم يتحسسـون برحمته ، تجـدهم يحتـالون على آيـات الله ويناقشـون فيها حـتى لا يؤمنـوا بها بكل وسـيلة ممكنة ، بينما الله سـريع الجـزاء لما يفعلـون ، وقد أوكل سـبحانه أمر كتابة أعمالهم ومكرهم الى الملائكة المرسلين إليهم.

وكمثل على هذه الحالة أن الله يوفّر للإنسان أسـباب السير في البر والبحر ، ويركب الناس السفن الشراعية ، ويهب عليها نسيم هادئ يفرحـون به لأنه يؤنسـهم ويسـيّر سفينتهم ، ولكن بعدئذ تـأتيهم ريح عاصف يهيج بها أمـواج البحر حتى تحيط بهم من كل جـانب ، ويظنّـون أن الهلاك قد اقترب منهم هنالك ينسون الشركاء ويخلصون العبـادة لله ، ويدعونه ويتعهدون انه لو أنجاهم يصبحون من

الشاكرين.

بيد أنه حين يخلّصـــــهم الله من ورطتهم تـــــراهم يفســـدون في الأرض ، ويرتكبـــون المعاصي ، بينما تلك المعاصي موجهة ضدهم ، لأنها بالتالي متـاع الحيـاة الـدنيا المحدودة ، وبعدها ينتقل البشر الى ربه ليجازيه.

بينات من الآيات :

المكر بعد الرحمة :

[21] الرحمة بعد الضـرّاء ليست كالرحمة من دونها ، فحين تكون مريضا يستبد بك الألم والخوف ، فتنزل عليك رحمة السـلامة والعافية ، وحين تكـون فقـيرا يضـيق بك رحب الـــدنيا وتلاحقك أعين النـــاس ازدراء ، فتهبط عليك رحمة الغنى والعزة ، آنئذ تشعر عمق لـذّة النعمة ، بـذات الحساسية التي شعرت بألم الضّراء.

والإنسان الذي تـذوق الرحمة وأحس بمس الضـراء ، عليه أن يعـترف بـأن الله هو مـدبر الخـير والشر ، وأنه لا يملك من ذاته شيئا ، ولكنه لا يفعل ذلك.

(**وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْـدِ ضَـرَّاءَ مَسَّـتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا**)

يحـاولون تفسـير الآيـات بما يتناسب وغـرورهم ، أو يسعون في طمس معالم الحقيقة التي تخالف مصـالحهم وأهـواءهم ، أو حـتى أنهم يتصـرفون في نعم الله ، بغـير الوجه السليم الذي يضمن استمرارها ، وآنئذ يأخـذهم الله بعملهم السيء.

(**قُـلِ اللـهُ أَسْـرَعُ مَكْـراً إِنَّ رُسُـلَنا يَكْتُبُـونَ ما تَمْكُرُونَ**)

ان مكر الله هو تقليب الأمـــور وفق الســـنن الـــتي يجريها في الحيـاة ، والـتي تقضي بـزوال النعم الـتي لا يشـكرها النـاس ، ولا يحـافظون على عواملها السـلوكية والنفسية.

ان ملائكة الله يحصـــون على الإنســـان كل صـــغيرة وكبيرة حتى لا يقدر على التحايل عليهم ، والادعاء بأنه قد عمل صالحا.

ويبدو أن هـذه الآية تصـدق على الحضـارات البشـرية التي تبـدء بصـعوبات كبـيرة حـتى تبلغ مرحلة النضج ويعم الرخـــاء ، ثم يمكر البشر في آيـــات الله فتنحــــدر الى الحضــيض ، كما تنطبق على حيــاة كل واحد من البشر ، تحمل الصـعاب حـتى بلغ منيته ، ولكنه أغتّر بعئذ بنعم الله عليه فكفر بها ، فأزالها الله عنه.

[22] وكمثل على هـــذه الحقيقة يــبيّن ربنا ســبحانه قصة راكــبي البحر بالســفينة الشــراعية الــتي وقفت في عرض البحر بسبب ركود الهـواء ، ثم تهب عليها ريح طيبة فيستبشــرون بها ، ولكنهم في ذات الــوقت يفرحــون بها ممّا ينسيهم شكر الله.

وبعد فترة من الوقت يحيط بهم الخطر بسبب تحــول الــريح الطيبة الى ريح عاصف تثـير الأمـواج العاتية حــول الســـفينة ، فلما رأوا ذلك تضـــرعوا الى الله ســـبحانه لينقذهم من الخطر ، فلما نجاهم إذا هم يكفرون.

(**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْـكِ وَجَـرَيْنَ بِهِمْ بِـرِيحٍ طَيِّبَـةٍ وَفَرِحُـوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِـفٌ وَجـاءَهُمُ الْمَـوْجُ مِنْ كُـلِّ مَكـانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ**)

أي أحــاط بهم الخطر بحيث أصــبحوا محاصــرين من كل مكان دون قـدرة على الفـرار ، وربما الظن هنا ـ كما في ســائر الآيــات ـــ بمعــنى التصــور فهو أشد وقعا في النفس وتأثيرا.

(**دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**)

أي كان ادعـاؤهم مختلفا عن دعـائهم السـابق ، ففي السابق كانوا يدعون الله

والشـــركاء معا ، وكـــانت قلـــوبهم منقســـمة بين الله والشــركاء ، ولكن الآن أخلصـوا الـتزامهم بالله ، وصـفّوا قلوبهم من رجس الشرك.

(**لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**)

ماذا كانوا يعنون بالشـكر؟ هل هو مجـرد تـرداد كلمة شــكرا للــه؟ أم فــوق ذلك الالــتزام بكل ما أمر الله من واجبــات؟ من الواضح أن الشــكر بــالمفهوم الأول كــان بسيطا وكانوا مستعدين له أبدا ، أما الذي لم يفعلــوه فهو الشكر بالمعنى الثاني.

الكفر بعد الشكر :

[23] وهكذا مكروا في آيـات الله ، وأخـذوا يظلمـون بعضـــهم ويســـتغلون رحمة الله أداة للباطل ، وأخـــذوا يســـرفون في نعم الله كما فعل قـــوم لـــوط ، وكـــانوا يفســـدون في الأرض كما فعل فرعـــون وقومه ، وأخـــذوا يستكبرون في الأرض بالباطل كما فعل عاد وثمود وهكذا.

(**فَلَمَّا أَنْجـاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُـونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ**)

أي ان هذا الظلم ، وهذا التحويل في طريقة الانتفــاع من آيات الله ، ان ذلك سوف ينعكس عليكم ، ذلك لأنه

(**مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَـرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

إِنَّما مَثَـلُ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا كَمـاءٍ أَنْزَلْنـاهُ مِنَ السَّـماءِ فَاخْتَلَـطَ بِـهِ نَبـاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُـلُ النَّاسُ وَالْأَنْعـامُ حَتَّى إِذا أَخَــذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قــــادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهــــاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِـالْأَمْسِ كَـذلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيـاتِ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) وَاللـهُ يَـدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِـراطٍ مُسْـتَقِيمٍ (25) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْـنى وَزِيـادَةٌ وَلا يَرْهَـقُ وُجُـوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْـحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِـدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَــبُوا السَّــيِّئاتِ جَــزاءُ سَــيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

---

24 [تغن] : غني بالمكان اقام به والمغاني المنازل.
26 [يرهق] : الرهق اسم من الارهاق وهو ان يحمل الإنسان على مالا يطيقه ومنه سأرهقه صعودا.
[قتر] : القتر الغبار والقتار الدخان.

ما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27)

دار الفناء أم دار السلام

هدى من الآيات :

في الدرس السابق بيّن الله لنا أن الذين يمكرون في آيـات الله بغيهم على أنفســهم ، لأن متـاع الحيـاة الـدنيا قليل.

وفي هــذا الــدرس يعطينا الســياق رؤية عامة تجــاه الحياة الـدنيا ، ويضـرب لنا مثلا ببعض ما نـراه ظـاهرا من تحولات طبيعية ، كالماء ينزل من السماء ويختلط به نبات الأرض من فواكه تأكلها الناس ، وأعشـاب تأكلها الأنعـام ، وتزدهر الأرض وتصــبح بهيجة ومزينة ، حــتى تصــوّر أهل الأرض أنها أصـبحت محكومة لهم ، وأنهم قـادرون عليها ، وعلى أنــواع التصـرف فيها ، ولكن لا تبقى هـذه الحالة إذ سـرعان ما يأتيها أمر الله ليلا أو نهـارا بعاصـفة ثلجية ، أو سيول هادرة ، فـاذا بها تحصد حصـدا وكأنها لم تقم هكـذا سابقا. هكذا يضرب الله لنا مثلا ، من ظـواهر الـدنيا الـتي هي آيات الله التي ينبغي أن نتفكر فيها.

وما دامت الحيــاة غــير مأمونة العــواقب ، فعلينا أن نفتش عن أمان ، والله يدعو الى

ذلك ويهـدي من يشـاء الى صـراط مسـتقيم ، يبلّغهم دار السـلامة والأمن في الـدنيا ، وفي الآخـرة حيث يضـمن للذين أحسنوا الفكر والعمل الحياة الحسـنى وزيـادة على فعلهم الحسن ، تلك الزيادة قد تكون في غنـاهم الـروحي والمادي ، وأنهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

بينما الـذين عملـوا السـيئات يجـازيهم الله بمثل ما فعلـوا ، وتحلق بهم الذلة ، ولا يسـتطيع شـيء أن يمنع عنهم عـذاب الله ، ووجـوههم مسـودة كأنما قد أحـاط بها الظلام ، وهم أصحاب النار فيها خالدون.

بينات من الآيات :

وحدانية الخلق والتدبير :

[24] الذي خلق الطبيعة خلق الإنسان ، والـذي يقلب ظـواهر الطبيعة من حـال لحـال ، هو الـذي يقلب حيـاة البشر ، ولو تفكر الإنسان في خلق الطبيعة لعرف الكثـير من خلق البشر.

والمنهج القـرآني الفريد يـذكرنا بهـذه الحقيقة من خلال الأمثال التي يضـربها من واقع الطبيعة ويطبقها على واقع الإنسان ، فمثل حياتك في الدنيا وما فيها من طفولة وشـباب وكهولة ، انما هو مثل الأرض شـتاء وربيعا ثم خريفا فصيفا.

انك تـرى الأرض هامـدة فيـنزل الله عليها مـاء من السماء ، ويكون الماء عاملا مساعدا لتفاعل ذرّات الأرض مع بعضها ، فالأملاح تـدخل في قلب البـذرة الحية ، فتنمو هذه الاخيرة وتصبح فاكهة لذيذة يتمتع بها الناس ، وعشـبا غنيا يأكله الانعـام ، وتفـترش الأرض بسـاطا مزروعا فيه منافع الأرض وزينتها ، ويتصور الناس ان هذه الحالة دائمة لهم وأنه المسيطرون على خيرات الأرض ، ولكن سرعان ما يعصف

بـالزرع أمر الله في صـورة عاصـفة ثلجية فتصـبح الأرض بلقعا ، وكأنه لم يكن عليها شيء قائم بالأمس.

وهكذا حياتك تبدء بالنشاط والزهو ، ويبـارك الله فيها بالغنى والقدرة حتى تغتر بنفسك ، وتـزعم أنك قـادر على ما تشـاء ، فـاذا بك تحاصر من حولك بـالمرض ، والعجز والفقر ، ولا تقدر على شـيء ، إن علينا ان نتفكر مليّا في آيات الله في الحياة.

(**إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْنـاهُ مِنَ السَّـماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ**)

أي اختلط بسبب الماء نبـات الأرض ببعضه ، وأنتج ما يأكله الناس وما يستفيد منه الأنعام.

(**حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ**)

يبـدو أن الزخـرف هي منـافع الأرض ، وتـزيين الأرض مباهجها الظاهرة.

(**وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قـادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)

فالآيـات الالهية سـواء تلك الـتي يراها الإنسـان على شاشة الطبيعة ، أو الـتي يسـمعها من فم الرسـالة ، انها واضحة المعالم لمن تفكّر فيها واعتبر بها.

إلى دار السلام :

[25] وهكذا الحياة تتقلب حتى تبلغ نهايتها الصاعقة ، والله يـدعو عبـاده الى دار السـلام الـتي تصـونهم من العواقب الوخيمة ، وذلك عن طريق هـدايتهم الى صـراط مستقيم يصلون عبره الى أهدافهم الصالحة.

(**وَاللهُ يَـدْعُوا إِلى دارِ السَّـلامِ وَيَهْـدِي مَنْ يَشـاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

[26] كيف يكون عند الله دار السلام التي يدعوا إليها ربنا عبر صراط مستقيم؟

إن دار الســلام تعـني في الـدنيا تلك المنــاهج الالهية للأعمال الحسنة ، والتي تؤدي الى الحياة الحسنى.

(**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ**)

الله يضـاعف لمن يفعل الحسـنات ، لأن ربنا سـبقت رحمته غضبه ، وهو أرحم الـراحمين قبل أن يكـون شـديد العقاب ، ومن مظاهر الحياة الحسنى أن ظلام الشـهوات والأهــواء لا يحجب عقــولهم ، وأن ذلّة الســيئات لا تحيط بشخصياتهم ، فرؤيتهم واضحة ، ونفوسهم عزيزة.

(**وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ**)

أي لا يلحق وجوههم غبار ولا صغار.

(**أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

والشـــهوات في الــــدنيا ظلام في الآخـــرة ، كما أن الغرور والاستكبار ذلّة وصغار في الآخرة ، ولذلك جاء في الحديث المروي عن رسول الله :

«ما من عين ترقرقت بمائها الّا حرم الله ذلك الجسد على النـــار ، فـــان فاضت من خشـــية الله لم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة» (1)

---

(1) مجمع البيان ج 5 / 104

جزاء السيئات :

[27] أما الـذين عملـوا السـيئات فأصـبحت ثقلا على ظهورهم ، فان جزاء كل سيئة تكون بقدرها تماما دون أن ينقص منها شيء ، وتلحقهم ذلة وصغار بسبب تلك السيئة ، وتحيط بهم ظلمـــات الســـيئات فتحجب عنهم الرؤية السليمة وكأنها قطع من الليل.

(**وَالَّذِينَ كَسَــبُوا السَّــيِّئاتِ جَـزاءُ سَــيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ**)

فلا يفكر أحـــدهم أنه قـــادر على الخلاص من جـــزاء سيئاته من دون الله وعن طريق الشركاء كلا ..

(**كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً**)

أي كـــأنّ الله قد أغشى وســـتر وجـــوههم بقطع من الليل المظلم ، هكـذا يحيط بهم السـواد ، وهكـذا تسـبب الشهوات افتقاد النور والرؤية.

(**أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

ان كل واحد منا معرض لان يكون من مصـاديق هـذه الآية ، الا أن يوفقه الله للتوبة من سـيئاته والعمل بمنـاهج الله سبحانه.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (30)

---

28 [فزيّلنا] : التنزيل التفريق مـأخوذة من قـولهم زلت الشـيء عن مكانه أزيله وزيلته للكـثرة وزايلت فلانا إذا فارقته هنا لك اي في ذلك المكان.

هل ينفع الشركاء في اليوم الاخر؟

هدى من الآيات :

في الدروس السابقة ذكّرنا القرآن بـأن الشـركاء من دون الله لا يضـرون ولا ينفعـون ، ثم أعطانا رؤية متكاملة تجاه الحياة الدنيا ، والـتي ينبغي أن تكـون كافية للإنسـان في توحيد الله ونبذ الشركاء.

وعـاد السـياق ليحـدّثنا عن قضـية الشـركاء بتصـوير مشهد من مشاهد يـوم الحشر ، حيث يجمع الله الشـركاء والمشـركين جميعا ، ويفـرز بينهما وينكر الشـركاء أساسا أنهم كـانوا يعبـدون من دون الله ، ويشـهدون الله أنهم كـانوا غـافلين عن عبـادة المشـركين لهم ، فما ذا ينتفع البشر من عبادة من هو غافل عن عبادته؟!

وهنالك تكشف لكل نفس ما أسـلفت في الـدنيا ، ويردون الى الله قائدهم ومولاهم الحقيقي ، بينما يتلاشى الشـركاء الـذين كـانوا يجعلـونهم شـفعاء عند الله افـتراء على الله والحق.

بينات من الآيات :

وكشف الحجاب :

[28] وفي يوم القيامة تتوضح الحقائق بحيث لا يقـدر أحد على إنكارها ، وحين نتصــور ـــ ونحن في الـــدنيا ـــ مشاهد ذلك اليوم ، يكفينا هذا التصور ، توضيحا للحقيقة ، وكشفا لمعالمها ، لماذا؟

لأن الذي يحول بيننا وبين فهم الحقيقة هو الغفلة ، أو الغـرور والاسـتكبار ، وتصـور مشـاهد يـوم الحشر يـذوّب حجب الغفلة والغـرور عن أنفسـنا ، ويجعلنا نـرى الحقيقة بلا حجاب ، ولذلك يرفع القرآن الستار لنرى مشهد الحوار بين المشـركين وبين آلهتهم الـتي عبـدوها دهـرا زاعمين بأنها تنفعهم يوم القيامة.

(**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً**)

الشركاء المزعومين ومن عبدوهم.

(**ثُمَّ نَقُـــولُ لِلَّذِينَ أَشْـــرَكُوا مَكـــانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ**)

أي انتظــروا جميعا لكي تســألوا ، ثم فــرّق الله بين الفريقين.

(**فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقـــالَ شُـــرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ**)

لقد أنكر الشركاء أنهم كانوا يعبـدونهم إنكـارا كـاملا ، كما أنكرت الملائكة ذلك في آية أخـرى ، وفي الواقع انهم أنكروا علمهم بهذه العبادة بدليل ما جاء في الآية القادمة.

التبري من المسؤولية :

[29] واشـهد الشـركاء الله سـبحانه على أنهم كـانوا غافلين عن هذه العبادة.

(**فَكَفى بِاللـــهِ شَـــهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ**)

وســواء كــان الشــركاء الأصــنام الحجرية ، أو الجن والملائكة ، أو حــتى الأصــنام البشــرية ، فهي غافلة عن طاعة المشـركين لها وغـير مهتمة بـذلك ، لأنها مشـغولة عنها بقضاياها الخاصة.

[30] وعند الله في يـــوم القيامة تظهر حقـــائق كل نفس وأعمالها التي أسـلفتها في الـدنيا ، وتقف أمـام الله المولى الحق البشرية لتجيب عن تلك الأعمال.

(**هُنالِـكَ تَبْلُـوا كُـلُّ نَفْسٍ ما أَسْـلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ**)

لقد افـــتروا على الله بأنه تعـــالى يخضع لضـــغط الشركاء ، وافـتروا على الله بأنه سـبحانه يسـمع كلامهم ، أما الآن فليس بشيء من ذلك موجودا أمامهم ، لقد ابتعد عنهم وتلاشى كما يتلاشى السراب.

قُــلْ مَنْ يَــرْزُقُكُمْ مِنَ السَّــماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِــكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُـدَبِّرُ الْأَمْـرَ فَسَـيَقُولُونَ اللـهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (31) فَذلِكُمُ اللـهُ رَبُّكُمُ الْحَـقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَـأَنَّى تُصْـرَفُونَ (32) كَـذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُــونَ (33)

التدبير آية الرب

والفسق حجاب البصيرة

هدى من الآيات :

من أجل اقتلاع جذر الشـرك من قلب الإنسـان الـذي خلق ضعيفا ، يتابع السياق لحديث عن التوحيد ، ويتسـاءل عن الرزاق الذي ينزل الـرزق من السـماء مـاءا وأشـعة ، ويفجّر الأرض رزقا ورحمة ، أو ليس الله؟

ومن يعطينا أداة الرؤية والســـماع أو ليس اللـــه؟ ويخـرج الميت من الحي وبالتـالي من يـدبّر أمر الكـون ، ويستوي على عـرش السـموات والأرض وبيـده ملكوتهـا؟ إذا سـألتهم فسـوف يقولـون جميعا أنه الله ، وهنا يـبرز السـؤال التـالي : إذا لمـاذا لا تتقـون ربكم؟ ولمـاذا لا تخشونه؟

انه الله ربنا جميعا الحق الذي ليس بعده الّا الضـلال ، فأين مكان الشركاء؟ وأين تصـرفون أيها المشـركون في أي واد واي سبيل منحرف؟!

وسؤال أخير : لماذا لا يؤمن هؤلاء جميعا برغم وضوح الآيات والجواب : هو أن

هؤلاء قد فسقوا والفسق يحجب البصيرة.

بينات من الآيات :

رزق الأرض والسماء :

[31] يهبط من السـماء المـاء ، ولكن ليس بطريقة عشـوائية ، بل بحكمة بالغة ، فالمـاء لا يسـيل كما تنفتح القربة ، حـتى يفسد الأرض ويخـرب الـبيوت ، ويـأتي مشفوعا بالمواد الضرورية للزرع ، وينزل معه فراتا سائغا ، ويـأتي بقـدر نـافع لا يزيد ولا ينفص وبالتـالي فهو رزق للإنسـان متناسب مع حاجـات البشر حجما ونوعا ، مما يدلنا على أن خالق الإنسان هو رازقه الماء من السـماء ، والشـمس تشع على الأرض ، فتغـنى التربة مـوادا نافعة لـرزق الإنسـان كمية وكيفية ، مما يـدلنا أيضا أن خـالق الشـمس هو خـالق البشر وهكـذا يـرزق الله عبـاده من السماء.

ومخـازن الـرزق متواجـدة في الأرض ، فـالأحواض الطبيعية الضـخمة داخل الأرض تسـتقبل ميـاه المطر لتخرجها في صورة ينـابيع ، وقمم الجبـال تجمد المـاء من الشـتاء الى الصـيف ، والتربة تخـتزن المـواد المفيـدة ، وهكذا يرزق الله عباده من الأرض.

(**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ**)

أو ليس هو ذلك القـادر الحكيم الـرحيم بالنـاس ، أو ليس هو الله؟!

من الخالق؟

ونتسـاءل : من الـذي يـوفّر للإنسـان فرصة الاتصـال بالحيـاة رؤية أو سـماعا ، بما يسـتلزم من أنظمة معقـدة في مخ البشر وأعصـابه ، واليـاف عينه ، وعظـام أذنه ، وبما يحتـاج من ضـياء وهـواء يحمل الى عيوننا وأسـماعنا تموّجات النور على الأشياء

وذبــذبات الصــوت على الهــواء؟ أو ليس هو ذلك الخبــير اللطيف ، أو ليس هو الله؟!

(**أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ**)

وأكثر من هذه جميعا هو التطـور الهائل الـذي يحـدث في الأشـياء صـعودا من المـوت الى الحيـاة ، ونـزولا من الحياة الى المـوت ، من الـذي يـدبر هـذا التطـور أو ليس مالك الموت والحياة؟!

(**وَمَنْ يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ**)

ويبــدو من هــذه الكلمة أن الحيــاة هبة الهية تعطى لشـيء فيصـبح حيا ، وينفصل من واقع الأشـياء الميّتة بعد أن يكتسب منها مـواد ميّتة ، فالبشر ــ مثلا ــ كـان نطفة أعطاها الله الحياة ، ثم تتغذى النطفة من المــواد الميتة ، فتضــاف إليها وتصــبح تلك الميتة بــدورها ذات حيــاة ، والعكس يحدث هكذا!!

(**وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ**)

ان قيـادة الكـون منظمة ، وهي تـوحي إلينا بضـرورة من يشــرف عليها ويــدبرها ، لا يكــون غــير الله ، وهــذه الأسئلة لو وجهتها الى اي واحد من المشركين ..

(**فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ**)

لماذا الانحراف؟

فما دام الله هو فاعل كل ذلك فلما ذا لا نخشـــــــاه ونتقــه؟ ونعمل بمناهجــه؟ إن القــرآن الحكيم يربط بين النظــرة الشــاملة الى الكــون وبين البصــيرة الســلوكية الخاصة ، وهـذا الربط هو الـذي ينقص كثـيرا من النـاس ، حيث يجهلــون أن ســلوكهم يجب أن يكــون منســجما مع مســيرة الكــون كلها ، ومع الحقــائق الــتي يهتــدي إليها الإنسان من

خلال تفكره في هذه المسيرة.

[32] وإذا شـــذّ البشر عن المســـيرة العامة للوجـــود فـالى أين يشـذ؟ أو ليس الى الضـلال؟ هل هنـاك حقـائق في هـــذه الحيـــاة؟ هنـــاك حق واحد يجب أن نفتش عنه ، ونطبقه على واقعنا.

(**فَـذلِكُمُ اللـهُ رَبُّكُمُ الْحَـقُّ فَما ذا بَعْـدَ الْحَـقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**)

أي الى أي جهة تعـــدلون بعبـــادتكم ، الى الباطل أم أنكم تعملون من دون تفكر؟!

[33] ويبقى تساؤل إذا كانت القضية بهـذا الوضـوح ، فلما ذا يتعمد البعض بتجاهلها وإهلاك أنفسهم؟

ويجيب القـرآن الحكيم : إن الســبب هو فسق هـؤلاء الذي يمنعهم من الايمان ، هذه سـنة الله في الحيـاة : أن الفاسق لا يؤمن.

(**كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَـقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**)

ولا يـدل ذلك على أن الله يمنعهم عن الايمـان منعا ، بل على أنهم عادة لا يؤمنون ، وذلك بسبب تكـاثف حجب الفسق على أعينهم وبصائرهم.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (36)

البشر بين الظن والحق

هدى من الآيات :

يتساءل السياق القـرآني : هل بمقـدور أحد الشـركاء أن يبدأ الخلق ، ثم يفنيه ثم يعيده ، كما يفعل الله؟ ويعلم المشركون أن الخلق بيد الله وحده ،فلما ذا يصرفون الى الافك؟

ويتساءل مرة أخـرى من الـذي يهـدي الأحيـاء بعد أن يعطيهم خلقهم الى ما فيه صــلاحهم ودوام حيــاتهم؟ الله أم الشركاء؟

ويجيب : أن الله هو الـذي يهـدينا ، فهو الـذي وفّر لنا العقل والســمع والأبصــار ، وزوّد الأحيــاء بــالغرائز الــتي اهتدوا بها الى صلاحهم ، إذا فهل من الصحيح التسليم لله أم للشـركاء الـذين لا يهتـدون الا بقـدر ما يهـديهم اللــه؟ فكيف يحكم المشركون باتباع من لا يهدي ، بل ولا يهتدي الّا بصعوبة؟!

نعم .. إن ســبب ضــلالة هــؤلاء وحكمهم الفاسد هو أنهم يتبعون الظن

والتصورات النابعة من خيالهم ، والظن لا يغـني عن الحق شـيئا ، والله عليم بما يفعلـون ، نتيجة اتبـاعهم للظن من الأعمال السيئة.

بينات من الآيات :

الكفر بعد المعرفة

[34] الذي يتبع السلطان الجائر ، والذي يخضع للغني المستغل ، أو لصاحب الشهرة والنفوذ ، يعلم أن قائـده لا يسـتطيع أن يهب الحيـاة ، أو يعيـدها بعد أن يسـلبها الله ، وهو يعلم يقينا أن موهب الخلق ومعيده بعد الفناء هو الله ، الواسع القـدرة والعلم ، وهنا يتسـاءل القـرآن إذا لمـاذا الخضوع للشركاء من دون الله؟!

(**قُـلْ هَـلْ مِنْ شُـرَكائِكُمْ مَنْ يَبْـدَؤُا الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**)

ويأتي الجواب : كلّا ..

(**قُلِ اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**)

انه يبـدأ الخلق من غـير مثـال سـبقه اليه أحد ، ولا معالجة ولا لغوب ، فليس ربنا كما البشر يحتاج الى تجربة حـتى يخلق الخلق بهـذه الدقة المتناهية ، ولو احتـاج الى التجربة لاحتـاج الى بلايين التجـارب من أجل خلق خلية حية واحدة ، كما يؤكد على ذلك العلم الحـديث والله يعيد الخلق حتى يسـوي بنـان الإنسـان بـذلك الشـكل الـذي لا يتشابه مع بنان أحد في العالم!!

(**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**)

أي أين تصرف بكم الأهواء ، وتتحرك بكم الشـهوات؟ ولمـاذا تـتركون الخـالق العظيم الى بعض المخلـوقين الضعفاء؟!

الصلاح من الله :

[35] والله يعطي كل شـيء خلقه ويهديه الى ما فيه صـــلاحه ، إنك تجد النملة كيف تفتش عن رزقها حـــتى تلتقطه وتحافظ عليه من الصــيف للشــتاء ، وتبــني بيتها بطريقة هندســية غريبة ، وكما النملة تفعل النحلة ببيتها ، وتفتش عن رحيق الزهـــور ، وتنظم نفســها في خلاياها بأفضل تنظيم ، ثم تصـنع عسلا وتحافظ عليه لرزقها أيـام السنة ، فمن الذي أوحى إليها بذلك وهداها لصـلاحها غـير الله؟

وكما النمل والنحل فكـذلك سـائر الأحيـاء ، والنباتـات تنشط باتجاه مصالحها في سبل متعددة وبأساليب شتى ، أو ليس الله الــذي هــداها الى ذلك ، كما هــدى الإنســان طبيعيا وحضاريا؟!

(**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَـقِّ قُـلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِ**)

فهو الـــــــــذي خلق البشر والطبيعة وفق الأنظمة الفطرية ، وهو الـــذي علم الإنســـان كيف يســـتفيد من الطبيعة وفق تلك الأنظمة دون أن يصطدم بها.

(**أَ فَمَنْ يَهْـدِي إِلَى الْحَـقِّ أَحَـقُّ أَنْ يُتَّبَـعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى**)

الشركاء لا يهتدون الّا إذا هداهم الله ، فهذا الطاغوت الذي يعبد من دون الله لو سـلب الله منه هـداه ، وسـلب منه عقله وعلمه ، أو لا يصبح مجنونا يطرده أهلـه؟! وهـذا الــثري الموغل في الفخر والغــرور ، لو ســلب الله منه عقله وعلمه ، أو لا يصبح مثـارا للسـخرية؟! وهـذا الصـنم الحجري الذي يعبده الجاهلون هل يهدي أحدا؟!

(**فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**)

ولماذا تقيسون الشركاء بربّ العالمين؟ ويبـدو لي أن الآية الكريمة تشير الى أولئك

الشركاء الذين يتخـذهم النـاس أربابا فكـريين ، ويأخـذون منهم علومهم وثقـافتهم من دون الله ، ومن دون تمحيص ، فقد جاء في حديث شريف :

«**من اسـتمع الى نـاطق فقد عبـده فـان كـان النـاطق عن الله فقد عبد الله ، وان كـان النـاطق ينطق عن إبليس فقد عبد إبليس**» [1]

و جاء في حديث آخر في تفسير الآية الكريمة :

«**اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ**»

قال : «**والله ما صلّوا لهم ولا صاموا ولكن أطاعوهم في معصية الله**» [2]

و جاء في حديث ثالث :

«**من دان الله بغير سماع من عالم صـادق ألزمه الله التيه الى الفنـاء ، ومن ادّعى سـماعا من غـير البـاب الـذي فتحه الله لخلقه فهو مشـرك ، وذلك الباب هو الأمين المأمون على سر الله المكنون**» [3]

و في حديث آخر :

«**من دان الله بغير سـماع عن صـادق ألزمه الله التيه الى يوم القيامة**» [4]

و جاء في تفسير قول الله عز وجل :

«(**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللـهِ**)

قال : عنّى الله بها من اتخذ دينه

(1) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ص 94 الجزء الثاني.
(2) المصدر ص 97
(3) المصدر ص 100
(4) المصدر ص 93

رأيه من غير امام من أئمة الهدى» [1]

ان اتباع أحد بصورة مطلقة ومن دون الانتفاع بعقولنا ، إنه نوع ظـاهر من أنـواع الشـرك بالله ، لأن أهم أضـرار الشرك هو إضلال الإنسان في الحياة.

بين الظن والحق :

[36] ولان الشرك والطاعة العمياء للأصنام وكهنتها ، ورمـوز السـلطة والـثروة والرجعية ــ لأنه يسـلب العقل ويلغي دوره ـ فان المشركين يتبعون التصورات والظنـون وهي لا تجديهم شيئا ، ذلك لأن الظن يعكس حالة صـاحبه النفســية ، ولا يعكس الحقيقة الخارجية ، والإنســان زوّد بالعقل من أجل أن ينسّــــق بين واقعه وبين الحقــــائق الخارجية ، ويــدرأ عن نفسه أخطــار هــذا الواقع ، ومثل هـــؤلاء كمن يرسم خريطة وهمية عن منطقة ثم يســير عليها دون أن يعتمد على عينه وأحاسيسه.

(**وَما يَتَّبِـعُ أَكْثَـرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً**)

والسؤال : لمـاذا يتبع هـؤلاء الظن بينما زودوا بالعقل والبصيرة؟

الجواب : إن المشركين يتبعـون أهـواءهم ، ويجعلـون هــوى الــذات وحب النفس محــورا لتحــركهم ، فهم لا يهدفون أبدا الوصول الى الحق حتى يبحثـون عن السـبيل الــذي يوصــلهم اليه ، وهو العلم ولــذلك فهم يرتكبــون الجرائم بوعي وإصرار.

(**إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ**)

---

(1) المصدر ص 93

والله يجازيهم على أفعالهم ، ولكن يذكرهم أيضا بــأن اتبـــاع الظن هو طريق الخطايا ، لكي يتجنب المؤمنـــون ذلك ، ويبحثوا أبدا عن المعرفة التي توصل الى الحقيقة.

وَما كانَ هذَا الْقُـرْآنُ أَنْ يُفْتَـرى مِنْ دُونِ اللـهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِـيلَ الْكِتـابِ لا رَيْبَ فِيـهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُـلْ فَـأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللـهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38) بَلْ كَـذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُـوا بِعِلْمِـهِ وَلَمَّا يَــأْتِهِمْ تَأْوِيلُــهُ كَــذلِكَ كَــذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَنْ يُــــؤْمِنُ بِــــهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُــــؤْمِنُ بِــــهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40)

القرآن يتحدى بنفسه الكفار

هدى من الآيات :

وفي سياق الحديث عن الظن الـذي يتبعه الجـاهليون المشركون ، يذكّرنا القرآن الحكيم ، بالطريق المؤدي الى الحق وهو العلم ، وأحد مصدري المعرفة هو القرآن الـذي لا يكون افتراء لوضوح آياته وتطابقه مع العقل ، ولأنه جاء مصدّقا لرسالات السـماء السـابقة ، وموضـحا الكثـير ممّا كان غامضا في تلك الرسالات ، وبـذلك لا يـرقى شك الى أنه نازل من ربّ العالمين الذي وسعت حرمته كل شيء ، فــربّى كل شـــيء وأعطـــاه التكامل ، وأعطى الإنســـان تكامله بالقرآن.

وهم يزعمـــون أن الرســـول قد افـــتراه ، إذا ليـــأتوا بسورة واحدة مثل القرآن ، وليستعينوا بمن شاؤوا الصـنع هذه السورة المفتراة إن كانوا صادقين؟!

كلّا .. إن الســـبب في كفـــرهم أنهم لم يبلغـــوا علم القرآن ، ولم يحيطوا بكل أبعاده ، فكذّبوا به لنقص فيهم ، ولأن الحقائق التي بشّر بها القرآن لم تتحول الى

واقعيـات أمـامهم ، وحين تصـبح الحقيقة واقعا خارجيا لا تنفع التوبة كما كانت عاقبة الظـالمين من قبل ، والـذي لا يـــؤمن بـــالقرآن مفسد في الأرض ، والله عليم به ، أما المصـلحون فـان قلـوبهم نظيفة وأعينهم مفتوحة ولـذلك يؤمنون به.

بينات من الآيات :

استحالة افتراء القرآن :

[37] ان لكل حق حقيقة ، وعلى كل صـواب نـورا ، ومن يـرى الحقـائق بعين بصـيرة وقلب نظيف بعيـدا عن الحجب والنظـارات السـوداء ، وبعيـدا عن العقد النفسـية فانه لا يخطأ ، والقـــرآن ذاته دليل صـــحته وأنه من الله ، فهو لا يمكن افـتراءه إذ هو أسـمى من أن يقـدر أحد على صنعه ، انه صنع الله الـذي لا يقـدر على مثله البشر ، هل يستطيع أحد أن يخلق طيرا كما خلق الله؟ كلّا .. كـذلك لا يقدر أحد على افتراء القرآن.

(**وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ**)

ولكن القــرآن حلقه في سلسـلة رسـالات سـماوية تصدّق بعضها بعضا ، وهو خط ممتد يؤمن الناس به مجملا ، بـالرغم من أن شـهواتهم تـدعوهم الى الكفر بالرسـالة الجديدة لنقص في ذاتهم.

(**وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتـابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

فالقرآن يصدّق الرسالات السابقة ، مما يدل على أنه في خطها ، ومن يؤمن بها لا بد أن يـؤمن به أيضا ، وهو لا يــرقى اليه ريب ، لأنه من وحي الله الــذي لا يــرقى اليه ريب أو نقص سبحانه. والله رب العالمين الذي أعطى كل شيء خلقه وتصاعده ،

فخلق السـموات والأرض في سـتة أيـام ، وفي كل يـوم يضيف خلقا جديـدا ونعمة جديـدة إليها ، وهو رب الإنسـان الـذي يعطيه تكامله بطـرق شـتى ومنها الـوحي ، فـواهب العقل هو منزل القرآن ، والإنسان غـير المعقد يفهم هـذه الحقيقة بوضوح.

[38] ولكنهم يصـرون على اتهـام الرسـول بأنه قد افترى القرآن كله ، إذا قل لهم ليفتروا هم بدورهم قرآنا ، وليأتوا ولو بسورة واحـدة مثل القـرآن في علمه وبلاغته ، وليسـتعينوا بمن شـاؤا من الجن والأنس من أجل صـنع سورة واحدة!

(**أَمْ يَقُولُـونَ افْتَـراهُ قُـلْ فَـأْتُوا بِسُـورَةٍ مِثْلِـهِ وَادْعُـوا مَنِ اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّـهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

وكما لا يستطيع أحد أن يخلق نملة واحدة فهو لا يقدر على أن يأتي بجزء بسـيط من القـرآن ، لأن خـالق النملة هو موحي القرآن ، والقرآن بذلك المستوى الأرفع الذي لا يحيط به علم البشر وقدراته.

دوافع الفكر :

[39] وأحد العوامل النفسـية الـتي تقف أمـام ايمـان هـؤلاء هو جهلهم ، وضـيق صـدورهم ، وقلّة اسـتعدادهم ، لـذلك تـراهم يكـذّبون بـأي شـيء لا يعرفـون كل أبعـاده وخصائصه ، ولا يفكرون أن الحقيقة التي يرونها ويعرفـون صحتها جديرة بالايمان ، ولا يجوز لهم إنكارها بمجـرد أنهم لا يعرفون كل أبعادها.

(**بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**)

وهذه صـفة عامة للبشر ، و قد عبّر عنها الامـام علي (ع) بقوله :

«الناس أعداء ما جهلوا»

وهــذه من أســوأ الصــفات الجاهلية والمتخلفة الــتي تقف عقبة في طريق تقـدم البشـرية ، وعلى الإنسـان أن يـــربي نفسه ومجتمعة على اســـتقبال كل جديد بـــروح ايجابية ، ولا يــرفض أي شــيء جديد بمجــرد أنه لا يعــرف عنه شيئا.

ومن الصفات الجاهلية هي انتظار تحـوّل الحقيقة الى واقع ، فــاذا أنــذر الجــاهلي والمتخلف حضــاريا بالمجاعة بســبب التكاسل أو الاختلاف لم يــؤمن بالحقيقة ، وانتظر قـــدوم المجاعة فعلا حـــتى يـــؤمن بها ، ولكن ما فائـــدة الايمان آنئذ.

إننا نريد العلم لنستبق به الأحداث ، ونمنع عن أنفسنا الأخطار ، أما بعد مجيئه فـان الايمـان لا يجـدي شـيئا ، بل ســوف يحيط الواقع الســيء بالإنســان ويقضي عليه كما دلّت على ذلك أحداث التاريخ.

(**وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَـذلِكَ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**)

[40] ومـــرة أخـــرى يؤكد القـــرآن أن أحد العوامل الأساسية للكفر بـالقرآن الحكيم هو العمل الســيء الـذي ران على قلوب الكافرين ، فلم يدعهم يؤمنون بالرسالة ، ذلك العمل هو الفساد في الأرض.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ**)

في المســتقبل إذا كـان مصـلحا طيب القلب ، ينتظر المزيد من الآيات ، أو بعض الحالات النفسـية الـتي يتغلب بها على ضغوط المجتمع الفاسد أو الشهوات العاجلة.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ**)

وهــذا الفريق لا يــؤمن بالرســالة بســبب توغله في الفساد ، وبناء حياته على أساس

منحرف وشاذ.
(**وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ**)

وَإِنْ كَـــــذَّبُوكَ فَقُـــــلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَـــلُ وَأَنَا بَـــرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُـــونَ (41) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّـمَّ وَلَـوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَـأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَـوْ كـانُوا لا يُبْصِـرُونَ (43) إِنَّ اللـهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ (44) وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ كَـأَنْ لَمْ يَلْبَثُـوا إِلاَّ سـاعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِـرَ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِلِقـاءِ اللـهِ وَما كـانُوا مُهْتَـدِينَ (45) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِـدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَـرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللــهُ شَـهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (46)

البراءة

من أصحاب القلوب المريضة

هدى من الآيات :

وفي سياق البيان الالهي للقــرآن ، وكيف أنه معجز لا يقــدر على مثله بشر ، يــبيّن ربنا ســبحانه الحل الحاسم الأخير ، والذي يتسم بصرامة الحق وصراحته ، فان كـذّبوا الرسـول بـرغم وضـوح رسـالته ، فليقل أنه منفصل عنهم بــــريء من عملهم ، كما هم بريـــــؤون من عمله ، فكل يتحمل مسـئولية عمله ، ولـذلك فهو والمؤمنـون به أمة ، وهم أمة.

ومنهم من يــزعم أن تقرّبه الى الرســول ومن دون الايمـان برسـالته تنفعه شـيئا ، ولكن هل يقـدر الرسـول اســماع من به صــمم؟ كلّا .. لأن النقص فيه وفي قدرته على الاستجابة للرسالة.

كما أن بعضـــهم ينظر الى الرســـول عسى أن يريه سـبيل الهـدى دون أن يـؤمن برسـالته الـتي هي الضـياء والهـدى ، ولكن حين تكـون العين عميـاء هل تنفعه أشـعة الشمس القوية شـيئا؟! إن الصـمم والعمى ليسا من الله بل من ارادة الناس

أنفسهم ، لأن الله لا يظلم أحدا فيخلقه ـ سبحانه ـ أعمى أو أصمّ ، كلا بل النـاس يظلمـون أنفسـهم بعـدم محاولة الرؤية والاستماع.

وهكـذا يعطي هـذا الـدرس رؤية واضـحة تجـاه كفر النـــاس وايمـــانهم ، وأنه من أنفســـهم وبســـبب ســـوء اختيارهم.

بينات من الآيات :

مبدئية العلاقات :

[41] يبـــدو أن بعض النـــاس يريـــدون الإبقـــاء على علاقتهم مع رسل الله بعد قطع علاقتهم مع رســـــالاتهم ، فيكذّبون الرسول ولكنهم يريدون أن يكونوا هم والرسول من قـــوم واحد ، وهكـذا الأمر بالنسـبة الى علاقة النـاس بأصحاب المبادئ ، بيد أن الله يـأمر رسـوله بقطع العلاقة مع من يكذّب بالرسالة.

(**وَإِنْ كَـذَّبُوكَ فَقُـلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**)

فالكل يعمل حسب وجهته ويتحمل وحـــده مســئولية عمله ، والمبـدأ هو الـذي يفصل هـذه الجماعة عن تلك ، وليس أي شـــيء آخر ، وحين يفصل المبـــدأ بين قـــوم وآخرين لا ينفع وحـدة الأرض واللغة ، أو حـتى القرابة في ربط بعضهم ببعض.

الذات منطلق الاهتداء :

[42] ومن النـاس من يـزعم ان الرسـول هو الـذي يعطيهم الرؤية من دون أن يســـــعى هو من أجل ذلك ، وهـذا غلط فظيع ، ذلك لأن الهداية أو الضـلالة بقـدر من الإنسـان نفسه ، والـذي لا يبـدأ الخطـوة الأولى في هـذا الطريق لا يجديه شـــيء آخر ، ويكـــون مثله كمثل أصم يطلب من الآخرين أن يسمعوه شيئا بينما النقص من

ذاته ، وأنه مهما كانت قوة الصوت فانه لا يسمع!!

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ**)

فالأصم لا يستجيب عقله لحديث ، لأن سمعه مسدود ، وهؤلاء لا ينتفعون بسمعهم ولا يعقلون ما يدخل سمعهم من أحاديث ، والسمع أرفع جهاز إدراك عند البشر ، باعتباره الأداة الأوسع انتشارا والأكثر فائدة في نقل التجارب والخبرات من جيل لآخر ، وبالتالي فهو الواسطة الفضلى للحضارة البشرية ، التي هي تراكمات الخبرات عبر العصور المتمادية ، وربما لذلك عقّب القرآن على الصمم بعدم العقل.

[43] وكذلك هناك بعض من لم يعرف هذه الحقيقة ، أن الهداية هي أولى مسئوليّات البشر ، وإنّ من لا يعمل من أجلها لا يبلغها أبدا.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ**)

وكأن الرسول هو المسؤول عن هدايته وعن توجيهه.

(**أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ**)

فالأعمى لا يرى ، لا لأن الضوء قليل ، بل لأن جهاز الاستقبال معطب ، والتحرك يجب أن يكون ابتداء من الفرد نفسه.

[44] ولا يجوز ان يزعم الإنسان أن الله هو الذي سلب الفرد سمعه وبصره ، بل الإنسان هو نفسه الذي لا ينتفع بسمعه وبصره.

(**إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)

فالناس هم الذين لا يستفيدون من أدوات التوجيه عندهم ، وربما عبّر القرآن

بكلمة النـاس لسـبب هو أن بعض النـاس يضـلّل بعضـهم بعضا ، وأنهم مسئولون عن هداية بعضهم ، كما أن التعبير القـرآني في السـمع جـاء بصـفة جماعية ، بينما جـاء عند التعبـير عن البصر بصـفة فردية ، ربما لأن السـمع عملية حضـارية يكلف بها النـاس جميعا ، بينما البصر يغلب عليه الجانب الفردي.

[45] للإنسان الجاهلي غلطتان كبيرتان.

الغلطة الاولى :

عـدم فهم طبيعة الجـزاء وأنه ليس من الضـروري أن يكـون بعد العمل مباشـرة. الجـزاء يـأتي وكل آت قـريب لذلك لا يجوز للإنسـان من أن يكفر بـالجزاء لأنه قد تـأخر قليلا عنه ثم الجـــزاء الموعـــود في القـــرآن ليس جـــزاء بسيطا لأنه يتسم بصفتين أساسيتين :

الاولى : أنه جزاء خالد.

الثاني : أنه لا يمكن للإنسـان أن يهـرب منه أو يطلب الاذن من ربه في العــودة الى الــدنيا لتجربة إرادته مــرة اخرى.

وبالقيـاس الى الخلـود الـذي يتسم به الجـزاء الالهي على الأعمال فإن الفترة التي يقضـيها الإنسـان في الـدنيا بسيطة وبسيطة جدا.

(**وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ كَـأَنْ لَمْ يَلْبَثُـوا إِلَّا سـاعَةً مِنَ النَّهارِ**)

الفترة التي كانوا خلالها في الدنيا تعتبر بالقيــاس إلى زمن الآخرة سـاعة واحـدة ويكفيك للقيـاس أن تعلم بأنك قصارى ما تعيش في الدنيا سبعين عاما أو ثمانين أو أكـثر أو أقل بينما تعيش في يـــوم القيامة في يـــوم واحد فقط خمســين ألف عــام. هل بإمكانك أن تقيس هـذه الفـترة المحدودة بذلك الزمن الممتد إلا أن تقول أن هـذه سـاعة من ذاك.

(**يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ**)

يعرف بعضهم بعضا ويتذكر بعضـهم بعضا وكـأنهم في هـذه الـدنيا وهنالك تكـون الخسـارة لمن؟ لأولئك الـذين كـذبوا بـذلك اليـوم أما الرابحـون فهم الـذين آمنـوا بـذلك اليوم واستعدوا له سلفا.

(**قَـدْ خَسِـرَ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِلِقـاءِ اللـهِ وَما كـانُوا مُهْتَدِينَ**)

[46] أما الغلطة الثانية :

فهو الاعتقاد بأن الجزاء الـذي يعـدهم الرسـول ناطقا عبر الله إن هذا الجزاء انما هو من الرسـول نفسـه. فمثلا ينتظر بعضهم وفاة الرسول أو يـدبرون المـؤامرات ضـده زاعمين أن تصفية الرسول يعني خلاصهم مما ينذرهم به.

الرسول مجرد منـذر ومبشر أما العـذاب فهو من الله فسواء كان الرسـول أو لم يكن بين أظهـرهم فـإن جـزاء أعمالهم لا بد أن يلحقهم.

(**وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ**)

الله قبل الرســول هو شــهيد على أعمــالهم فــأين يهربون.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (47) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52)

---

48 [الوعد] : خبر بما يعطي من الخير والوعيد خبر بما يعطي منه الشر.

49 [نفعا] : اللذة والسرور.

50 [أقم] : الاقامة نصب الشيء ونقيضه الاضطجاع واقام بالمكان استمر فيه كاستمرار القيام في وجهة الانتصاب.

لكل امة أجل

هدى من الآيات :

في سياق الدرس السـابق حـدّثنا القـارن الحكيم عن مسـؤولية الإنسـان المباشـرة عن الهداية ، حيث تنتهي عاقبة الضـلالة بالخسـارة الكـبرى الـتي تلحق المكـذّبين بآيـات الله ولقائه ، وحين يحشـرهم الله للجـزاء في ذلك اليوم الرهيب يعرف الناس بعضهم بعضا ، ويزعمـون أنهم لم يلبثـوا في الـدنيا الّا برهة قصـيرة من الـوقت ، وليس المهم ان يرى صاحب الرسالة ما يعدهم الله من العـذاب في الـدنيا ، أو يتوفـاه الله ولكنهم بالتـالي يعـودون الى ربهم ، والله شهيد على مواقفهم وأفعالهم.

ولكل أمة رسـول ، فـاذا جـاء الرسـول وبلغ الرسـالة وأتم الحجة عليهم ، قضى الله بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ، بل يجازون بما فعلوا.

ويستعجل الناس العذاب ، ويقولون متى هذا الوعد؟!

ويجيب ربنا قـائلا : ان هنـاك أجلا محـددا لكل أمة يسـتنفذون قبله كل فرصة لهم في الـدنيا ، (**إِذا جـاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**).

وإذا وافـــاهم أجلهم ســـواء بالليل أو بالنهـــار ، فهل يســبقوه ، أو هل هو مما يســتعجله البشر ، وهل يطـالب المجرم بسرعة الجزاء؟!

بل أنهم سوف يؤمنـون بعد انتهـاء الفرصة ، ذلك لأنه أصـبح حقيقة واقعية أمـامهم ، ويعرفـون أن اسـتعجالهم كان خاطئا.

بينات من الآيات :

مجيء الرسول شرط التوقيت :

[47] قبل أن يتم الله حجته على خلقه لا يأخـــــذهم بذنوبهم ، لذلك فأنه تعالى يبعث لكل أمة رسـولا ، ويحـدد لهم أجلا ، فاذا جـاء إليهم رسـولهم وبلّغهم رسـالات ربه ، فـــاذا كـــذّبوه قضى الله بينهم بالقسط ، فمن آمن واتبع هـدى ربّه نجى وأفلح ، ومن كفر أحـاط به البلاء ، والله لا يظلم أحدا ، (**وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**).

(**وَلِكُـلِّ أُمَّةٍ رَسُـولٌ فَـإِذا جـاءَ رَسُـولُهُمْ قُضِـيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

والسؤال : هل أن هذا الرسول يجب أن يكون رسـولا يوحى اليه مباشـرة من الله ، أو قد يكـون وليا من أوليـاء الله تابعا لرسول من قبل الله ، يقـوم بتبليغ رسـالات الله بمثل ما كان يفعل الأنبياء؟

يبدو لي أن عموم الكلمة تشمل القسم الثاني.

[48] ولكن مـــــتى يقضي الله على الأمم؟ وكم هي الفترة بين بعث الرسول ، وبالتالي كفر النــاس بها ، وبين العذاب؟

(**وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

فقد تمتد الفترة ويتأخر العذاب حـتى يتسـاءل الكفـار بأسلوب المنكر المستهزئ

متى العذاب؟ ولماذا لم يأت الدمار الموعود؟!

[49] وهذا السؤال يكشف عن خطأين أساسيين عند البشر :

الخطأ الأول : أن الناس يزعمون أن مبلّغ الرسالة هو الذي ينزل العذاب ، وبالتالي يحـدد موعـده ، بينما الله هو الـذي يحـدد موعد العـذاب لا الرسـول ، أما الرسـول فلا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولهـذا فهو لا يـدعي أنه الـذي يبعث العذاب.

أما الخطأ الثـاني : أن الإنسـان يحسب أن العقـاب يجب أن يكون مباشرة وراء العمل وكأنه النار والحـرارة ، ولا يعرف أن العمل السـيء في المجتمع مثل الميكـروب في الجسد يتكـــــاثر وينتشر ، ثم تظهر عوارضه فتحيط بالجسد وقد تقضي عليه ، وأن بين العمل السيء والجزاء فـترة معلومة عند الله ، إذا انقضت فســوف لا تمــدد ، وبالتالي لا يزيد ولا ينقص.

(**قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِـي ضَـرًّا وَلا نَفْعـاً إِلَّا ما شـاءَ اللهُ**)

فاذا شاء الله أعطى بقدر ما تقتضـيه حكمته ، أعطى في صلاحية العمل وقدرته ضرا أو نفعا.

(**لِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَـلٌ إِذا جـاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْـتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**)

سنن الحق في الحياة :

ان الحيـاة قائمة على مـوازين حق لا تتبـدل بـأهواء الناس ، فهناك عوامل السقوط وعوامل النهوض ، وهناك آثـار ايجابية للإخلاص والتضـحية ، والنشـاط والوحـدة ، ونظافة القلب والجسد ، وســلامة العمل وإتقانه ، كما ان هناك آثـارا سـلبية للغل ، والاسـتئثار ، والكسل والتفرقة ، والعقد النفسية ، والأوساخ المادية ، فإذا تفاعلت

هـذه الآثـار ، ورجحت كفّة الآثـار السـلبية انهـارت الأمة ، بينما تتقـدم إذا انعكست الحالة ، المهم أن الإنسـان قـادر على إنقـاذ الموقف قبل أن يـتردّى الى نهايته ، فهنـاك لا فرصة للخلاص أبدا.

[50] ومن هنا فـــان الـــذين يســـتعجلون العـــذاب ويتساءلون بضجر متى هذا الوعد؟ لا يعرفـون أن العـذاب ليس مما يسـتعجله الإنسـان ، وأنه إذا جـاءهم لم يجـدوا مهربا منه ـ فكيف يستعجلونه؟!!

(**قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً**)

حينما اتخـذتم النـوم لأنفسـكم لباسا للراحة والأمن ، فاذا بالعذاب يباغتكم.

(**أَوْ نَهاراً**)

وأنتم على كامل الاسـتعداد لمواجهة الأخطـار ، ولكن من دون أن تكون لديكم القدرة على مواجهة عذاب الله.

(**ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ**)

هل يستعجلون آلامه الشديدة ، أم يستعجلون تحطيم أمانيهم وقهر كبريـائهم ، ومفارقة أحبّتهم ، هل هي أشـياء يطالب بها الإنسان ، أم أنه الغرور والنزق؟

[51] نعم .. إذا وقع العـذاب وأصـبح حقيقة ملموسة بأيـديهم ماثلة أمـام أعينهم ، آنئذ فقط يؤمنـون به ولكن عبثا!

(**أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَـعَ آمَنْتُمْ بِـهِ آلْآنَ وَقَـدْ كُنْتُمْ بِـهِ تَسْتَعْجِلُونَ**)

وكان استعجالهم السـابق دليلا على عـدم ايمـانهم به وعدم توقعهم لحدوثه.

[52] وأخطر شـــيء في القضـــية هو أن العـــذاب لا ينتهي بل يبقى خالدا.

(**ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُـوا عَـذابَ الْخُلْـدِ هَـلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**)

فـالجزاء هو ذاته الأعمـال الـتي اكتسـبتموها ، والـتي تحولت الى عذاب دائم ، أعاذنا الله منه.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (54) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56) يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)

---

53 [يستنبئونك] : الاستنباء طلب النبأ الذي هو الخبر.
[لافتدت] : الافتداء إيقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه به يقال فداه يفديه فدية.

القرآن يحطّم حواجز الأيمان

هدى من الآيات :

في سياق الدروس السابقة التي كـانت آيـات القـرآن تهـــدينا الى أنّها وحي من عند الله ، تحطّم هـــذه الآيـــات الحواجز النفسية التي تمنع الايمان ، ثم تذكر بـأن القـرآن شفاء وموعظة ، وأنه فضل ورحمة وخير مما يجمع الناس ، فتبـــدء الآية الأولى بالســؤال الــذي يوجهه الكفــار الى الرســول عن أن القــرآن حــق؟ ويجيب الرســول ويحلف بربه الكريم أنه لحق ، أما حاجز الغرور والعزة بالإثم فانه وهم باطل ، إذ أن الكفار ليسوا بقادرين على تعجيز أقدار الله وتفشيل خطط الرسول ، ثم لا ينفع المـال والبنـون ، لأنه حين يأتي العذاب ويراه الظالمون يتمنون لو قبل الله منهم أن يفتـدوا عن عـذاب ذلك اليـوم بكل ما في الأرض لو كـــــانوا يملكونها ، وقد بلغت الندامة أعمق أعمـــــاقهم وقضي بينهم بالقسط ، وجـــــوزوا على أعمـــــالهم وهم لا يظلمون. والحاجز الآخر الذي يحول بين الإنسان والايمـان بيــوم الجــزاء هو تــردده في قــدرة الله أو صــدق وعــده سبحانه ، ولكن أ ليس لله ما في السموات والأرض ، وأن وعده حق كما يدل عليه ما يجري في السموات والأرض؟ ولكن جهل هــؤلاء بالـــدنيا وســـننها هو الســـبب المباشر لضلالتهم ،

ثم أو ليس الله يحـــيي ويميت؟ أو ليس قـــادرا على بعث الناس من جديد؟!

وهكذا ينادي القرآن الناس بأنه جاء موعظة من ربهم ، وانه يشفي صدورهم من عقد الجهل والعصبية والانغلاق ، وانه يهـــدي النـــاس ، وإذا آمن به النـــاس وطبقـــوه فهو رحمة لهم ورفاه ، وهذا الرفاه يجمعه النـــاس من وســائل مادية بحتة لا تعطيهم رفاه ولا رحمة.

بينات من الآيات :

في رحاب الحقائق :

[53] ويتساءل الكفـار هل يـؤمن الرسـول بما يقـول ويقولـــــون له : أحق هـــــو؟ فيجيب الرســــول بحسم وبالضرورة : إنه لحق.

(**وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌ**)

وبين السؤال والجواب نستنبط عدة حقائق :

اولا : بالرغم من أن الحقائق الفلســفية العامة ليست قابلة للتقليد والطاعة العميــاء الّا أن الســؤال عنها مفيد ، إذ قد تحمل الاجابة إشــــارات هادية لك لو فكّــــرت فيها لعرفت الحقيقة مباشرة ، فيكون الســؤال مثل أن يســأل أحد عن مكـــان المـــاء ، فحين يشـــير الآخر اليه ويلتفت السائل يرى الماء مباشرة.

ثانيا : ان احـــدى المشـــاكل الرئيســية الــتي تعــترض طريق الناس عن الايمان هو تهيّب الايمان ، والاعتقاد بأن المؤمـنين ليسـوا في الواقع مؤمـنين بصـدق ، ولـذلك إذا عرفوا صدق ايمان المؤمنين بالرســالة ، زال حــاجز الهيبة وتشــجعوا على الايمــان ، ومن هنا كــان تأكيد المؤمــنين ايمـانهم قوليا وعمليا أو بسـبب تضـحياتهم الرسـالية كـان ذلك ذا أثر فعّال في روحية المترددين والشاكين.

ثالثا : أن الرسول أجابهم بصورة مؤكدة ، وحلف بربه حلفا يــؤثر في وجــدان الســامعين ، لأنه يتصل بمن ربّـاه وأنعم عليه ، وعموما القسم بـالرب قسم وجـداني عميق الأثر.

وبعد الحـوار أكّد الرسـول على أن حـاجز الغـرور هو الذي يفصلهم عن الايمـان ، فـيزعمون أنهم قـادرون على مقاومة نفــوذ الرســالة ، أو الإتيــان بأفضل منها حــتى يسبقوها!! كلا.

(**وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**)

التذكير بالآخرة نقطة الانطلاق :

[54] الإنسان بفطرته مؤمن ، ولكن دواعي الشــهوة والطيش والغـرور ، والجهل تمنعه عـادة عن الارتفـاع الى مستوى الايمان ، ويهدم القرآن جدار الغرور بتذكير البشر بيــوم فاقته ، حين يحين ميعـاد جزائه على ظلمه لنفسه ، عند ما يتمــنى لو كـان يملك ما في الأرض جميعا ليفتـدي بها عن نفسه ، فيخلّصها من العذاب ، ولكن هيهات!!

وهنا لا بد أن يتذكر الإنسان بــأن المهم ليس ما يملك لأنه يزول عنه ، ولكن نفسه وعمله هما الباقيان.

(**وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ**)

ظلما ذاتيا بارتكــــــاب المعاصي ، أو ظلما اجتماعيا باغتصاب حقوق الآخرين ، لو أنها كانت تملك

(**ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَـدَتْ بِـهِ وَأَسَـرُّوا النَّدامَـةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ**)

وربما كان معنى أسرار الندامة الشعور بها عميقا في سـرهم ، وليس بمعـنى اخفائها ، لأنه لا أحد يقـدر على كتمـان حالته يـوم القيامة ، ولكن من المسـؤول عن ندامتهم أو ليست أنفسهم!!

(**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ**)

أي بالدقة التامة دون أي زيادة أو نقيصة.

(**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

الوعد الحق :

[55] ولو زعم الكفار أن اعادة بعث الناس مسـتحيل ، أو زعموا أن جزاءهم في الـدنيا غـير وارد ، فليعلمـوا أن الله هو مالك ما في السموات والأرض وأن وعده حق.

(**أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

ولو كـان لهـؤلاء العلم بـالكون بقوانينه وسـنن الله الحاكمة فيه لعرفوا أن كل عمل يتحـول الى جـزاء عـاجلا أو آجلا. خـيرا أو شـرا ، تلك هي أبسط قاعـدة حياتية ، فكيف لا تنتهي حياة الناس بالجزاء الشامل يوم القيامة؟

[56] والله يحي ويميت ، فهو قادر على احياء النـاس بعد موتهم ، ولذلك فنحن نرجع اليه للحساب.

(**هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

[57] والله الـذي يـذكرنا بنفسه يـنزل القـرآن الـذي يتفجر من خلاله التذكرة

بالله ، وهو موعظة من رب العـــــالمين ، فالــــــذي وفّر للعالمين أسباب معيشتهم ، وهداهم إليها بالغريزة والعقل ، هو الـــذي أنـــزل القـــرآن ليكـــون جســـرا بين الحقيقة والســـلوك ، ويوجه البشر الى الإصـــلاح ، ويحـــذرهم من الفساد ، والسبيل الذي يتبعه الذكر لبلوغ هذا الهدف هو : تزكية النفوس وتهيئتها لقبول الحقـائق فهو شـفاء لما في الصدور ، والنتيجة التي يحصل عليها الناس بعدئذ هي :

أولا : الهداية ومعرفة ما ينبغي عمله وما يجب تركه.

ثانيا : الرحمة الـتي هي الرخـاء والرفـاه والسـعادة ، وهي خاصة بالمؤمنين المنفذين لتعاليم القرآن.

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**)

السعادة الحقيقية :

[58] وعلى الناس أن يفرحوا عند ما يطبقون منـاهج الله ، ويحصـــلون من ورائها على الســـعادة والفلاح ، لأنها سـعادة حقيقية لكل النـاس وفي كل زمـان ، وحـتى في الآخرة.

(**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**)

ربما يكون فضل الله هو القرآن والعترة وأئمة الهـدى ، بينما رحمة الله ما ينتهي اليه العمل بالرسالة.

(**هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**)

من حطام الدنيا الذي أمده قصير ، وخيره محدود في طائفة دون طائفة ، وهو بالتالي يختص بالدنيا فقط.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْـزَلَ اللـهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْـهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَـرُونَ (59) وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَـرُونَ عَلَى اللـهِ الْكَـذِبَ يَـوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (60) وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُـوا مِنْـهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيـهِ وَما يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقـالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّـماءِ وَلا أَصْـغَرَ مِنْ ذلِـكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (61)

---

61 [شأن] : الشـأن اسم يقع على الأمر والحـال تقـول ما شـأنك وما بالك وما حالك.

[تفيضـــون] : الافاضة الـــدخول في العمل على جهة الأنصـــاب اليه مأخوذة من فيض الإناء إذا انصب الماء من جوانبه.

[يعزب] : العزوب الذهاب عن المعلوم وضده حضور المعنى للنفس.

حرمة التشريع من دون اذن الله

هدى من الآيات :

الهـــدف من الـــوحي الالهي هو موعظة الإنســـان ، وشــفاء صــدره وهدايته ، وبالتــالي إنــزال الرحمة عليه ، ويتجسد هذا الهـدف عمليا في التشـريعات الصـائبة الـتي تتجاوز الهوى والشـهوات ، ومن لا يتبع هـدى القـرآن يبـدأ بتشريعات شاذة في رزق الله وفي نعمه السابغة ، فـتراه يجعل بعض النعم حلالا وبعضــها حراما افــتراء على الله ، وبعيدا عن اذن الله ، وماذا ينتظر هؤلاء يــوم القيامة ، بعد أن كفروا بنعم الله وحرموها على أنفســهم؟ أو ليس ذلك خلاف العقل والفطـــرة أن يتفضل الله على النـــاس فلا يشكرونه ، بل ويفـترون عليه الكـذب ويحرمـون رزق الله على أنفسهم؟

ان أعمــال البشر كلها تجــري بعلم الله وبشــهادته ، ففي أية حالة يكون البشر ، وأي عقيـدة ينتمي إليها ، وأي عمل يقوم به ، فـان الله شـاهد عليه حين تحركه دون أن يعيب عنه شــيء بــوزن الــذرة أو أكــبر أو أصــغر ، وهو بالاضـافة انَّ شـهادة الله يسـجّل في كتـاب مـبين ، فعلى البشر أن يتبع في كل عمل من أعماله حدود الله وهداه ، ولا

يعمل حسب اهوائه.

بينات من الآيات :

الوحي هدى الطريق :

[59] لقد جاء الـوحي ليملأ فراغا حقيقيا في الحيـاة ، ذلك لأن الحياة نعمة واسـعة من الله علينا فلا يحق لنا بل لا ينبغي أن نتحرك فيها من دون هدى الله الذي يرسم لنا خريطة التحرك ، ويحدد لنا معالم العمل.

(**قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْـزَلَ اللـهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً**)

وهل يحق لنا أن نتصرف في رزق الله ، ونقول : هذا حرام وهذا حلال؟ كلا .. بل علينا أن نتقيد وفق اذن الله.

(**قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ**)

انها قضية فطرية ، ان التصرف في نعم الله لا ينبغي أن يكـون من دون اذنه ، وهل اذن الله للنـاس إذنا مطلقا بالتصرف في ملكوته ، من دون عقل كـاف وعلم ، أم انه كـــذب وافـــتراء؟ أجل ان علينا أن نبحث عن وحي الله ليحدّد لنا خريطة الحياة.

[60] وماذا يتصور الـذين يفـترون على الله الكـذب ، ويشـــرعون من دون اذن اللـــه؟ وكيف يمكن أن يعـاملهم الله هناك. وقد كفروا بأنعم الله ، فحرموها على أنفســهم وعلى النـــاس من دون اذن الله ، هل يعـــذبهم أم يغفر لهم؟!

ان مجرد التفكير في أن المشرع سـوف يسـأل أمـام الله يوم القيامة يكفيه رادعا عن التشريع بالهوى.

(**وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَـرُونَ عَلَى اللـهِ الْكَـذِبَ يَـوْمَ الْقِيامَةِ**)

لقد منّ الله بمختلف النعم على البشر وسخّر للإنسان ما في السموات وما في الأرض ، وزوّده بقدرة الارادة ونور العقل وسلامة الجسد ، ولكن الناس ضيّقوا على أنفسهم وحدّدوا طاقاتهم بلا سبب ، فرسموا لبعضهم البعض الحدود الزائفة في الأرض ، قائلين هذه أرضك وهذه أرضي ، ثم وضعوا أنظمة للتجارة والصناعة ، ومن ثم صنعوا الأغلال الفكرية والأثقال الثقافية ووضعوها حول نفسيات البشر ، من خوف الطبيعة الى خشية الابتكار ، الى المحرّمات الكثيرة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، الى الرسوم والعادات الباطلة ، وكل ذلك منعهم من الانتفاع بنعم الله وكان بمثابة الكفر بتلك النعم.

(**إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ**)

وهل هذا شكر لفضل الله على الناس ، أن يحرموه على أنفسهم؟! من هنا ينبغي أن يسارع البشر الى وحي الله ، ويؤمن به ويتخذ منه تشريعاته دون أن يحيد عنه قيد شعرة ، لا زيادة ولا نقيصة ، حتى ينتفع بالنعم.

الرقابة الالهية :

[61] البشر محاط برقابة الله عليه ، فلا يكون في وضع ولا ينتمي الى فكرة ولا يعمل عملا الّا ويشهد الله عليه ، لأنه حاضر عنده وليس بغائب عنه ، إذا فعلى البشر أن يجعل أوضاعه وأفكاره وأعماله في أطار الوحي ، ووفق تشريعات الله ، ولا يسترسل في قراراته حسب اهوائه.

(**وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ**)

أي في حال من الأحوال.

(**وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ**)

أي ما تقرأ من القرآن ـ حول ذلك الشأن ــ هـذا عن الرسول والمؤمن الذي يتبع في شؤونه هدى القـرآن ، أما بالنسبة الى غيره فما يتلوه هو أفكاره النابعة من اهوائه ، والله ســبحانه شــاهد عليها كما هو شــاهد على شــأنه وعمله.

(**وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ**)

تحــوّل الخطــاب الى الجماعة بعد أن كــان فرديا ، والسـبب قد يكـون أن لكل إنسـان شـأنه وفكـره ، ولكن العمل عـادة ما يكـون جماعيا يقـوم به أولا أقل يرضى به مجموعة من الناس فيشتركون في مسـئوليته ، ولو بقـدر الرضا عنه وعدم ردع عامله.

(**إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**)

أي حين تخوضون فيه وكـأنكم منفلتـون عن القيـود ، أحـرار في التصـرف لكم مطلق القـرار في العمل ، بينما الواقع غير ذلك وهو أنكم محدودون في أطار شـهادة الله عليكم ، لذلك اتبعوا هدى الله.

(**وَما يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقـالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّـماءِ وَلا أَصْـغَرَ مِنْ ذلِـكَ وَلا أَكْبَـرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ**)

إن كل شــيء له وزنه الخفيف أو الثقيل ، ابتــداء من وزن الـذرة الصـغيرة وحـتى وزن المجـرّة الكبـيرة ، انها جميعا محســوبة عند الله ، ومســجّلة في كتــاب واضح لا تختلط أوراقه ، أو تضــــــيع معلوماته ، من هنا ينبغي أن يتصــرف البشر بعقل وبحــذر ، يضع كل شــيء موضــعه المناسب ولا يرفع قدما ولا يضع خطوة ولا يتحرك قليلا أو كثيرا ، الّا وفق برنامج معد سلفا ، مطابق للـوحي ، حـتى لا تسجل ضده نقطة في كتاب الله ، وفي الدرس القــادم يبيّن القـرآن كيف يتجنب الفـرد هـذه المشـكلة ، مشـكلة الاسترسال في الحياة.

سورة يونس

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللــهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ (62) الَّذِينَ آمَنُـوا وَكـانُوا يَتَّقُـونَ (63) لَهُمُ الْبُشْـرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمـاتِ اللــهِ ذلِكَ هُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (64) وَلا يَحْزُنْـكَ قَـوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65)

أولياء الله البشرى والعزة

هدى من الآيات :

ما دامت حيـاة الفـرد محاطة بشـهادة الله وتسـجل عليه كل حالة وفكرة وجولة ، فان البشر في خطر عظيم ، ويطرح السؤال : كيف الخلاص؟

الجـواب : عن طريق الايمـان والتقـوى ، الـذي يجعل الفـرد وليا لله ، قريبا منه ، ويبعد عنه الخـوف والحـزن ، ويـوفّر له البشـرى في الحيـاة الـدنيا وفي الآخـرة ، والله حكم بألّا يبدل سـنته وكلماته ، بل يعطي للمـؤمن المتقي أفضل النعم في الـدنيا والآخـرة ، ومن تلك النعم العـزة ، لأن العزة لله جميعا ، وهو الذي يعطيها للمؤمنين المتقين ، و (**هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**).

بينات من الآيات :

هل نحن أولياء الله؟

[62] من هو الولي الحقيقي لله؟

إنه المؤمن المتقي الذي لا يجعل بينه وبين ربه حاجبا من غفلة أو شهوة أو ضلالة ، ولان هـذا الفـرد قـريب من مصدر الأمن والبشـرى ، فلا خـوف عليه من المسـتقبل ، ولا حزن على الماضي.

(**أَلا إِنَّ أَوْلِيـــاءَ اللــــهِ لا خَـــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

[63] وكيف يمكن أن يبلغ البشر درجة ولاية الله؟

بالايمـان بالله وبرسـالاته ، وبالتـالي بـالحق الـذي قد يخـالف أهـواءه ، ثم التقـوى بتطـبيق بـرامج الرسـالة في حياته عمليا بالتزام صارم وتعهد مسئول.

(**الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ**)

ويبدو من الآية ضرورة استمرار الايمـان والتقـوى في حياة الفرد ، بدلالة صيغة الماضي المؤكـدة بكلمة «كـان» ذلك لأن أكــثر النــاس يؤمنــون ويتقــون ولكن قبل أن يتعرّضوا لامتحانات عسيرة.

لمن البشرى؟

[64] ولهؤلاء المؤمنين البشرى بحياة آمنة كريمة في الدنيا ، وأفضل منها في الآخرة.

(**لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ**)

والبشــرى هي التطلع الى هــذه الحيــاة الآنية ، ذلك التطلع الذي يحققه الفرد بعمله وجهاده.

(**لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللهِ**)

فالله قد أجـرى في الكـون سـننا حكيمة ، وجعل منها إعطاء الحياة الآمنة السعيدة للمـؤمن ، وانه لا يبـدلها لأنه قوي عزيز ، والواقع ان الايمان بالله وبرسالاته ، والتقـوى بتطبيقها عمليا يعني تسخير أفضل ما في الكـون من أجل سعادة البشر ، والاجتناب عن كل شيء.

(**ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

لمن العزة؟

[65] وبما ان عاقبة الأمر للتقوى ، فان الوصـول الى هــذه العاقبة يمر عــبر صــعوبات كبــيرة ومنها الحــرب الاعلامية التي تحاول بعث اليأس في قلوب المؤمنين عن طريق تسـفيه آمـالهم وطموحـاتهم المسـتقبلية ، وتوجيه نظرهم الى واقعهم الفاسد الذي يعيشـونه ، والـذي يتسم بتسلط الظالمين عليهم ، ولكن القـرآن يؤكد مـرة أخـرى أن هــذا الواقع ســوف ينتهي ويــأتي مكانه واقع أفضل ، حيث العزة والكرامة.

(**وَلا يَحْزُنْـكَ قَـوْلُهُمْ إِنَّ الْعِـزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعـاً هُـوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

فربنا المهيمن على حياتنا لا يـدع المؤمـنين في هـذه الحالة الاستثنائية ، حتى يكـرمهم بالنصر والكرامة ، ولكن بعد أن يوفروا في أنفسهم صفات أولياء الله الـتي جـاءت في النصوص الاسلامية والتي نذكر بعضها فيما يلي :

1 ـ سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طـالب (ع) عن قوله تعالى «**أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ**» فقيل له : من هـؤلاء الأوليـاء؟ فقـال أمـير المؤمنين :

«**قــوم أخلصــوا لله في عبادته ، ونظــروا الى بــاطن الــدنيا ، حين نظر النــاس الى ظاهرها ، فعرفوا أجلها حين غرت الخلق ـ سواهم ـ بعاجلها ، فتركوا ما علموا انه**

سيتركهم ، وأماتوا منها ما علموا أنه سيميتهم» [1]

2 ـ و عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : «وجدنا في كتاب علي بن الحسين (ع)» «**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**» قال :

«**إذا أدّوا فرائض الله ، وأخذوا بسنن رسول الله ، وتورّعوا عن محارم الله ، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا ، ورغبوا فيما عند الله ، واكتسبوا الطيب من رزق الله ، ولا يريدون هذا التفاخر والتكاثر ، ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة ، فأولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا ، ويثابون على ما قدموا لآخرتهم»** [2]

(1 ، 2) تفسير الميزان ص 98 ، الجزء الحادي عشر

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (66) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67) قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (69) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

الشرك بين الظن والخرص

هدى من الآيات :

خلفية الخوف من الجبت والطاغوت هو الشرك بالله. وفي هذا الـدرس يـذكّر ربنا عبـاده بحقيقة الشـرك الـذي ليس هو سـوى الظن والـوهم (تصـورات وخيـالات) بينما الله وحـــده مالك كل من في الســـموات والأرض ، ومن بينها أولئك المعبـــودون من دون الله باسم الشـــركاء ، وأنظمة الحيــاة الــتي تســاعد الأحيــاء على البقــاء ، أنها بدورها من الله ، فهو الذي جعل الليل ليسكن فيه الأحيـاء ، وجعل النهـــار مضـــيئا ، كل ذلك آيـــات لمن يفتح أذنه للسماع.

وليس من قـــوة في الأرض وفي الســـماء الّا وهي خاضعة لله ، وليست أداة وآلة بيد الله ، لأن الله غني وهو أرفع من أن يتخذ مساعدا أو ولدا ، ان هذا الكلام نابع من الجهل الذي لا برهان عليه.

والذين يفترون على الله الكذب ، ويدعون شركاء لله أو أولاد ، لا يفلحـــون ولا ينـــالون الســـعادة ، إذ أن بعض المتعة يصيبهم في الدنيا ، وبعدها يذوقون عذاب النار

الشديد بسبب كفرهم بالله.

بينات من الآيات :

الملك لله :

[66] لا خوف على المؤمنين بل لهم النصر والعـزة ، وأن أصـحاب السـلطة ، أنهم ليسـوا في الواقع سـوى مملـوكين لله ، كما أن الملائكة والجن من سـكان السموات الذين يعبـدون من دون الله ، ويـزعم البسـطاء أن لهم تأثيرا حاسما على أحداث الحياة ويعيشون الرعب من تأثيراتهم ، كل أولئك مملوكين لله!!

(**أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكاءَ**)

انهم ليسـوا شـركاء لله ، بل عبـاد مربوبـون ، كـأي شخص أو شيء آخر ، وفي الواقع اتباعهم لهؤلاء نـابع من التصور والوهم.

(**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**)

فخلفية الشـرك بالله العظيم ، هي اتبـاع الخيـال والاحتمال ، فمن يتبع العقل يتخلص من التصورات النابعة من قـوة الخيـال ، أو من ضـغوط الشـهوات ، لأن العقل يميّز بين الخيال النـابع من الحب والغضب (الهـوى) وبين الرؤية الصـافية للحقـائق ، كما أن من يتبع العلم يتخلص من سلطان الاحتمالات التي لا مرجح لأحـدها على الآخر ، أما الجاهلي فانه يتبع الظن والخـرص ، وهما يدعوانه الى الخضوع للشركاء.

تدبير الله :

[67] والله هو المهيمن على الكائنـات ، فهو الـذي قدّر الليل والنهار ، فجعل

الليل ساكنا هادئا يأوي فيه كل حيّ الى فراش النوم ، والراحة ، أما النهار فانه جعله مضيئا يساعد الأحياء على الأبصار ورؤية الأشياء ، مما يدفعهم الى النشاط والحركة.

(**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً**)

فهو الذي يملك أمر الناس ، ويدبّر شئونهم ، وعلينا الّا نخضع للناس من دون الله مالك شئونهم ، ولكن هذه الحقيقة البسيطة قد يغفل عنها بعض الناس بسبب افتقادهم لأبسط شروط القيم وهو السماع.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**)

أما الذين يتّبعون الظن والخرص فلا يدعوهم احساسهم بالحاجة الى العلم ، ولا يدعوهم الى السماع ، وبالتالي الفهم.

لا والد ولا ولد!!

[68] ليس هناك ما يوازي سلطان الله لا في العرض ولا في الطول ، أي لا يوجد هناك شريك لله يكون بمستوى علمه وقدرته سبحانه ، كما لا يوجد هناك ولد لله يستمد منه صفاته الألوهية سبحانه.

(**قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُ**)

ولماذا يتخذ الله ولدا؟ هل لأنه سوف يموت فيستخلفه الولد؟ أم لأنه عاجز عن ادارة أموره فيساعده الولد؟ أم لأنه فقير فيعطيه الولد شيئا؟ كلا .. إن ربنا غني بذاته .. وسبب غناه انه يملك كلما يوجد في السموات والأرض من قوة وامكانية.

(**لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

أما الذين يزعمون أن لربنا ولدا فهم لا يعلمون شيئا من مقام الألوهية المقدس

عن النقص ، ويشـــبّهون خـــالق الســـموات والأرض بالمخلوقات العـاجزة ، دون أن يكـون لهم دليل الّا جهلهم بالحقيقة.

ولو سألتهم كيف تتصوروا بـأن لله ولـدا؟! لأجـابوا إذا كيف يـدبّر السـموات والأرض؟! ولا يعلمـوا ان تـدبير الله ليس كتدبير البشر بـالأداة والوسـيلة والوسـائط ، بل انما أمره أن يقول : «كن» فيكون.

(**إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**)

عاقبة الافتراء :

[69] وإذا عرف البشر ان الكلام من مسئوليته ، وأنه لو قـــال كلاما من دون دليل خصوصا فيما يرتبط بـــرب العالمين فانه مسئول عنه ، وأنه يسـبّب له الشـقاء إذا ما بادر بالافتراء على ربه العظيم.

(**قُــلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَــرُونَ عَلَى اللــهِ الْكَــذِبَ لا يُفْلِحُونَ**)

والسبب ان الكـذب على الله يسـبب انحرافا عقائـديا وسـلوكيا كبـيرا. يجـرّه الى انحرافـات لا تحصى ، وتجعل حياته جحيما لا يطاق.

[70] ثم ان الآخرة تنتظرهم بعذاب شديد.

(**مَتـاعٌ فِي الـدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَـرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُـذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ**)

ولا يسع البشر أن يقول لم أعرف ، إذ يقـال له لمـاذا اتبعت جهلك وهـــواك ، ولم تســـمع كلام الحـــق؟! أو لم تبحث عنه بصدق! من هنا نعـرف ان الهـدى والضـلالة من مسئوليات الإنسـان ، ولو عـرف البشر هـذه الحقيقة ، إذا ما ضلّ كثير منهم

بالاسترســال واللامبــالاة. والقــول بغــير الحق ، والقــرآن الحكيم في هـذا الـدرس وفي دروس أخـرى يـذكّر البشر بهذه الحقيقة لأن ذلك طريق قريب لهداية الإنسان.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِـهِ يا قَـوْمِ إِنْ كـانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَـذْكِيرِي بِآيـاتِ اللـهِ فَعَلَى اللـهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْـرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُـوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِـرُونِ (71) فَـإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَى اللـهِ وَأُمِــرْتُ أَنْ أَكُــونَ مِنَ الْمُسْــلِمِينَ (72) فَكَــذَّبُوهُ فَنَجَّيْنــاهُ وَمَنْ مَعَــهُ فِي الْفُلْــكِ وَجَعَلْنــاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كـانَ عاقِبَـةُ الْمُنْذَرِينَ (73)

---

71 [كبر] : عظم وشق.

[غمة] : الغمة ضيق الأمر يوجب الحزن.

نوح يتحدى بالرسالة الكافرين

هدى من الآيات :

تلك كانت محتويات الرسالة الالهية : التـذكرة بالعقل ، والتوجيه الى الله ومقاومة الجاهلية التي هي اتباع الظن والخرص ، وهناك محتوى آخر للرسالة الالهية يشـهد على أنها حق من رب العـالمين وهو توكل المؤمـنين بها على الله ، واستقامتهم أمام كل الضغوط ، اعتمادا على الغيب كما فعل شـيخ المرسـلين نـوح (ع) ، حيث تحـدى قومه بكل وضـوح فقـال : ان كـان تـذكيري بالله صـعبا عليكم فـاني قد تـوكلت على الله ، فـاجمعوا أمـركم ولملمـوا قـواكم أنتم وشـركاؤكم ، ثم لا يكن أمـركم بينكم غمة ، تحزنـون على تفـريطكم في الاسـتعداد للمواجهـة. ثم طالبهم نوح بالمواجهة الفعلية دون تعطيل.

أما إذا تـوليتم فلن أطـالبكم بـأجر ، وهـذا دليل آخر على صدق الرسالة ، ولن أطالبكم بأن تصـبحوا مسـلمين لي بل لله. بيد أن قوم نوح كـذّبوه ، فتـدخّل الغيب الـذي اعتمد عليه ونجّـاه الله ومن معه في الفلك ، وجعلهم الله ورثة لمن هلكوا

بالغرق ، وهكذا كانت عاقبة الذين كذبوا ـ الهلاك.

بينات من الآيات :

التوكل سلاح المؤمن :

[71] حين نتلو قصة الرسالات السماوية في صراعها مع الجاهلية ، نـزداد وعيا بحقيقة هـذه الرسـالات وايمانا بصدقها ، ولهذا يكرّر القرآن بيان هذه القصة الواحـدة في جوهرها ، والمختلفة في صـــورها ، فهـــذا نـــوح شـــيخ المرسلين يتحـدى قومه بسـلاح الرسـالة وحـدها ، متـوكلا على الله.

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قـالَ لِقَوْمِـهِ يا قَـوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللهِ**)

فان كان صعبا عليكم قيامي ضد أفكاركم وتقاليدكم ، وخروجي عن أطـار الرسـوم والعـادات ، بـالرغم من أني واحد منكم ، فأنتم قومي دون غيركم ، والأصعب من ذلك عليكم انـــني أذكـــركم بآيـــات الله ، وأحـــاول ردعكم عن الأفكار والتقاليد التي آمنتم بها ، فان كان كل ذلك عظيما عندكم ولا يمكنكم احتماله.

(**فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ**)

دون خـــوف منكم ، ودون اعتمـــاد على قـــوة مادية دونكم ، بيد أن الله الذي أتوكل عليه قوي عزيز ، لـذلك لا أخشى منكم بل انني أتحداكم بصلابة.

(**فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ**)

أي اجمعـوا كل ما تملكـون من قـوة مادية ومعنوية ، وأضـيفوا إليها قـوة شـركائكم ، دون أن تـتركوا شـيئا من الاستعداد حتى لا تحزنوا غدا.

(**ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً**)
باعثا للغم والأسى.
(**ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ**)

من حقائق الرسالة :

أي رتّبوا أمـركم فيما يخصـني ، وضـعوا خططكم في مقاومة رسالتي ، وتفاصيل مكركم ضدي بمتانة وإحكـام ، ولا تعطوني مهلة أبدا.

إنه تحداهم بقـوة الرسـالة ، ونابـذهم العـداء اعتمـادا على الله ، مما دلّ على الحقائق التالية :

أولا : ان الرســالة ليست ناشــئة الوسط الثقــافي والاجتماعي حتى تكون متأثرة به سـلبيا ، بل ثـورة مباركة ضد سلبيات هذا الوسط.

ثانيا : ان الرســول مــؤمن قبل أي أحد برســالته ، ويضـحّي من أجلها بكل ما يملك ، ولو كـان ـ حاشا لله ـ كاذبا أو ساحرا لما أقدم على التهلكة من أجلها.

ثالثا : أن الرسـالة ظـاهرة غيبية تتحـدى كل العوامل المادية وتنتصر عليها ، والرسول عارف بذلك.

رابعا : انها لا تــداهن الســلبيات القائمة ، ولا تجــري لاصلاحها سبيل التدرج المرحلي ، أو الطرق السلمية ، بل تتحـداها جـذريا ، لأنها جـاءت من عند الله خـالق النـاس ومالك السـموات والأرض ، ولـذلك لا معـنى للمهادنة ، أو تقديم التنازلات المرحلية ، أو السكوت عن السلبيات.

صدق الرسالة والرسول :

[72] وأخذ نوح (ع) ينصح قومه بأسلوب آخر ، حيث أوضح لهم أن هدفه من تبليغ الرسالة ليس أبـدا الحصـول على مكاسب مادية ، بل رضـــــوان الله وأنه هو أول من يعمل بما يقول.

(**فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَـأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**)

وهكذا سائر الرسـالات السـماوية لا يهـدف العـاملون عليها والمبشرون بها بلوغ مطـامح مادية مما يشـهد على صدقهم فيما يخبرون.

[73] والذي حدث في نهاية المطـاف دلّ على صـدق الرسـالة أيضا ، حيث أهلك الله وبطريقة غيبية قـوم نـوح ونجّاه هو والمؤمنين برسالة الله.

(**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كـانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**)

الـذين أنـذرهم الله عن طريق رسـوله نـوح «عليه السـلام» لقد انتهت عـاقبتهم بـالغرق بسـبب تحـديهم للرسـالة واسـتكبارهم ، أو ليس ذلك شـاهد على صـدق الرسالة الالهية؟!

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْــدِهِ رُسُــلاً إِلى قَــوْمِهِمْ فَجــاؤُهُمْ بِالْبَيِّنـاتِ فَما كـانُوا لِيُؤْمِنُـوا بِما كَـذَّبُوا بِـهِ مِنْ قَبْـلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُـوبِ الْمُعْتَـدِينَ (74) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْـدِهِمْ مُوسى وَهـارُونَ إِلى فِرْعَـوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْـرِمِينَ (75) فَلَمَّا جـاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِـحْرٌ مُبِينٌ (76) قـالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَـقِّ لَمَّا جـاءَكُمْ أَ سِـحْرٌ هـذا وَلا يُفْلِحُ السَّــاحِرُونَ (77) قــالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَـدْنا عَلَيْـهِ آباءَنا وَتَكُـونَ لَكُمَا الْكِبْرِيـاءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (78)

---

78 [لتلفتنا] : اللفت الصرف عن الأمر.
[الكبرياء] : السيادة والسلطة.

هكذا يطبع الله على قلوب المعتدين

هدى من الآيات :

ومضت رســالات الله على ذات الســنّة ، حيث بعث الله أنبيـاءه الكـرام الى قـومهم ، فجـاء الرسل بالبينـات لهداية قـــومهم ، ولكنهم رفضـــوا الايمـــان كما رفضه الأسبقون ، وذلك لتمرسهم بالاعتداء والظلم.

وهكـذا اسـتمرت سلسـلة الرسـالات حـتى جـاء دور موسى حيث بعثه الله تعـالى وهـارون الى فرعـون وملأه بآيات الله ، فاستكبر فرعون وكبار المفسـدين ممن حوله ، ورفضـــوا الهداية ومارســـوا عمليا الجـــرائم بحق المستضـعفين ، واتهمـوا موسى بأنه سـاحر ، كما اتهمـوا رسالته الحقة بأنها سحر واضح ، وتميّز موسى غضبا كيف يقولـون للحق انه سـحر بينما السـاحر لا يفلح ولا ينتصر ، ولكنهم عانـدوا بـالرغم من دحض بـاطلهم ، وقـالوا المهم عنــدنا البقــاء على دين آبائنا ، واننا لا نتنــازل عنه ، ولان هدفكم هو السلطة ، واننا لا نؤمن لكم أبدا.

وهكــذا تكــررت ســيرة نــوح عند موسى وهــارون باختلاف بعض التفاصيل ، ولكن

بذات المحتوى.

بينات من الآيات :

خط الرسالة :

[74] رسالات الله تشكل خطا مستمرا عبر العصور ، كما ان الجاهلية التي تقف أمام الرسالات تشكل خطا ثابتا في جوهره ، وعلينا البحث عن خط الرسالات الذي يجسد اليوم واقع الرسالات السابقة بجوهرها فننتمي اليه.

(**ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ**)

كما الرسالات خط ، فالجاهلية خط مستمر معها ، فان قوم نوح كذّبوا رسالته ، وكذّب قوم إبراهيم برسالته لماذا؟

لاشتراكهم جميعا في دوافع التكذيب ومنها الاعتداء الذي هو تجاوز الحقوق ، والإسراف في النعم ، والذي جاءت رسالات الله من أجل إنقاذ البشر منه ، وكما جاء في آية قرآنية أخرى حيث قال سبحانه : (**لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ* وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**) (25 / الحديد).

فاقامة القسط والعدالة في الأرض هدف الرسالات الالهية ، كما أن منع الإسراف في الشهوات وتوجيه الغرائز ، وبالتالي مقاومة ما يسمى بالظلم الذاتي هدف آخر للرسالات ، وطبيعي في هذه الحالة أن يقف المعتدون الظالمون للناس أو لأنفسهم أمام الرسالة ، ذلك لأن الظلم ظلمان فظلم في القلب ، وظلم في السلوك السيء ينعكس سلبيا على النفس ، ويحجب عنها نور العقل.

(**كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ**)

فالمعتـدون تنغلق قلـوبهم عن الاهتـداء ، وهـذه سـنة من سنن الله سبحانه.

موسى وفرعون النموذج البارز :

[75] وكمثل على هـذه الحقيقة يستشـهد به القـرآن الحكيم ، ليعطينا رؤية واضــحة تجــاه ما يمكن أن يكـــرر يوميا في حياة النـاس ، كمثل عليها قصة موسى وهـارون (ع) الـذين بعثهما الله برسـالاته الى فرعــون الطـاغوت وملأه ، أي كبـــار معاونيه المفســـدين في الأرض ، ولكن بسبب ممارستهم الجريمة ، والظلم ، والاعتداء ، وبسـبب انعكـاس سـلوكهم الفاسد على فكـرهم ، اسـتكبروا عن قبول الرسالة.

(**ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْـــدِهِمْ مُوسى وَهـــارُونَ إِلى فِرْعَــوْنَ وَمَلَائِهِ بِآياتِنا فَاسْــتَكْبَرُوا وَكــانُوا قَوْمــاً مُجْرِمِينَ**)

[76] كيف استكبروا؟ وهل اعترفوا بالحقيقة وهي أن ظلمهم للناس ، هو سبب استكبارهم وضلالتهم؟ كلا .. بل بـرّروا رفضـهم للرسـالة بتـبريرات باطلة ، مما يمكن أن يتكرر في كل عصر.

(**فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ**)

إنهم رفضــوا التســليم للحق الــذي هو من عند الله خـالقهم ، والـذي كـان واضـحا لا ريب فيه ، ونسـبوا الحق الى السـحر ، والنـاس البسـطاء لا يمـيزون بين السـحر والرسـالة ، إذ كلاهما خـارق لعـاداتهم ولا يعـرف النـاس مغزاهما ، لـذلك تلبّس الأمر على النـاس ، وهكـذا أضـلوا النـاس ، وكـذلك يمكن أن يتكـرر الأمر مع النـاس في كل عصر ، فالطـاغوت وملأه حين يخـالفون الحق لا يعـترفون بالدوافع الحقيقة لمخـالفتهم من اسـتكبارهم ، وتمرسـهم بالجريمة والظلم ، بل يتهمــون الحق ببعض التهم الـــتي تضـلل النـاس البسـطاء وتفتنهم ، وتلبّس الحق بالباطل ، وتشبه الرسالة بالسحر ، والثورة

بالفوضى ، والإصـــلاح بتعكـــير صـــفو الأمن ، والمطالبة بالحرية والمساواة بالهرطقة والتمرد على القيم هكذا.

فعلى الناس أن يتسلحوا بالوعي الكـافي للتميـيز بين الأقــوال الــتي ينطق بها أصــحاب الرســالة ، أو أنصــار الطـاغوت ، ولا يرفضـوا الرسـالة بالتـأثر بالشـبهات الـتي تثيرها أجهــزة الطغــاة ضــدها ، وهــذا من عــبر القصص القرآنية حول الرسل.

الرد الرسالي :

[77] وكما كانت شبهة الطغاة حول الرسالة متناسبة مع بسـاطة الجمـاهير ، فـان رد هـذه الشـبهة من طـرف الرسل كان بلغة مفهومة لـدى الجمـاهير السـاذجة أيضا ، مما كشف زيف الشبهة لهم.

(**قالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جـاءَكُمْ أَ سِـحْرٌ هذا**)

فلقد نفى موسى أن يكون كلامه سـحرا ، وأوضح أنه حق ، والحق واضح المعــالم بعيــدا عمن ينطق به ، فــاذا جاءكم الحق سواء عن طـريقي أو بطريق آخر ، لا بد لكم أن تقبلوه وتطيعـوه ، وربما تشـير الآية الى أن الحق هـذا كان مقبولا عندهم إذا بقي بعيدا عنهم ، فكل الناس حــتى الطغاة منهم يتفوهون بالحق ويعتقــدون به ، بل يطــالبون الآخرين بتحقيقه ، فمن الذي لا ينطق بالعدالة ولا يطــالب بالتقدم والتطوير؟!

ولكن إذا جاءه الحق وعارض مصالحه ، رفضه ونسبه الى الســحر ، بينما الحق نفسه لما كــان عند غــيره كــان مقبولا ولا يسمى بالســحر ، أو ليس هـذا الـدليل البسـيط والمفهوم عند الناس كافيا لدحض شبهتهم؟

ولم يكتف موسى بهذا الدليل بل تابع مضيفا :

(**وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**)

مؤكــدا انه يــرفض مهنة الســحر ، بينما الســحرة يفتخرون بها ، وهذا وحده كاف للدلالة على أنه غير ساحر ، ثم أن الســــــاحر لا يبلغ أهدافه لأنه لا يتبع الحق ، بل يجري وراء مصالحه وتراه في صف الظـالمين والطغـاة ، ولا يتسم سـلوكه الشخصي بـالقيم الانسـانية ، بل تجـده عادة متـوغلا في الرذائل المنبـوذة عند النـاس ، وبالتـالي تجد الساحر بسبب مواقفه السياسـية وسـلوكه الشخصي مكروها عند النـــاس ، ولا يقـــدر على تحقيق أهدافه من أمامة الناس ، وقيادة المجتمع ، بينما الرسـول يـدعو الى فطـرة الحق ، ويقف الى جـانب المستضـعفين ، ويطبّق تعـاليم السـماء في توجيه النـاس الى الخـير ، وسـلوكه الشخصي سـلوك مثـالي ، مما يجعله قريبا الى قلــوب النـاس ، قريبا الى تحقيق أهدافه منتصـرا سـعيدا ، وهـذا واضح للنـاس جميعا ، فالنـاس أنّى كـانوا رأوا أو سـمعوا المصـلحين وفي طليعتهم الرسل ، وعرفـوا السـحرة انئذ يمكنهم أن يعرفوا الفرق بين هذين الطرازين من الناس ، بأدنى توجيه وتذكرة.

النخوة الجاهلية :

[78] وحين زهق باطل الطغـاة ، عاند القـوم وأثـاروا في الناس نخوة الجاهلية ، والخوف من الإصلاح.

(**قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا**)

فنحن قـوم متحضـرون ذو وتقاليد قديمة كيف نـؤمن بكم وأنتم ضدها؟!

(**وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ**)

فأنتما لستما من رسل الحق بل من طلاب المنصب ، وهـذه تهمة مباشـرة للشـخص ، بينما موسى كـان يوجه الحديث الى محتوى الرسالة ، وهذا التغيير هو من

عادة الطغاة ، حيث يحولـون الصـراع بينهم وبين أصـحاب الدعوة الى صراع شخصي بينما هو صراع فكري لذلك.

(**وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ**)

وكأن موسى وهارون دعوا قومهما بالايمان بهما دون الرسالة.

وهكـــذا انتهت مرحلة البلاغ ، وجـــاء دور الصـــراع السياسي الذي نقرؤه في الدرس القادم بأذن الله تعالى.

وَقالَ فِرْعَـوْنُ ائْتُـونِي بِكُـلِّ سـاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قـالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِـهِ السِّـحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِـدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِـهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الْمُجْرِمُـونَ (82) فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِـهِ عَلى خَـوْفٍ مِنْ فِرْعَـوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَـوْنَ لَعـالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْـرِفِينَ (83) وَقـالَ مُوسى يا قَـوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّـهِ فَعَلَيْـهِ تَوَكَّلُـوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقالُوا عَلَى اللـهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَـةً لِلْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِـكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (86)

---

83 [ذرية] : الذرية جماعة من نسل القبيلة.

الفشل عقبى المستكبرين

هدى من الآيات :

وجـــاء دور الصـــراع الثقـــافي والاجتمـــاعي ، وجمع فرعون سحرته الماهرين في السحر وطلب منهم موسى أن يلقوا سحرهم ، فلما ألقوا قال موسى متحديا ومتـوكلا على الله ان الله ســـيبطل ســـحركم ، لأن الله لا ينصر المفســدين ، وهم الســحرة الــذين يبتغــون الفســاد من ســـحرهم ، وان الله يحق الحق بكلماته ، الغيبية الحقة ، ولو كره فرعون وأمثاله من المجرمين.

وآمن لموسى ورســـالته ذرية من قومه من بـــني إســرائيل ، خــائفين من فرعــون والمفســدين من أعوانه لكي لا يكرههم على الكفر مرة أخرى ، لأن فرعـون كـان عاليا متجبرا ومتسلطا على الناس ، و كان من المسرفين الذين يستخدمون كل امكاناتهم في لحظة واحدة.

ولكن موسى الـذي تحـدى السـحرة بعـزة الله ، أمر قومه المؤمـنين بتحـدي فرعـون بقـوة الايمـان ، وسـلاح التوكل على الله والتســليم لأوامــره ، ولما يســتوجب أوامره من

تضـحيات ، واسـتجاب قومه لهـذا الأمر فتوكلـوا على الله سبحانه وقالوا «**رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ**» تمتحنهم بنا ، فيقتلوننا ويعـــذبوننا دون أن تـــردعهم غيبيا لكي تبتليهم ، ودعـــوا الله أن ينجيهم برحمته من القـــوم الكافرين.

بينات من الآيات :

ودقت ساعة الصفر :

[79] وحانت لحظة المواجهة ، الـتي كشـفت الخلفية الغيبية للرســـالات الســـماوية والـــتي تميزها كليا عن الدعوات الاصـلاحية أو الثـورات الاجتماعية أو الصـراعات السياسـية ، تلك اللحظة الـتي وقف فيها موسى (رسـول الله) يتحـدى كل أسـلحة الطـاغوت بإيمـان راسخ وعـزم شديد.

(**وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ**)

[80] (**فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُـوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ**)

لقد تحـداهم موسى لأنه لا يـرهب قـوة سـحرهم ، لا لأنه كان يعرف ماذا سيحدث إذا ألقوا سـحرهم تفصـيليا ، بل دون أن يعـرف ما هو سـحرهم بالضـبط ، ولكنه كـان عالما بالنتيجة عن طريق ايمانه بالله.

[81] (**فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ**)

وعلمه بأن الله سـيبطل سـحر السـحرة كـان بـدوره نابعا من معرفته بسنة الله في الحياة التي تقضي بابطـال الفساد.

(**إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**)

والســحرة مفســدون ، لا يهــدفون إصــلاح المجتمع بعلمهم ، والفساد شذوذ ينتهي ،

وانحـــراف يزهق ، وباطل لا يـــدوم ، والله لا يصـــلحه ، بعكس الرسول المصلح الذي ينشد اقامة الحق والعدل.

نصر الله :

[82] (**وَيُحِـقُّ اللـهُ الْحَـقَّ بِكَلِماتِـهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الْمُجْرِمُونَ**)

فـالحق ينصـره الله ، مـرة بكلماته الرسـالية الـتي تفضح الباطل ، وتعطي للمؤمنين بالحق سلاحا إيديولوجيا وبرنامجا ثوريا متكاملا ، ومرة بكلماته الغيبية التي إذا قال لشـيء «كن» فيكـون ، أما الطـاغوت فانه مجـرم بحق الناس ، والمجرم لا سلطة له على الحياة بـرغم التظـاهر بذلك.

[83] وهكـذا استمر الصـراع حـتى تبلـور في ايمـان طائفة من النـــاس بالرســـالة وتجســـيدها لمفاهيمها وبرامجها.

(**فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَـوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ**)

لمـاذا خشـوا من فرعـون؟ إنهم خـافوه على دينهم حتى لا يفتنهم عن الدين بالضغط الشديد.

(**أَنْ يَفْتِنَهُمْ**)

ولقد كان فرعون متسلطا على النـاس ، مسـرفا في استخدام موارد الطبيعة.

(**وَإِنَّ فِرْعَـــوْنَ لَعـــالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**)

التوكل سلاح الحسم

[84] ولكن بـــالرغم من علو فرعـــون وإســـرافه ، وبالرغم من قدرته وثروته ، فان

موسى أمر قومه بالتوكل على الله.

(وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)

وهكـذا أمـرهم موسى بـأن يكونـوا مثله في التوكل على الله.

[85] (فَقالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

انما قالوا هذه الكلمة الحاسـمة بعد أمر موسى لهم ، وتـذكيرهم بأنها شـرط الايمـان بالله ، وشـرط التسـليم لقضـائه وقـدره ، ولكنهم بـالرغم من تـوكلهم على الله ، كانوا يتطلعون الى النجاة من مأساتهم.

ولم يكونـوا يهـدفوا تعـذيب أنفسـهم مثلما تفعله (السـادية) أو تـوحي به بعض المـذاهب الصـوفية ، لـذلك تراهم يدعون الله لكي لا يجعلهم مـادة لاختبـار الظـالمين وابتلائهم ، مما يـدل على أن الله يقـدّر لبعض المؤمـنين الشـهادة ولا يمنع عنهم ظلم الظـالمين ، امتحانا لأولئك الظالمين ، بالرغم من أنه سبحانه ينصر عبـاده المؤمـنين في عاقبة الأمر ، جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق (ع) ان معنى هذه الآية : «لا تسلطهم علينا فتفتنهم بنـا» [1].

الرؤية في الصراع :

[86] لـذلك تضـرّع المؤمنـون من قـوم موسى الى ربهم لكي ينجيهم قائلين :

(وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ)

وهذه هي رؤية المؤمنين الى الصراع ، فليست عاقبة الصراع مجهولة ، ولا هي في

(1) راجع مجمع البيان ج 3 / ص 224

مصلحة الكفار ، ولكن لا يعني ذلك ان الصراع يكون سهلا وبلا تضحيات ، أو بلا عمل واجتهـاد ، والـدعاء الى الله هو نوع من العمل.

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَـوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْـرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُـوتَكُمْ قِبْلَـةً وَأَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَبَشِّـرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقـالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَـوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِـلُّوا عَنْ سَـــبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْـــوالِهِمْ وَاشْـــدُدْ عَلى قُلُـوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُـوا حَتَّى يَـرَوُا الْعَـذابَ الْأَلِيمَ (88) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَـبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (89) وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْـرائِيلَ الْبَحْـرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ

---

87 [تبوّء] : تبؤا أي اتخذا يقال تبوأ لنفسه بيتا اي اتخذه وبـوأت له بيتا اي اتخذته له.

88 [اطمس] : الطمس محو الأثر.

90 [وجاوزنا] : المجاوزة الخروج عن الحد من أحد الجهات الأربع.

[فأتبعهم] : الاتبـاع طلب اللحـاق بـالأول وأريد به انه اقتـدى بهم واتبع أثرهم.

[بغيا] : البغي طلب الاستعلاء بغير حق.

[عدوا] : العدو والعدوان الظلم.

بَغْياً وَعَـدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَـهُ الْغَـرَقُ قـالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلـــهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِـــهِ بَنُـــوا إِسْـــرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْـلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَـدْ عَصَـيْتَ قَبْـلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِـدِينَ (91) فَـالْيَوْمَ نُنَجِّيـكَ بِبَـدَنِكَ لِتَكُـونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغـافِلُونَ (92) وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِـدْقٍ وَرَزَقْنـاهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)

هكذا نصر الله رسوله

هدى من الآيات :

وبعد أن آمنت ذرية من قـوم موسى بالرسـالة ، اتخذ الصراع شكلا اجتماعيا ، وأمر الله رسـوله أن يتخذ لقومه المؤمـنين بيوتا متقاربة ومتقابلة ، وأن يقيمـوا الصـلاة ، ويبشر المؤمـنين ، وهكـذا انفصل المؤمنـون عن الكفـار ، بيد أن زينة الدنيا ومباهجها وثرواتها كانت بأيـدي الكفـار ، فـدعى موسى ربه الاّ يـدع فرعـون وزبانيته يضـلون عن سـبيل الحق بسـبب تلك الزينة ، والأمـوال ، بل يطمس على أمـوالهم ، ويشـدد على قلـوبهم فيسـلبهم علمهم وعقلهم ، فلا يؤمنوا حتى يأتيهم العذاب ، فلا ينفع الايمان.

فاستجاب الله لدعوة موسى وهارون ، ولكنه أمرهما بالمقابل أن يستقيما والاّ يخضعا للضغوط فيتبعـان سـبيل الجاهلين ، ولكن كيف تحقق دعاء موسى وهارون؟ومتى؟

حينما هيأ الله لبـني إسـرائيل البحر بطريقة غيبية ، فعـبروه الى صـحراء سـيناء ، فلحقهم فرعـون وجنـوده ليفتكوا بهم ولكنهم أغرقوا ، وحين أحـاط به المـاء قـال : آمنت

انه لا اله الا الله ، بعد أن جاءه العذاب الأليم ، وناداه مناد هل تـؤمن بعد أن عصـيت الله وأفسـدت في الأرض؟ ان الايمان لا ينفع الآن ، وان الله سوف ينجيك ببـدنك لتكـون لمن خلفك آية وعبرة ، بيد أن كثيرا من النـاس عن آيـات الله غافلون.

ولقد هيأ الله لبـني إسـرائيل مقاما آمنا ، ورزقهم من الطيبـات ، وما اختلفـوا الّا من بعد أن جـاءهم العلم ، فلم يقصّـر الله سـبحانه بحقهم ، وإن الله سـوف يقضي بينهم يوم القيامة بالنسبة الى خلافاتهم.

بينات من الآيات :

ضرورة التجمع :

[87] في بعض مراحل الصراع بين الإسلام والجاهلية ، تحتـــــــــاج الفئة المؤمنة الى تجميع أفرادها في كتلة اجتماعية رصـينة ، لكي يقـاوموا الضـغوط ولا يـذوبوا في تيـــار الجاهلية الخـــادع ، ومن هنا أوحى الله الى موسى وهـــــارون أن يبنيا لقومهما بيوتا مجتمعة الى بعضـــــها ومتقابلة ، لمقاومة احتمالات الاعتداء ، وأن يقيموا الصلاة ، ويعطوا أمل الانتصار للناس.

(**وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيــهِ أَنْ تَبَــوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُـوا بُيُـوتَكُمْ قِبْلَـةً وَأَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**)

واقامة الصــلاة تزيد التلاحم الرســالي كما تزيد روح المقاومة ، كما أن روح الأمل وانتظار الفــرج تحافظ على مســتوى النشـــاط والحيوية في الرســاليين ، وفي تلك الأجـواء المنغلقة كـانت اقامة الصـلاة والبشـارة ضـرورة هامة ، لكي لا يفقد المؤمنون روح النشاط والترابط.

الدعوة على الكافرين :

[88] وبعد الفصل الاجتمـــــــــاعي بين الفئة المؤمنة والأغلبية الكافرة ، حانت المرحلة الثانية حيث دعا موسى ربه بأن يسلب من فرعـون وملأه المفسـدين ما أعطـاهم من الثروة والسلطة.

(**وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَـةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**)

قيل بأن الزينة هي الحلي والثياب ، وقـال البعض انها الجمال وصحة البدن ، وأعتقد أن الكلمة (الزينة) شـاملة أيضا لحسن الذكر والهيبة الاجتماعية ، مما يكون جانبا من السلطة ، إذ السلطة تعتمد على عامل مـادي هو المـال ، وعامل معنوي هو تسليم النـاس لها ، واعتبـار المشـرفين عليها أفضل من غيرهم.

(**رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ**)

فالسلطة يجب أن تكون سببا لسعادة الناس ، وليس طريقا لضـلالة النـاس عن سـبيل الله ، كما فعل فرعـون وملأه فاستحقوا العذاب ، ويبـدو لي أن لفظة (اللام) في كلمة «**لِيُضِـلُّوا**» لا تـدل على العاقبة ، ولا على الهـدف والغاية ، بل بمعنى الاستفهام ، اي هل كان المـال والزينة بهدف ضلالة الناس أم بهدف هدايتهم واسعادهم؟! بالطبع الجـواب أنه كـان بهـدف الهداية ، إذ ان فرعـون وملأه كفروا بنعمة السلطة وينبغي أن يسلبها الله منهم.

(**رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ**)

أي اجعلها بحيث لا ينتفعون منها ، كما تطمس الـديار بالريـاح فتمحـوا آثارها ، فمثلا مع انعـدام الأرزاق ، وقلّة السلع ، وافتقاد الأمن في سبل التجارة لا

ينفع المال شيئا ، ومع انتشار الأوبئة والأمراض السـارية ، والجفاف وسوء الطقس لا ينفع المال شـيئا ، ومع انتشـار الإرهـاب ، وتسـلط الديكتاتورية ، والغلاء الفـاحش لا ينفع المال شـيئا ، وهكـذا يفعل الله بمن لا يشـكر نعمة المـال فيسلب فائدته.

(**وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ**)

أي انــزع اللين والانفتــاح من قلــوبهم حــتى تصــبح قلــوبهم متحجــرة ، ومنغلقة ، والتحجر يســبب فقــدان العواطف والاحاســـيس ، وبالتــــالي فقــــدان الترابط الاجتمـاعي بين أبنـاء الفئة الحاكمة ، كما أن الانغلاق يمنع التطوير والتقدم ، ويسبب الجمود على الأفكار السـابقة ، وهكذا يـزول حكم هـؤلاء بسـبب الشد على قلـوبهم ، لأن السلطة الـتي عبّر عنها القـرآن ـ فيما يبـدو لي ـ بالزينة مستحيلة مع التفتت والجمود.

ومن أبرز مظاهر الجمود أن صاحبه لا يؤمن بالحقائق إلّا بعد فوات الأوان.

(**فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ**)

والسـلطة المسـتمرة هي الــتي تحس بــالتطورات القائمة وتحاول احتوائها ، وآل فرعون لم يؤمنوا بما حدث الّا بعد أن أدركهم الغرق.

استجابة الدعوة :

[89] وكان ذلك بسبب دعاء موسى وهارون.

(**قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما**)

ولكن هل الدعاء وحده كاف للقضاء على الجاهلية؟

كلا .. بل يجب أن يلتزم صاحب الدعاء بدوره بمحتوى دعائه ، فحين يـدعو المسـلم على الطـاغوت بـزوال سلطانه ، فعليه الّا يخضع لهذا الطاغوت ، لأن خضوعه له نوع من الدعم له ، وبالتـالي مخـالف لوجهة دعائه ، وحين يلعن الثـائر سـلطة جـائرة فـان معـنى اللعن ابتعادها عن رحمة الله ، وهكذا يجب عليه الّا يـدعم هـذه السـلطة بل يحاربها أيضا ، كما يطلب من الله أن يحاربها ، لـذلك أمر الله تعالى موسى وهارون في مقابل استجابة دعائهما أن يستقيما.

(**فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**)

والاسـتقامة تعـني مقاومة ضـغوط الطـاغوت قبل سقوطه ، مثل : السجن ، والتعـذيب ، والقتل ، والتجويع ، بيد أن محاربة الطـاغوت بحاجة أيضا الى محاربة نهجه الفاسد ، فالفئة المؤمنة يجب أن تغـير ذاتها سـلوكيا ، ثم تتعهد بتطـبيق بـرامج الله على نفسـها في علاقاتها مع بعضـها ، وفي اتباعها لقيادتها الرسـالية ، وفي سـلوكيات أبنائها الشخصـية ، وهـذا بعض معـاني الكلمة الأخـيرة في الآية.

[90] وجاوز الله تعـالى ببـني إسـرائيل البحر بسـبب اسـتقامتهم ، واتبـاعهم نهج الرسـالة ، وأغـرق الله تعـالى فرعون وجنوده استجابة لدعاء المؤمنين.

(**وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَـأَتْبَعَهُمْ فِرْعَـوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً**)

أي لحقهم فرعـون اسـتعلاء في الأرض ، وطلبا للسلطة ، وظلما للناس.

(**حَتَّى إِذا أَدْرَكَـهُ الْغَـرَقُ قـالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**)

وهكذا استمر فرعون كافرا حتى جاء العـذاب الأليم ، فآمن في الوقت الذي لم ينفعه الايمان.

[91] ولكن الايمان بعد حلول العذاب لا يجدي صاحبه شيئا ، لذلك خاطبه الحق.

(**آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**)

أي أ تؤمن الآن ، بعد مشـاهدة العـذاب بينما عصـيت قبل ذلك وأفسدت في الأرض؟

[92] والتهمت الأمـواج فرعـون ، ولكنها قـذفت بدنه خارجا ليكـــون آية لمن بعـــده ، كيف انتهت عاقبة ذلك الطاغوت الذي ادّعى أنه الرب الأعلى لبني إسـرائيل؟ ولا يزال في متاحف مصر بعض أجساد فراعنتها.

(**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَـةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ**)

الاختلاف بعد العلم :

[93] وهكـــذا انتصـــرت الفئة المؤمنة بالرســـالة ، المتوكلة على الله ، والمتحدية ســـــــــلطان الجاهلية ، انتصـرت بـإذن الله على كيد الطـاغوت ، ولكن انتصـارهم لم يكن بالمكر والظلم بل بالعمل الصالح.

(**وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ**)

أي مكّنهم الله مقاما آمنا بصدق.

(**وَرَزَقْنـــاهُمْ مِنَ الطَّيِّبـــاتِ فَمَا اخْتَلَفُـــوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ**)

فاختلافهم اللاحق لم يكن بسبب الرسالة ، بل بسبب أهوائهم ، وكان بعد

وضوح السبيل أمامهم.

(**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِـي بَيْنَهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ فِيما كـانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**)

إذ الحق عند الله ، وغموضه عند طائفة من النـــــاس انما هو بسبب اتباعهم للهوى والشهوات.

فَـإِنْ كُنْتَ فِي شَـكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْـكَ فَسْـئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِـكَ لَقَـدْ جـاءَكَ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَـرِينَ (94) وَلا تَكُـونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيـاتِ اللـهِ فَتَكُـونَ مِنَ الْخاسِـرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُـونَ (96) وَلَـوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَـوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَـوْمَ يُـونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَـذابَ الْخِـزْيِ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (98)

---

94 [الممترين] : طلب الشك مع ظهور الدليل.

قوم يونس تابوا في الوقت المناسب

هدى من الآيات :

بعد أن استعرض السياق قصص الرسالات السـابقة ، وكيف كفر بها النـاس ، فتوكل المؤمنـون بها على ربهم ، حـتى نصـرهم ، بيّن هـذا الـدرس عـبرة تلك القصص فيما يخص الرسـالة الخاتمة ، وأمر رسـوله ومن ورائه كل من يقــرأ الكتــاب بأنه لو كــان في شك من الرســالة أو من انتصارها ، فليسأل العـارفين بالتـاريخ ، وان هـذا هو الحق من الله ، ولا يكـونن من الشـاكين ، ولا من الـذين كـذّبوا بآيات الله وخسروا ، فيكون مثلهم خاسرا.

بلى أن الذين ظلموا أنفسهم وانحرفوا سلوكيا ، إنهم حكمـوا من قبل الله بالضـلالة ، فحقت عليهم كلمة ربك ، ولـذلك فهم لا يؤمنـون حـتى ولو جـاءتهم مختلف الآيـات التي يطالبون بها ، والتي يعتقد انها لو جـاءتهم آمنـوا بها ، أجل انهم سـوف يؤمنـون في لحظة مشـاهدة العـذاب ، حين لا ينفعهم ايمـــانهم ، كما لم ينفع أيّة قرية من هـــذه القرى الظالم أهلها الذين أهلكهم الله بكفـرهم وبـذنوبهم فلم يؤمنوا

الّا في لحظة الهلاك ، إلّا قوم يونس لما آمنــوا كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحيـاة الـدنيا وأعطـاهم مهلة الى فترة محددة.

بينات من الآيات :

بين الشك واليقين :

[94] لم يشك الرسـول في صـحة رسـالة الله الـتي أنزلت اليه ، ولكن خشية الرسول كانت من عـدم تطـبيق الرسالة بسبب جحود الكفـار ، وبسـبب حكمة الله البالغة الــتي قد تقتضي تأجيل نصر الله لرســالته ، كما كــانت خشية موسى (ع) حين ألقى السـحرة حبـالهم فسـحرت أعين الناس ، كـانت خشـيته آنئذ من أن تشـاء حكمة الله الّا ينصر رســـالته في تلك اللحظة فتنة للنـــاس ، وابتلاء للرسول.

بيد أن هـــذا الشك وهـــذا الخـــوف يقل حينما نراجع التاريخ ، ونسأل الـذين يقرءونه ، حيث ينصر ربنا سـبحانه رسالته في لحظة الحرج وساعة العسرة.

(**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ**)

ولا يعـــني الســـؤال هنا أن يـــذهب رســـول الله أو المؤمنون به الى شخص مثل «عبد الله بن سـلام» الـذي آمن بالرسالة ، وكان عارفا بتـاريخ الرسـالات ، إنما جـرى الحديث مجـرى العمـوم ، أي مراجعة الخـبراء والعـارفين بالتـاريخ من جميع الطوائف ، وطـبيعي أن سـؤالهم يؤيد الحقائق القرآنية ، ولكن بشرط أن يكونوا ثقاة ـ والثقة ـــ شرط فطري وعقلي للعالم الذي يسأله الناس.

(**لَقَــدْ جــاءَكَ الْحَــقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُــونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**)

أي حين تراجع التـاريخ وتـرى كيف نصر الله رسـالاته آنئذ ابتعد عن الشك الى

اليقين ، وهذه الآية توحي ببعض الحقائق الـتي نشـير إليها فيما يلي :

ـ ألف : ان الخطابـــات القرآنية لا يجب أن تكـــون موجهة الى شخص الرسـول ، لأن القـرآن كتـاب الله الى النـاس جميعا ، وبـذلك لا نحتـاج الى التأويل كلما وجـدنا خطابا في الآيات ، ولذلك قال الزجاج في هـذه الآية كلاما نراه في كل الآيات المتشابهة تقريبا قال : «بأن هذه الآية قد كثر سؤال النـاس عنها وخوضـهم فيها ، وفي السـورة ما يدل على بيانها ، فان الله سبحانه يخاطب النـبي وذلك الخطاب شامل للخلق ، فالمعنى : «**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَـكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْـكَ فَسْـئَلِ**» والـدليل على قوله في آخر السـورة : «**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَـكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُـدُ الَّذِينَ تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ ، وَلكِنْ أَعْبُـدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ**» [1] فأعلم الله سبحانه أن نبيه ليس في شك.

ويبقى أن نـذكر أن عـدم شك الرسـول ومتانة يقينه انما جاء بسبب الوحي ، فلو لا الـوحي ولـولا روح القـدس الذي كان يأتيه بـالوحي ، أذا كـان الرسـول بشـرا كسـائر الخلق ، ولذلك ينبغي الّا نحـاول فصل الرسـول وعصـمته ورفعة درجته عن القرآن وأثره فيه.

بـاء : ان الانتفـاع بـالعلم الحقيقي جـزء من رسـالة الدين ، ولا يقتصر هذا العلم بالفيزياء والكيمياء مما يتعلق بـالعلوم التجريبية ، بل وأيضا التـاريخ والاجتمـاع والـتي تسمى بالعلوم الانسانية ، ولكن بشـرط فصل الرواية عن الدراية ، وفصل المعلومـــات الحقيقية عن النظريـــات الاحتمالية.

جيم : ان الشك واليقين عملان من عمل البشر الذي يختارهما اختيارا ، ذلك

(1). يونس / 104

لأن الشك قد يكون بسبب انعـدام العلم ، وهـذا مفـروض على البشر وموجـود بسـبب عجز البشر الطـبيعي ، ولكن قد يكون الشك نابعا من الهوى واتبـاع الشـهوات ، فكثـير أولئك الـذين يشـكون في الحقـائق ، لأنّهم قـرّروا سـلفا البقاء في شـكهم ، ولأنهم لا يفكـرون منطقيا ولا يبحثـون عن المصادر السليمة للمعرفة ولأنهم بالتالي يخـافون من مسـئوليات العلم الـتي لا بد أن يتحملها كل عـالم ، لـذلك نهى ربنا عن أن يكون الفرد من الشاكين ، لأن الشك من عمل الإنسان.

كيف تخسر نفسك؟

[95] كما أن الكفر والأيمـــان من عمل الإنســـان ، لذلك نهى القرآن من أن يكون الفـرد مكـذبا بآيـات الله ، بـأن يتخذ موقفا سـلبيا مسـبقا من كل دليل علمي يـدل على الحقيقة.

(**وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيـاتِ اللـهِ فَتَكُـونَ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

ولماذا يكذب الفرد بالحق ، أو ليس من أجل مصالحه وشـــهواته؟! ولكن عليه أن يعـــرف أن التكـــذيب بـــالحق يسبب له خسارة نفسه ومصيره.

[96] والسؤال الذي يفرض نفسه لماذا يسبب الفـرد خسارة نفسه عن طريق تكذيبه بآيات الحقيقة؟

الجواب : أن فريقا من الناس يكـذّبون بـالحق بسـبب سـوء أعمـالهم وسـلوكهم ، فمن اعتـاد الظلم ، ومـارس الجرائم يطبع الله على قلبه حتى لا يؤمن ، الّا في وقت لا ينفعه ايمانه.

(**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ**)

[97] وعدم ايمان هذا الفريق من الناس ليس بسبب نقص في الآيـات ، بل بســبب انغلاق أنفســهم دون نــور الايمان.

(**وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ**)

أجل انهم يؤمنون فقط حين يرون العذاب فلا ينفعهم ايمانهم.

(**حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ**)

التكذيب سنة اجتماعية :

[98] يبقى أن نعــرف أن ذلك ليس قـــدرا مقضـــيا عليهم بل سنة اجتماعية ، والفرق بين القدر والســنة ، أن القـدر كطلـوع الشـمس من مشـرقها في وقتها لا يخضع أبــدا لارادة البشر ، بينما الســنة كما الثــورة ضد الظلم ، وسقوط الطاغوت ، قد يتقدم أو يتأخر ، أو حتى لا يقع إذا أراد الإنسان ، فقد لا يقرر الشعب المضـطهد الثـورة ضد جلاديه ، وقد يغـير الطـاغوت عاداته الظالمة في الــوقت المناسب فيمدد في أجله ، وهكـذا جحـود الظـالمين وكفر المكذبين بآيات الله ليس قـدرا ، بل سـنّة ، فمن الممكن عقلا أن يدور المرء مائة وثمانين درجة باتجاه الصـلاح كما فعل قــوم يــونس ، ولكن لا يقع ذلك عــادة بســبب تكـبر الفاسقين وتعاليهم عن التوبة الّا بعد فوات الوقت.

(**فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها**)

أي لمــاذا لم يقــدم هــؤلاء ايمــانهم في الــــوقت المناســـب؟ لمـــاذا لم يتب الطـــاغوت حين رأى تململا اجتماعيا ، بل أخذته العـزة بـالإثم ، حـتى أصـبح التململ ثورة عارمة؟ ولماذا لم يتب الشعب المتوغل في الفســاد الخلقي ، وفي ظلم بعضـــــهم لبعض ، حين رأوا قصا في الثمرات ، وتدهورا في الاقتصاد ، وفي الصحة العامة ، بل استمروا في غيّهم حتى أنهار اقتصادهم وصحتهم تماما؟!

أنّ هـذا التحـريض القـرآني الشـديد يـدل أولا : على امكانية تحـول الفـرد والمجتمع تحـولا جـذريا قبل فـوات الأوان ، وثانيا : أنه يدل على الصعوبة البالغة لهذا التحـول ، مما يقتضي التحريض بكلمة عنيفة وهي (لولا).

أجل ان قوم يونس ضربوا مثلا رائعا في هـذا التحـول ، الذي ينبغي أن يكون قدوة للمجتمعات الضالة التي يعبّر عنها القرآن الحكيم عادة بكلمة (قرية).

(**إِلَّا قَـوْمَ يُـونُسَ لَمَّا آمَنُـوا كَشَـفْنا عَنْهُمْ عَـذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ**)

الى أن انتهى أجلهم الطـبيعي الـذي حـدّده الله لهم ، فالأمم كما الأفراد ينتهون بطريقـتين : اما بصـورة طبيعيّة كحالة الشـيخوخة ، وأما بسـوء أعمـالهم كحالة القتل في الفرد ، والاضطراب في الأمة.

وقد سميت هذه السورة باسم يونس لأهمية التحــول الاجتماعي الـذي حـدث عند قومه ، فليس من السـهل أن يســـتيقظ مجتمع مسترسل في الفســـاد ، ســـادر في الميوعة واللامبالاة مرة واحدة ، ويعود الى رشده الأولي.

و جاء في حديث الصادق (ع) عن قصة قوم يونس :

(أنه كـــان فيهم رجل اســـمه (مليخا) عابد ، وآخر اسـمه (روبيل) عـالم ، وكـان العابد يشـير على يـونس بالدعاء عليهم ، وكان العالم ينهاه ويقول له لا تـدع عليهم ، فـــان الله يســتجيب لك ولا يحب هلاك عبـــاده ، فقبل يونس قول العابد فدعا عليهم ، فأوحى الله اليه أنه يأتيهم العـذاب في شـهر كـذا .. في يـوم كـذا .. فلما قـرب ذلك الـوقت خـرج يـونس من بينهم مع العابد ، وبقي العــالم فيهم فلما كـان اليـوم الـذي نـزل بهم العـذاب فقـال لهم العالم : أفزعوا الى الله فلعله يرحمكم ويرد العذاب

عنكم ، فأخرجوا الى المغارة وفرّقوا بين النساء والأولاد ، وبين سـائر الحيـوان وأولادها ، ثم أبكـوا وأدعـوا ففعلـوا فصرف عنهم العذاب ، وكان قد نزل بهم وقـرب منهم) [1].

وجاء في بعض التفاسير أن قوم يونس قد تابوا بعدئذ توبة نصـوحا ، حـتى ردّ كل ظـالم ، حق المظلـوم اليه ، حتى أن الحجر كان في أساس البنـاء وكـان غصـبا ، كـان الفرد يهدم بناءه ويرده الى صاحبه.

وفي هذا الحديث اشارة واضحة الى السبب في توبة قوم يونس وهو : تواجد العلماء بينهم ، واحترامهم لمقـام العلم.

---

(1) نور الثقلين ج 2 ص 328

وَلَـوْ شـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعـاً أَ
فَـأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ (99) وَما
كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِـإِذْنِ اللـهِ وَيَجْعَـلُ الـرِّجْسَ
عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُـونَ (100) قُـلِ انْظُـرُوا ما ذا فِي
السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ
لا يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْـلَ أَيَّامِ الَّذِينَ
خَلَـــوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُـــلْ فَـــانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِــرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُــلَنا وَالَّذِينَ آمَنُــوا
كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

بصائر الاختيار السليم

هدى من الآيات :

يتساءل القارئ للآيـات السـابقة : لمـاذا وكيف يختـار البشر طريق الايمان أو الكفر؟! فيجيب هـذا الـدرس عن هـذا السـؤال بإعطـاء بصـيرة ذات أبعـاد أربع عن الايمـان والكفر وهي :

1 ـ لا يتحقق الايمـان بـالإكراه ، لا من قبل الله ، ولا من قبل الرســول ، فلو شـــاء الله لآمن من في الأرض جميعا ، ولكنه لا يكــره النــاس على الايمــان ، فهل يحق لبشر أن يكــره النـاس على الايمـان وخـالق البشر أحق بذلك ، لو كانت المصلحة تقتضيه؟.

2 ـ ان الايمــان نعمة كبــيرة يتفضّــل بها الله على الإنســان ، بعد توفــير شــرائطه من قبله وان الله يجعل الــرجس وهو الكفر ومفاســده المترتبة عليه على أولئك الذين لا ينتفعون بنور عقولهم فلا يعقلون.

3 ـ إذا فتح الإنســــان عينه ، ونظر الى ما في السموات والأرض نظر اعتبار من

دون حجـاب ، فانه يـوهب الايمـان ، ولكن إذا قـرّر الفـرد عـدم الايمـان سـلفا فكل الآيـات والنـذر لا تغنيه ولا تنفعه شيئا.

4 ـ أن انتظـار الكفـار هو تحـول الغيب الى شـهود ، والحقيقة المبشر بها الى واقع قـــائم أمـــامهم ، مثل أن ينزل عليهم فعلا العذاب الذي يتوعــدهم به الرسل ، وآنئذ لا ينفعهم الايمــان كما لم ينفع الــذين كــذّبوا بالرســالات الســابقة ، وانما نفع المؤمـنين من قـومهم الـذين نجـاهم الله ، وهذا وعد حق يقطعه الله على نفسه للمؤمنين عبر العصور أنه ينقذهم مما ينتظر الكفار من العذاب.

بينات من الآيات :

الأيمان مادة الاختبار :

[99] لقد خلق الله الحياة ليختبر فيها النـاس ، وجعل مـادة الاختبـار الايمـان ، وقد منح ربنا للبشر حرية القـرار فيما يخص الايمــان ، وكــان بإمكــان ربنا القــدير أن يهب الإنســـان نعمة الايمــــان بمثل ما وهب له نعمة العين ، وأضاء له النهـار ، ولكنه لم يفعل ، فعلينا الّا نحـاول إجبـار الناس على الايمان.

(**وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعـاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**)

أي هل أنت تضــغط عليهم باســتمرار حــتى يصــبحوا مؤمنين ، فهذا أمر يتنـافى مع حكمة الاختبـار في الـدنيا ، وهو لا يمكن عمليا لأنه بعيد عن ســنة الحرية الـتي قرّرها الله للبشرية.

الأيمان ومشيئة الله :

[100] ثم ان الايمــان ليس كــأي عمل آخر يقــوم به البشر ، بل ان جانبا منه

متعلق بمشـــيئة الله ، فهو كالنصر في الحـــروب لا يمكن اليقين به مائة بالمائة.

(**وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**)

فالله يأذن للنفس البشرية أن تقتبس شـعلة من نـور الايمــــان ، بعد أن تــــوفر النفس في ذاتها كل العوامل الممكنة ، وتتصل بربّها عن طريق الضـراعة والتبتل ، وإذا كانت النفس منطوية على غل أو فسـاد ، فـان الله العليم والمحيط بأبعـــاد النفس لا يـــأذن لها بالايمـــان ، وهـــذه الحقيقة تـدعونا أولا الى اعتبـار الايمـان مسـتوى رفيعا لا يبلغه الفـــرد الاّ بعد جهـــاد صـــعب ، وبعدئذ فهو فضل من الله.

ثم ان الايمان حقيقة خارجية ، حيث أنه رؤية واضـحة ، وعرفـان شـامل ، وتطويع للشـهوات ، وتـرويض للنفس الجموحة ، فهو عموما رحمة من الله ، ان الكفر نقمة ينزلها الله على من لا يعمل جاهدا من أجل الحصول على الايمان.

(**وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**)

والذين لا يبلغون مستوى الايمان هم الذين لا ينتفعون بنـــور العقل الـــذي زودوا به من قبل الله ، فوقعـــوا في رجس الجهل والشهوات.

هل نتفكر؟

[101] ان الفرد الذي ينتفع بعقله يكفيه أن ينظر الى ملكـوت السـموات والأرض ، الى الجبـال الراسـية الـتي تحفظ الأرض من أن تميد ، وتترابط من داخلها بطبقـــات صخرية ، وتحتفظ في أجوافها بـأحواض مـاء عـذب تتفجر عيونا وتجري أنهارا ، كما تخزن المعادن الثمينة من الـــذي وضعها مواضعها ، وثبت بها الأرض الـتي انبسـطت أمامها مهادا للناس ، يتخـذون من ترابها اللين فراشا ، ومسـتقرا ، ويزرعونها لمعاشهم؟

وإذا نظرت الى السماء ، الى مواقع نجومها ، ونظـام مجراتها ومنظوماتها الشمسية ، الى تعادل الجاذبية فيها ، الى سـعتها وامتـدادها بحيث لا يسـتطيع علم البشر أن يلاحقها ، ولا تقـدر الأجهـزة التلسـكوبية المتطـورة أن تبصـرنا أبعادها ، وتختفي المسـافات العادية لنتحـدث عن المسافات النورية فنقول : مليون عام ضـوئي يفصل بيننا وبين المجـرة الكذائية ، أي أن النـور الـذي خـرج من مصدره وصلنا بعد مليون عـام ، بينما يسـير النـور في كل ثانية مسـافة مائة وثمـانين ألف ميل ، وإذا أردنا أن نعد أجرامها فسوف يتجاوز الحساب رقم الملايين إلى البلايين ، علما بـأن بعض أجـرام السـماء أكـبر من أرضـنا ملايين المـرات ، حـتى لتبـدوا أرضـنا كحبّة رمل في صـحراء مترامية ، من الـذي أنشـأها ودبّر أمرها ، وحافظ على أنظمتها الحكيمة ، هل أنا وأنت أم هـذا الطـاغوت وذلك الـثري وذلك الكـاهن ، أم الله خـالق السـموات والأرض سبحانه؟!

ولكن حين لا يريد الفرد الايمـان ، أو بتعبـير آخر حين يصمم على الّا يـؤمن بالله مهما كـانت آياته واضـحة ، فما ذا تغنيه الآيات؟! وماذا تفيده كلمات التحذير والإنذار؟!

(**قُـلِ انْظُـرُوا ما ذا فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ**)

عذاب الله متى؟ وكيف؟

[102] لمـاذا يصـمم البشر على عـدم الايمـان؟ أو ليس استجابة لشهواته العاجلة ، زاعما ان الكفر يـوفر له المزيد من المتع الماديـة؟ ولكن الحقيقة غـير ذلك إذ أن الكفر يسلب منه نعم الله ، ويرديه في واد سحيق.

(**فَهَـلْ يَنْتَظِـرُونَ إِلَّا مِثْـلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ**)

الجميع ينتظر ولكن الرسول ينتظر الفرج بينما الكفار ينتظرون عذاب الله ، الذي يحل بهم عاجلا أم آجلا.

[103] وعــذاب الله ليس أعمى يصــيب الجميع ، بل يبتعد عن رسول الله والمؤمنين ، لأن الله هو الذي يرسل عذابه وهو الحكيم العليم.

(**ثُمَّ نُنَجِّي رُسُـلَنا وَالَّذِينَ آمَنُـوا كَـذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ**)

ونجـــاة الرســـول والمؤمـــنين دليل واضح على أن العذاب ليس بسـبب عوامل طبيعية ، كالشـتاء والصـيف ، لأنه ان كان كذلك شمل الجميع ، بل بإرادة غيبية ، كما ان ذلك دليل على أن الناس لو آمنوا لتجنّبوا العذاب بايمانهم ، وربما تشير نهاية الآية الى هذه الفكرة.

قُـــلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَـــكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُـدُ الَّذِينَ تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ وَلكِنْ أَعْبُـدُ اللـهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَـــكَ لِلـــدِّينِ حَنِيفـــاً وَلا تَكُـــونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُـكَ وَلا يَضُرُّكَ فَـإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (106) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللـهُ بِضُـرٍّ فَلا كاشِـفَ لَـهُ إِلاَّ هُـوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْـرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْـلِهِ يُصِـيبُ بِـهِ مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الـرَّحِيمُ (107) قُـلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَـدى فَإِنَّما يَهْتَـدِي لِنَفْسِــهِ وَمَنْ ضَــلَّ فَإِنَّما يَضِــلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (109)

الرسول

عامل برسالته شاهد على الناس

هدى من الآيات :

في الــدرس الأخــير من هــذه الســورة ، حــدّد الله مسئولية الرسـول لو لم يتبعه النـاس شـكا في رسـالته ، تلك هي رفض عبــــــادة الآلهة ، وإخلاص العبودية لله ، والايمان الصادق به ، وتطبيق أحكـام الله ظـاهرا وباطنا ، والّا يــدعو مع الله الآلهة والأصــنام البشــرية والحجرية ، فيكـــون آنئذ ظالما لنفسه لأنها لا تضر ولا تنفع ، ذلك لأن ما ينفع ويضر حقا هو الله ســبحانه ، الـــذي لو أصـــاب الإنسان ضرما كشفه سوى رحمته الواسـعة ، وان أصـابه خــير فبفضــله ســبحانه ، ولا أحد يســتطيع ســلبه منه ، فمســئولية الرسـول هي إخلاص الطاعة لله ، ولكنه ليس مسئولا عن النـاس ، لأن الهـدى في منفعة البشر نفسه ، كما ان الضلال يضـرّه شخصـيا ، أما الرسـول فانه يتبع ما يــوحى اليه ، ويصــبر بانتظــار حكم الله الــذي هو خــير الحاكمين.

بينات من الآيات :

موقف الرسول :

[104] من أهم المكاسب الرسـالية لبعثة الأنبيـاء هو إنشاء واقع اجتماعي جديد ، يتجـاوز دور التبليغ والـدعوة ، فـاذا كـان خط الكفر والضـلالة شـاكا في دين الله ، فـان النـبي على يقين من هـذا الـدين نظريا ، ويعمل بـبرامج الـدين عمليا ، فيصـنع بـذلك واقعا اجتماعيا ثقيلا ومتينا ، تمهيدا لتأسيس مجتمع مؤمن الى جانب المجتمع الكافر ، وخط ايماني نقي الى جانب خطوط الشرك والشبهة.

(**قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي**)

والـتردد مبعثه الشـهوات والأهـواء ، وتهيّب الواقع الجديد ، فـان الرسـول ليس في شك من دينه ، بل أنه على يقين وهو قـدوتكم جميعا في هـذا الخط ، وعمله الخالص لله يفتح لكم الطريق الذي تجبنـون من السـلوك فيه.

(**فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**)

فأنا أول من تحمل الضغوط ومشاكل الكفر بالشركاء والتمرد على سلطان الآلهة.

(**وَلكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

أي أني شخصـيا أنتمي الى جماعة الايمـان في مواجهة الجاهلية.

مسئولية الرسول :

[105] وقد أكّد القرآن الأمر الأخـير ، الـذي جـاء في نهاية الآية السابقة ، وهو السـبق الى الايمـان والاسـتقامة عليه ، لأهميته في زرع بذور الايمان في تلك النفوس

الشاكة والمترددة.

(**وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ حَنِيفـاً وَلا تَكُـونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)

أي انفصل عن واقع الجاهلية نظريا بالحنفية ، وعمليا بالتوحيد.

[106] وجـــــاءت الآية الثالثة تؤكد نهاية الآية الثانية وهي رفض الشرك وتعلّلها بقوله تعالى :

(**وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ**)

أي لا تطلب حاجة من الآلهة الصـــــــــماء أو الآلهة البشــرية الضـعيفة الــتي تعبد من دون الله ، من دون أن تملك شيئا من قوة النفع والضرر الّا بأذن الله.

(**فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ**)

ان التسليم للآلهة والشـركاء ظلم للنفس ، حين يفقد البشر هويته الـــتي هي أغلى جـــوهرة يملكها ، وهو ظلم للنـاس بتشـجيع الضـلالة الفكرية ، والتسـلط السياسي ، وهو ظلم للشركاء أنفسهم بتشجيعهم على امتهـان حرفة الطغيان ، والزعم بأنهم آلهة من دون الله.

[107] النافع الضـار هو الله حقا ، لأنه إذا ابتلى أحـدا بضرّاء لا يكشفها أحد غـيره ، وان منح خـيرا لم يقـدر أحد على سلبه.

(**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللـهُ بِضُـرٍّ فَلا كاشِـفَ لَـهُ إِلَّا هُـوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْـلِهِ يُصِـيبُ بِـهِ مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**)

الـــذي تســـبق رحمته غضـــبه ، ولا يؤاخذ أهل الأرض بألوان العذاب رحمة بهم

وفضلا ، ولا يعجل على المذنبين بذنوبهم.

مسئولية الجماهير :

[108] الرســول أول من أمر بالعمل برســالته ، وهو رائد المؤمـنين الـذي يخـترق طريق الايمـان بثقة وعـزم وتوكل على الله ، ولكنه ليس وكيلا عنهم فلا يجـبر النـاس على الايمان ، ولا يسلبهم مسئولية قرارهم النهائي برفض أو قبول الرسالة ، بل من ضل فضـلالته موجهة ضد نفسه ، ومن اهتدى فهدايته نافعة لنفسه.

(**قُـلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جـاءَكُمُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَـدى فَإِنَّما يَهْتَـدِي لِنَفْسِـهِ وَمَنْ ضَـلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**)

[109] ولكن اســتقامة الرســول على طريق الحق تكلفه الكثـير ، فـان عـدم اتبـاع الضـلال سـوف يؤذونه بمختلف الوســائل ، وعليه ان يصــبر وينتظر حكم الله ، وهذا الصـبر بـدوره دليل آخر على صـدق رسـالته ، ويرفع حواجز الشك والتردد الموجودة في نفوس النــاس ، حيث يتهمون الرسول بأنه يطلب السلطة أو الثروة ، ولكن هل هــذا طريق من يطلب الـدنيا ، أن يخـالف دين النـاس ، ويثـور ضد كل قـوة أرضـية ، ويصـبر على الأذى في هـذا الطريق؟!

(**وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ**)

الفهرست

سورة الانفال

سورة التوبة

سورة يونس